مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

السنة الثانية - العدد الرابع - نوفمبر ٢٠٢٠م

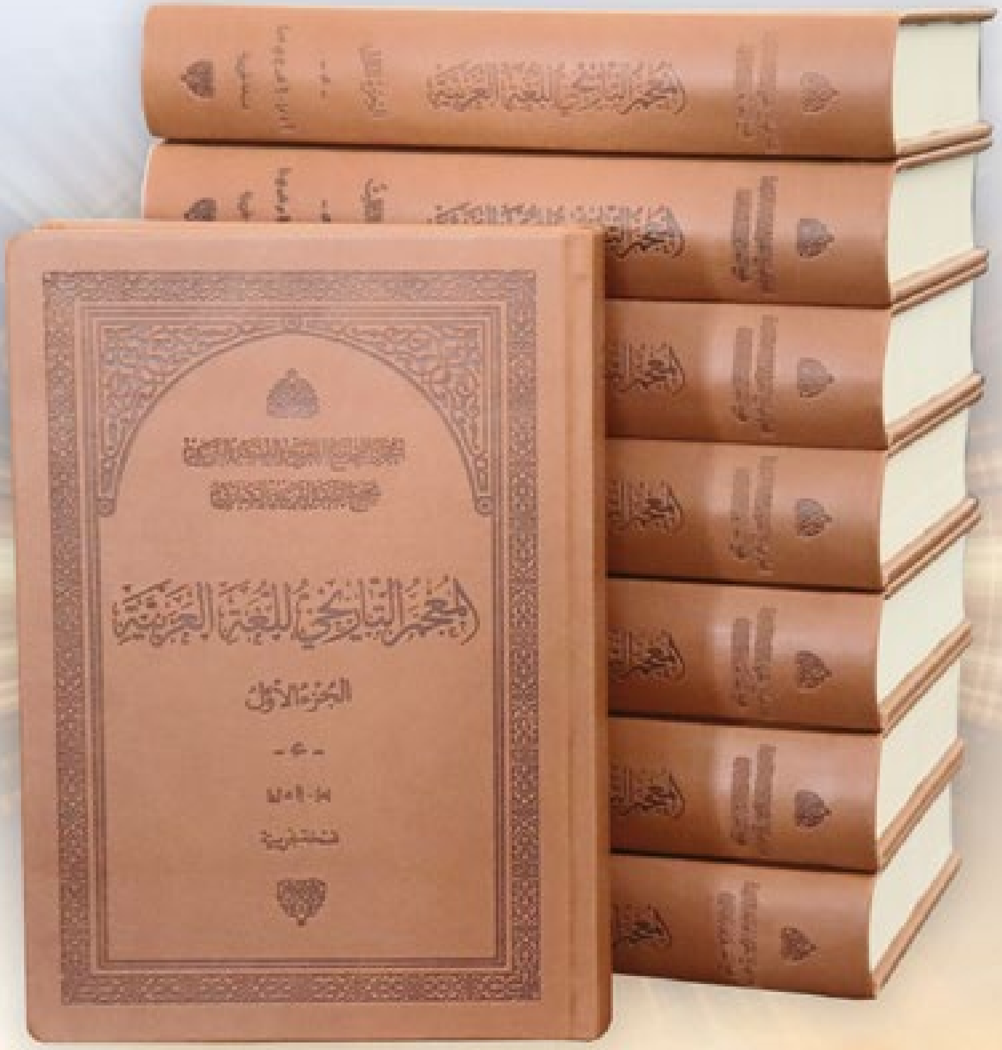

المُعجمُ التاريخيُّ

فتحٌ مبينٌ للغة العربيّة، وتاجُ فخارٍ على مفرق الشّارقة

هيئة الشارقة للكتاب
Sharjah Book Authority

معرض الشارقة الدولي للكتاب
SHARJAH INTERNATIONAL BOOK FAIR

معرض الشارقة الدولي للكتاب 2020

من 4 إلى 14 نوفمبر 2020

وهبت نفسي للغة العربية

صاحب السموّ الشيخ الدكتور
سلطان بن محمد القاسمي
عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة – الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

مجلة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السنة الثانية - العدد الرابع - نوفمبر ٢٠٢٠ م

رئيس التحرير

د. امحمد صافي المستغانمي

المشرف العام

د. مصطفى رابح بن عاشور

أعضاء التحرير

أ.د. بن عيسى باطاهر

د. فكري النجار

أ. عبد الستار الشيخ

منسق العلاقات العامة

أ. ماجد الهولي

التصميم والإخراج

محمد خيَّال

المراسلات

هاتف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 410 60 51 6 971+

ص.ب : الشارقة ، 1973

البريد الإلكتروني : info@alashj.ae

الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

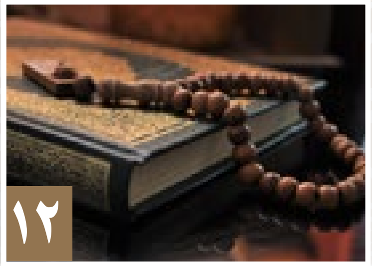

المحتويات

افتتاحية العدد	٦
الإيجاز البلاغي ومكانته في القرآن الكريم	١٢
علماءُ الشريعة الإسلامية في خدمة اللغة العربية	١٦
أحمد الضبيب في سطور	٢٢
الابتداءُ بالنكرة	٣٠
الكِتاب	٣٤
شَرَف المحاولة	٣٦
عقابُ من أخطأ في الإعراب	٤٤
ويل للشعر من رواية السوء	٤٨
العربية جذر انتماء ومنبع إشعاع	٥٤
مراتب الاستعارة في الخطاب العلمي بين القديم والحديث	٦٤
العبقري الخالد	٧٠

المحتويات

وفاء الأمومة في شعر عيسى جرابا	٧٤
الشعر في مواقع التواصل الاجتماعي	٨٠
آية العدالة	٨٨
اللغة العربية والإعلام الجديد	٩٤
واقع اللِّسان العربيّ في العصر الرَّقْميّ	١٠٠
اللُّغة الخالدة	١٠٦
عوائق صناعة المصطلح في اللغة العربية	١٠٨
عَيْنٌ على كتاب (الخصائص) لابن جنّي	١١٦
لغة التنزيل	١٢٠
نحو معلم جديد باللغة العربية	١٢٢
في جنة كاتب وأفياء كتاب	١٢٦
الهدهد ومنهج البحث عن الحقيقة	١٣٢

غلاف العدد

السنة الثانية - العدد الرابع - نوفمبر ٢٠٢٠ م

مجلة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني amal.a@alashj.ae

لزيارة موقع مجمع اللغة العربية بالشارقة امسح رمز الاستجابة السريع بكاميرا الهاتف

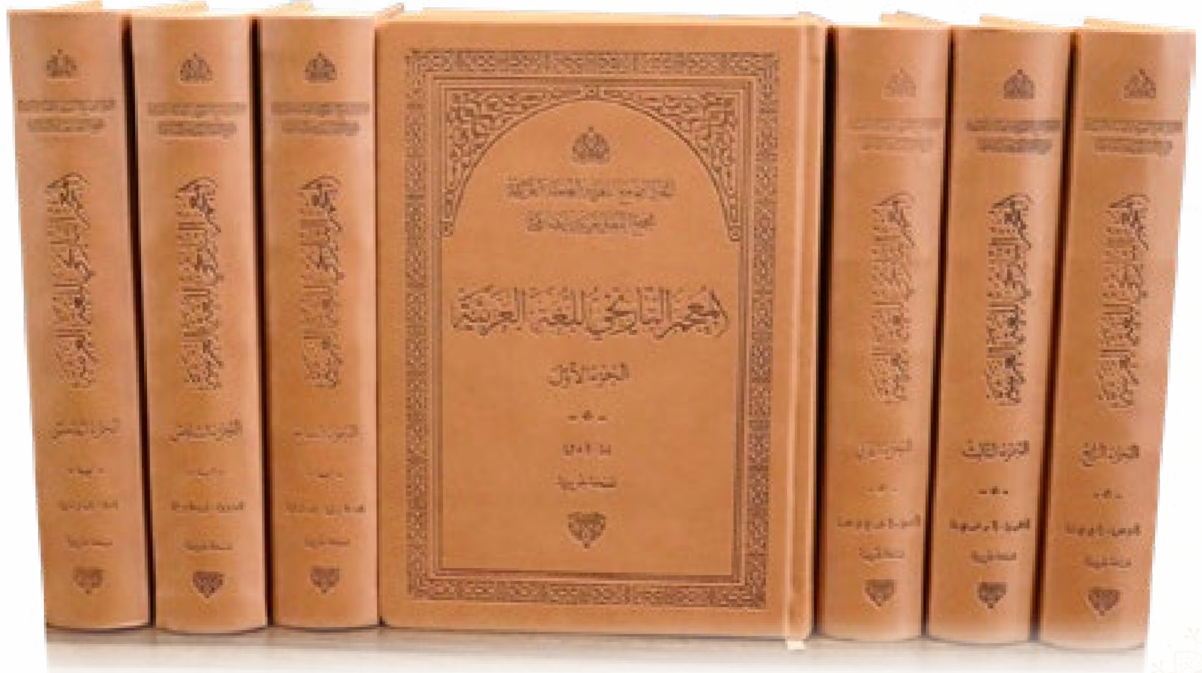

المُعجـمُ التاريـخيُّ

فتحٌ مبينٌ للغة العربيّة، وتاجُ فخارٍ على مفرق الشّارقة

د. امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدُك ربّي حمدَ الشاكرين، وأثني على جلالك كما أثنى عليك سيّد العارفين، حبيبك وصفيّك المحمود في الأوّلين والآخرين، وأصلّي عليه صلاة وأسلّم تسليما يليقان بمقامه الكريم، وبعد،

فقد قضى العربُ عقودًا من الزّمن، وأحقابا من السّنوات العجاف التي بخلت وتمنّعت واستنكفت عن إنجاب المعجم التاريخي للغتهم على الرّغم من وجود مؤشّرات الحمل ومسوّغات الولادة. رأى علماء العربيّة منذ الأعوام الأولى للقرن العشرين أنّ الإنجليز والفرنسيين والألمان شقّوا طريقهم إلى المعجم التاريخي للغاتهم المنحدرة من الأصول اللاتينيّة والآريّة وغيرها، ورأَوْا أنّهم تحزّبوا متناصرين، ودعا بعضُهم بعضا وغَدَوْا على إنجاز معاجم لغاتهم قادرين، وتنادَوْا عازمين أن يؤرّخوا للغاتهم، وحسنًا فعلوا، ونعم ما عملوا، فاهتزّت أريحيّةُ اللغويّين العرب وبعض أدباء الضّاد الذين كان يزخرُ بهم مجمع القاهرة الذي رأى النّور سنة ١٩٣٢م في عهد الملك فاروق رحمه الله تعالى، فراحوا في إصرار مُدوّنين هدف إنشاء المعجم التاريخي في كرّاسة الأهداف التي أُنشِئ مجمع القاهرة لتحقيقها، ونعم ما فعلوا ونِعِمّا صنيعُهم.

وجاء إليهم المستعرب فيشر من أقصى ألمانيا يسعى متدفّقًا بشعلةٍ من النّشاط والحافزيّة التي استقاها من التّجربة الألمانيّة، ورحّب به المجمع القاهريّ ذو النّحيزة العربيّة الكريمة وأحسن وفادَته، وهشَّ وبشَّ لتَحفُّزه، وسُرَّ أبناؤه وفتحوا له أبواب مكتباتهم، وقيّضوا له شبابا من أهل اللغة والعلم يتعاونون معه، وبدأ الفريق يعمل ويجتهد، وجمع فيشر جملةً لا بأس بها من المصادر وأمّات الكتب، وأنشأ طائفة من الجذاذات للجذور الأولى من حرف الهمزة، وسرعان ما تبدّد غمام البدايات الأولى للتحرير مع عواصف الحرب العالميّة الثانيّة وأعاصيرها، وانصرف كل واحد من أعضاء الفريق إلى شأنه، وحلّت بساحة المستعرب فيشر المنايا فغيّبته أسدافُها وطمرته رمالها في صحراء النسيان.

وبقي حُلْمُ المعجم التاريخي يراودُ العرب ويغازلُهم، والأيّام تمضي، وسيف الوقت يقطعُ ولا يرحم، وأنشأ العرب الجامعة العربيّة، وكان من ثمراتها أن أعلنوا عن مولود جديد اسمه اتّحاد المجامع اللغوية العلمية العربية عام ١٩٥٧م. وظلّ هذا المولود حبيس المَهْد رهينَ المكاتب وحِلسَ الرّفوف لا أحد يأبه بقراراته، ولا أُذُنَ تصغى إلى نداءاته.

وتوالت الأيّام والليالي تَتْرى حافلةً بالهُموم، مُتْرعةً بالأحزان، مُفعمةً بالأحداث الجسام التي رزح تحتها الكيان العربي، ولا يزال يئنُ من صعقاتها ونكباتها حينا بعد حين. وأفاق كثيرٌ من اللغويين واللسانيين في نهاية القرن المنصرم وبداية القرن الحادي والعشرين من سبات الغفلة، وغيابات جبّ الإهمال، وحرّكتهم عاطفةُ العروبة وهزّتهم أنفةُ حبّ اللسان العربيّ هزّا

سلطان القاسمي:

«المعجم التاريخي للغة العربية» جاء للنهوض بهذه اللغة وخدمتها

وأزّتهم أزّا. كيفَ لا يكون للغة العربيّة معجمٌ تاريخيٌّ يُؤرّخ لألفاظها؟ كيف لا يكون للعربيّة الفصيحة التي هي من أقدم اللغات – إن لم تكن أقدمَها على الإطلاق – معجمٌ يحفظ ذاكرتها، ويؤرّخ لأقدم النصوص التي وردت فيها ألفاظها، ويكون شاهدا على التّطور الذي عاشته هذه الألفاظ وتلك الكلمات، وشهيدا على ولادة المصطلحات العلميّة حين ازدهرت العلوم والفنون في التاريخ العربي الإسلامي؟

أوَيَعْجزُ الفكر العربيّ الثاقب أن يُنشئ قاموسا محيطا يحفظ الذاكرة العربيّة، ويؤرّخ لأيّام العرب وملاحمهم وقصائدهم ومجالسهم وأسواقهم؟ أبَلَغْنا حالةً من الضَّعف والانكسار والانهيار إلى درجة أنّنا لا نستطيع أن نقدّم للأجيال المعاصرة والقادمة ما يحفظ لهم تاريخ لغتهم ويُمجّدُ أيّامهم، ويخزّنُ أمثالهم؟

أين أساطينُ اللغة وجهابذةُ الألفاظ؟ أين حماةُ العرين وكماةُ لغة الضاد؟ أين القراطيسُ التي دوّنها اللغويّون القدامى وعلماء الإسلام وجعلوها أوعيةً حافظة للغة العربيّة الفصيحة الجميلة التي اختارها الباري العليم الحكيم حاملةً لكتابه العظيم؟

ويؤسفني ويكاد ينفطر فؤادي كمدا وأنا أخطُّ هذه الكلمات، وأدوّنُ هذه العبارات أنّ تلك الصرخات والآهات، وتلك المحاولات

وُئدت بعد الميلاد مباشرة بل إنّ ثمّة محاولات أجهضت قبل الميلاد.

والمرء يتساءل: مَن يُكنُّ هذا العداء المقيت للمُضريّة الحسناء؟ مَنْ يضمرُ للإياديّة الهُذليّة الغيداء هذا الشّنآن المرير؟ ماذا جنت في حقّ من يحمل لها العداوةَ والبغضاء؟

وأيّاً ما كانت أسباب العداوات والإحن؛ فإنّ العربيّة باقيةٌ بقاءَ الدّهر عاليةَ الجبين، شامخةَ الهامة، باسقةَ الأفنان تُطاول الجوزاء، وإنّ الكبيرَ المتعال مُدبّرَ الأكوان حافظٌ العربيّةَ إلى آباد الآبدين لأنّها قرينةُ الوحي المحفوظ إلى يوم الدّين.

والحمد لله، وبعد عناء ونَصَب، وعَياء وَوَصَب، وبعد مُقارعة أحداث الزّمان، ومصارعة عاديات اللّيالي، بلغت صرخاتُ العربيّة آذانَ رجلٍ هُمام، عربيٍّ شهم أبيّ، ألمعيّ غيور، ثَقِفٍ مستنير، فقال لها لبّيكِ وسَعْديك، أفديك بما أملك، ولن أدّخرَ وُسعا. إنّه وليُّ الثقافة ومولاها، وحامي عرين العربيّة وحِماها، وحاملُ لواء العلم، وراعي الفنون والمعارف، فارسُ التّاريخ، وحكيمُ السياسة، حاكمُ الشارقة المفدّى صاحب السّمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حفظه الله ورعاه، وجازاه خير ما يجزي حاكما عن أمّته، وكافأه خير ما يُكافئ قائدا عن رعيّته.

وليس في هذا الكلام شيءٌ من مبالغة أو شَطَطٍ، ولا أثارةٌ من شطحات الشعراء الذين يقولون ما لا يؤمنون به، وإنّما هي كلماتٌ يُمليها الواقع، ويُصدّقُها الحاضر المشهود. إنّ ما تقوم به الشارقة في ميادين العلوم والعرفان تنوءُ بحمْله العواصمُ العالميّة ذوات الجذور الحضاريّة التّاريخيّة العميقة فضلا عن مدنٍ حديثة وجهات أخرى. ونظرةٌ خاطفةٌ في استعراض المشهد الثقافي في شارقة العِرفان يمنحك أيّها القارئ الكريم فكرةً كافيةً شافيةً عن بعض ما تُقدّمه الشارقة للعرب وللإنسانيّة جمعاء في مضمار الثّقافة والمعرفة وميادين التّواصل مع الآخر في وُدٍّ ومحبّة واحترام وتبجيل.

عودٌ على بدء، فما معنى المعجم التّاريخي للغة العربيّة؟ وهل يستحقُّ فعلا وحقًّا هذا الاهتمام والتّعظيم؟ وهل ما سيحصدُهُ القارئون ويجنيه المُثقّفون من هذا المعجم يوازي الجهود المبذولة فيه والأموال الباهظة التي تُنفقُ عليه؟ وما دورُ الشارقة وما موقعها الإعرابي في هذا المشروع الجَلَل؟

أطرحُ هذا التساؤل، وأجتهد في الإجابة عليه تقريبًا للموضوع من القارئ العربيّ العام الذي ينشدُ معرفة حقائق الأشياء؛ لأنّي كثيرا ما استقبلت في مجمع الشارقة من بعض الزوّار والمثقّفين سؤالا مفادُه: ما الذي يُميّز المعجم التاريخي عن غيره من المعاجم، خِصّيصى وأنّ المكتبة العربيّة مُترعةٌ بالمعاجم اللغوية القديمة من مثل: العين والجَمهرة ومعجم المقاييس واللسان والقاموس والتّاج وغيرها كثير؟.

لهؤلاء جميعا، وشهادة للتاريخ نقول: إنّ المُعجمَ التاريخي هو حُلم الأمّة العربيّة الأكبر، ومشروعها الأعظم، وحامل ذاكرتها الجماعيّة، وإنجازه سيُحدث حركة عظيمة في ميدان المعجميّات، وسيعود بالعربيّة إلى أمجادها، ويبعث فيها الحياة من جديد، ويُحرّكها من همود، وإن كانت العربيّة لم تمت ولن تموت لارتباطها بوحي السماء.

إنَّ كل باحث متدبّر في الشأن اللغوي، يسهلُ عليه أن يتبيَّنَ عظمة اللغة العربيّة التي هي من أرقى اللّغات وأسماها، وأجلّها وأعلاها، وهي حاملة وحي السّماء، وحافلةٌ بأحاديث خير الأنام الذي آتاه ربّهُ جوامع الكلِم، والقرآنُ بها يُتلى، والأذانُ بها يُرْفَعُ، والصّلواتُ بها تُفتَتَحُ وتُختَتَم.

منذ فجر الإسلام، دُوّنت بها علوم، واستخدمتها شعوبٌ، واتّخذتها لغةَ العلوم والثّقافة والفنون والآداب. هي أثرى اللغات صيغا وأبنيةً، وأوسعها تُراثًا، وأروعها بيانا؛ فحقيقٌ بالعرب أينما كانوا أن يُعْنَوْا بدراستها والتأريخ لها والذَّوْد عن حياضها، ورفع رايتها خفّاقة، وتعليمها للأجيال المعاصرة. حقيقٌ بأبنائها المعاصرين أن يجتمعوا من أجلها، وأن ينظروا في قضاياها، وأن يَسْعوا جاهدين لتسهيل تعليمها للنّشء ليتحدَّثَ بها بفصاحةٍ وإفصاح وإبانةٍ وتبيين، وليكتبَ بها هُواتها وعاشقوها بجودةٍ وإبداع.

إن المعجم التاريخي للغة العربية هو ذاكرة الأمّة العربية، وديوانُ ألفاظها وسِجلُّ أشعارها وأخبارها، وحامل مخرجات ومنتجات أبنائها وبناتها، وهو ضرورة لغويّة وحضاريّة وتاريخية. ضرورة لغويّة لأنّه يؤرّخ لألفاظ العربيّة المستعملة منذ نشأتها الأولى إلى الوقت الحاضر، يُعرّفُ القارئ عن زمن ميلاد الكلمة: متى استعملها العرب، وفي أي بيئة، ومَنْ هو المستعمل الأوّل؟ وفي أيّ سياق جاء استعمالها؟ وهل ورد هذا اللفظ أو ذاك في لغات الأقدمين مثل عاد وطسم وثمود؟ وهل ثمّة وثائق أو حفريات أو نقوش كُتِبت بها شاهدة على قِدم هذه الكلمات، وكيفية استعمالها؟

وهو ضرورة حضاريّة لأنّ التأريخ للكلمة يرصدُ خطَّ سيرها ابتداء من نشأتها الأولى مُرورا بالعصور التي مرّت بها، والتطوّرات التي صاحبت استعمالها، ومرحلة نشأة المصطلحات، وغير ذلك من الألفاظ التي جادت بها القرائح، وكيّفها المستعملون مع مفرزات الواقع الذي يعيشونه إلى العصر الحديث. وتاريخ العصور الإسلامية خير سِجلّ للخط البياني للمصطلحات العلميّة التي ظهرت في شتّى العلوم والفنون، ورصدَها العلماء، وتناولتها الأقلام، وسرت بين الناس، ودُوّنت في المصادر والكتب العلمية، ومعاجم المصطلحات.

وهو ضرورة تاريخية؛ لأنّه يؤرّخ لأحداث الأمّة العربيّة في عصورها الغابرة، ويرصد حركة الدول التي نشأت تحت راية الإسلام، وفي ربوع العالم العربي الممتد من جزيرة العرب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن بلاد الأندلس وشمال إفريقية إلى أعماق صحراء إفريقيا جنوبا، ويؤرّخ للمحافل التي أقيمت للشعر، ويُسلّط الأضواء على منتديات العرب ومجامعها، وتجاراتها، وحروبها وغاراتها وأيّامها، والشعوب التي تحدّثت بها، والعلوم التي دُوّنت بها إلى أن نصل إلى عصر الصحافة والإعلام وقنوات التواصل الاجتماعي الحديثة.

بعد هذا الشّرح المبسّط المقتضب، لا إخالُك، قارئي الكريم، إلا قد اسْتَبَنْتَ الفرق بين المعاجم اللغوية العامّة التي تهدف إلى شرح الألفاظ وبيان دلالاتها مع الاقتضاب أو الإطناب في ذكر الشواهد، والمعجم التاريخي الذي يؤرّخ لجميع ألفاظ اللغة ويتتبّعُ مسيرها والتّطوّر الدلالي الذي حصل لكل لفظ وكل مصطلح.

إنّ الفرق واسع والبون شاسع، وحين الانتهاء من تصنيف هذا المعجم العملاق، وإنجازُهُ قريبٌ بإذن الله، فإنّك تجدُ نفسك أمام نصوص أدبيّة وعلميّة لم تقرأها من قبل، وأمام مقطوعات وفقرات من الكلام الحيّ لم تعهدها. وبدون رغبة مسبقة منك، ستجدك تُبصرُ الحضارة العربيّة التي أنشأها العربُ فصحاؤُهم وأعرابُهم وحكماؤهم وصعاليكُهم، وحضرُهم وبُداتُهم، وتلفي نفسك أمام محافلهم ومجالسهم، تسمع لهذا من روائع الأشعار، وتُصغي إلى ذاك وهو يشنّفُ آذان المستمعين بغرائب الأخبار، وتقرأ لكتّاب الدّواوين، وتُطالع رسائل الخلفاء والملوك، وتتجلّى بين يديك كثيرٌ من مظاهر الحضارة العربية والإسلاميّة التي عاشت حِقَبًا من الدّهر حاملةً راية العربيّة خفّاقةً عاليةً من أقصى أقاصي البلاد الإسلامية في آسيا وبلاد ما وراء النّهر إلى آخر نقطة مطلّة على المحيط الأطلسي غربا، ومن شمال الأندلس إلى أدغال إفريقية المسلمة.

قد لا أكون مبالغا إذا قرّرت في هذه الأسطر أنه لا يوجد

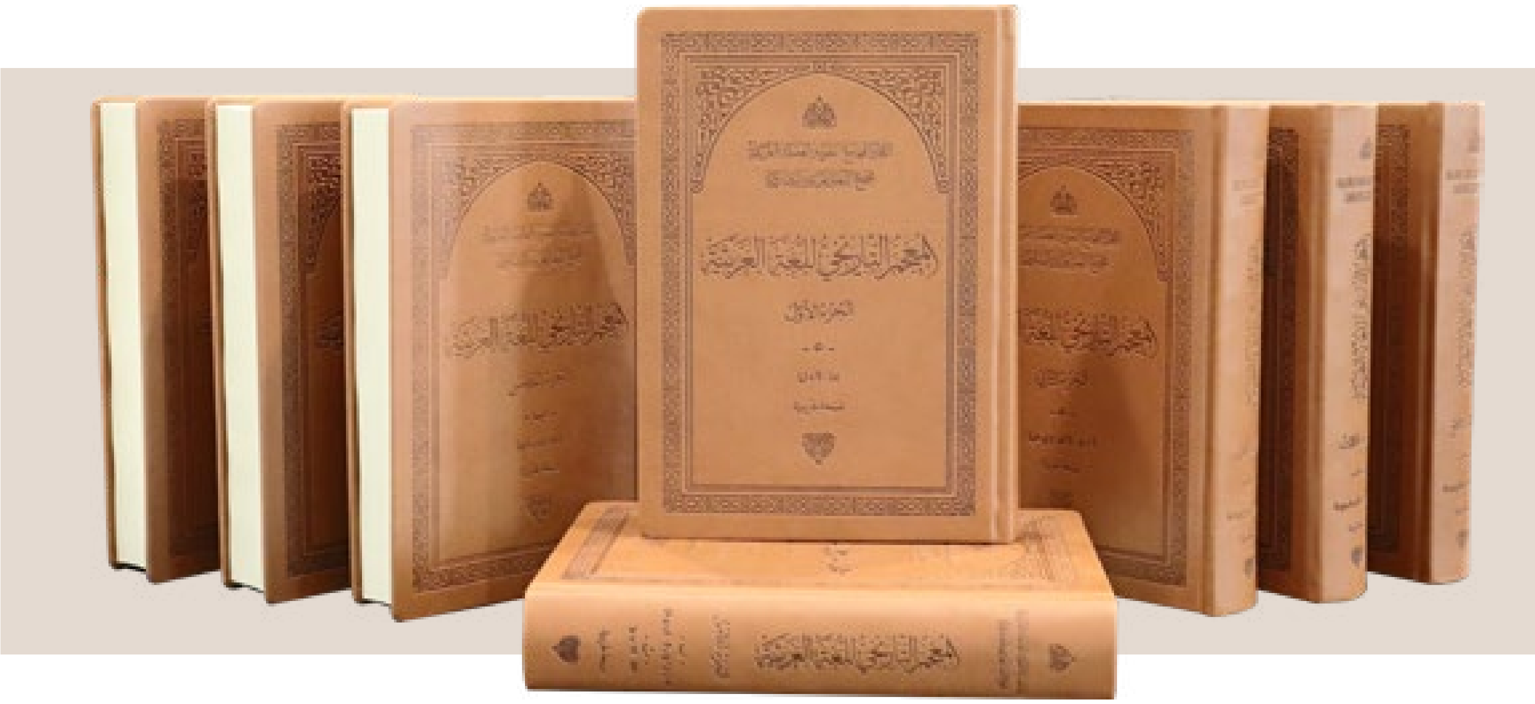

مشروعٌ استقطب اهتمام اللغويين، ولفتَ انتباهَ عشّاق لغة الضاد المتخصّصين كما لفتهم مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، والسؤال الذي يشترك في طرحه جميعُهم: لماذا هذا التأخّر في إنجازه إذا كان بهذه الأهمّيّة والمنزلة؟

مرّة أخرى أقول: ثمّة عوائق صمّاء وعقباتٌ كأداء حالت دون الإسراع في إنجاز هذا المشروع العملاق، يمكن إيجازها في ثلاثة عناصر هي: (١) ضخامة التراث الذي كُتِبَ باللغة العربية شعرا ونثرا وعلوما وفنونا وفلسفة وتاريخا إذ إنّ المعجم المنشود يُؤرّخ لأكثر من سبعة عشر قرنا من الزّمن. (٢) التّكلفة الماديّة الباهظة. (٣) عُسْر التّأليف بين قلوب العاملين في المجامع اللغوية من مشرق البلاد ومغربها، ولولا خوفُ المبالغة وخشية الوقوع في الزّلل في الاستشهاد لتمثّلتُ بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولا بأس أن أوضح في هذا السياق لعُشّاق العربيّة وأحبّاء لغة الضّاد بأنّ أهمّية المشروع تأتي من كونه يُؤرّخ لكل كلمة من كلمات اللغة العربيّة ابتداء من عصر النّقوش القديمة التي خلّدها التاريخ على جدران الكهوف والجبال والمغارات في مواضع مختلفة من جزيرة العرب وما حولها، مرورا بالعصر الجاهلي الذي أصبح للشعر فيه محافل وأسواق، وكانت القبيلة تُعنى بشاعرها وتُكنّ له كل توقير وتبجيل لأنّه هو الناطق الرّسمي باسمها، والمدافع عنها في المحافل، والمنافح عن شرفها، والذّائدُ عن حماها، والواصف لأمجادها عند تلاقي الأقران.

وحين يتتبّع القارئ العربي هذا الشأن يجد أنّ الشعرَ العربيّ في الجاهلية ممتدٌّ عبر الصحراء الواسعة ابتداء من تخوم تركيا في بلاد الشّام إلى جنوب بلاد اليمن، والباحث يتساءل كيف يستطيع البحث العلميّ والتّحرير المعجمي أن يستقصي كل كلام العرب الذي نطقوا به في جاهليتهم والحالُ أنّ كلّ قبيلة كانت تغصّ بالشعراء المفلقين والخطباء المصاقع؟

ولمّا جاء عصر التدوين، وكثرت العلوم والفنون اللّغوية والأدبيّة والشرعيّة التي تأثّرت بلغة الوحي وروح الإسلام، غصّت المكتبات بالكتب، وانتشرت المؤلفات في العلوم الإسلامية المختلفة كالتفسير وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه وأصوله والتاريخ الإسلامي وأنواع العلوم الفلسفيّة والعلمية البحتة، والمكتبةُ العربيةُ اليوم في مشارق الأرض ومغاربها حافلةٌ بملايين العناوين في شتى العلوم والفنون.

أضف إلى ذلك ما جادت به قرائح العلماء والأدباء في

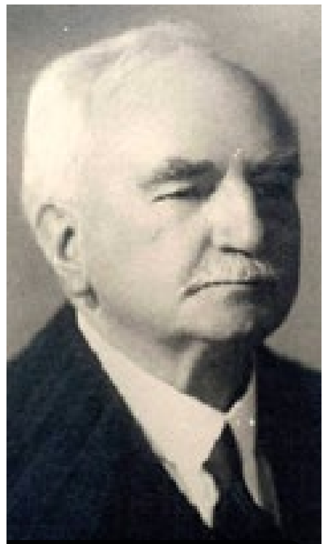
المستعرب فيشر أوجست

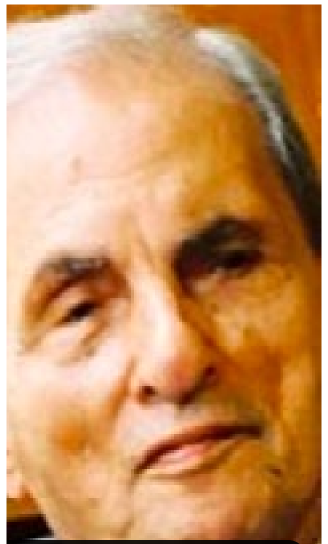
د. شوقي ضيف

د. طه حسين

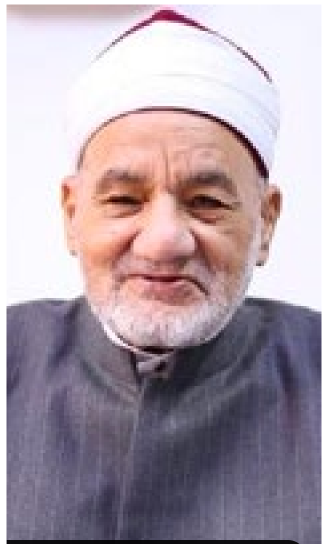
د. حسن الشافعي

العصور المتأخّرة إلى يومنا هذا في مختلف الأجناس الأدبية والفروع المعرفية الحديثة التي كتبها أصحابها باللغة العربية والصحافة والإعلام وغيرها لأننا – وهذا هو الفرق بيننا وبين غيرنا – نُؤرّخ لجميع الأحقاب والفترات الزمنية من الجاهلية إلى العصر الحديث، أي لمدة تزيد عن سبعة عشر قرنا من حياة اللغة، ونرصدُ التّطور اللغوي للألفاظ في الأعصر التي نؤرّخ للفظ فيها.

.... ولسائل أن يسأل: هل من السهولة التأريخ لجميع ألفاظ العربية في الأزمنة الغابرة والأزمنة الحاضرة؟. نقول: إنّه لعَملٌ ضخم تخرّ له الجبال هدًّا، وترزح تحت وطأته القوّة البشرية المتلفّعة بدثار القصور والعجز، ولكن ما لا يُدركُ كلّه لا يُترَكُ جُلُّه، وهذا ما شحذ الهمم، وأوقد العزائم للمُضيّ قُدُما لإنجاز هذا المشروع، وقد قرّر اتّحاد المجامع أن يبدأ العمل مهما كلّف من ثمن ومن جهود ومن وقت، وحسبنا أن نقول للتاريخ وللأجيال القادمة أننا بدأنا فعليا العمل والتحرير المعجمي على بصيرة باتّباع أسلوب علميّ مُحكم ودقيق، وبخطوات ثابتة نحو الهدف المنشود، ونبذنا التّشرذم والانقسام.

أقول هذا الكلام قطعا للطريق أمام أهل التّثبيط وزارعي المعوّقات، وحين الانتهاء من المشروع بإذن الله وتوفيقه – وها نحن أولاء نشهدُ اليوم إصدار الأجزاء الثمانية الأولى منه – سيكون المعجم التاريخي الذي يشارك فيه جمهور غفير من اللغويين الذين يعملون تحت مظلات المجامع اللغوية والعلمية في الدول العربية أكبرَ معجم وأضخم قاموس يُنشئُهُ العرب للغتهم، لا يُؤرخ للألفاظ العربيّة فقط، وإنّما يؤرخ للذاكرة العربيّة الجماعية، وأحداث تاريخها المجيد الحافل بكل مشرّف ومفيد، وعند الصّبح يحمدُ القومُ السُّرى.

ومن الإنصاف والاعتراف بالفضل لأهله أن نشير للتاريخ أوّلا وللمعاصرين بأنّ الدّاعم الرّئيس والرّاعي الأوّل والرّئيس الأعلى لهذا المشروع الفذّ هو العالم المؤرّخ المثقّفُ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة والرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة – حفظه الله تعالى–، وهو يشرف على خطط التنفيذ إشرافا مباشرا، ويتابع أعمال اللجان حاثّا ومُوجّها وناصحا ومُذلّلا للعوائق وممهدا للسّبل. وفي هذا الإطار تقوم اللجنة التنفيذية التي يحتضنها مجمع اللغة العربية بالشارقة بجهود طيّبة وخطوات حثيثة لتسريع الإنجاز بالتنسيق مع اللجنة العلمية في اتحاد المجامع، والله الموفّقُ والهادي إلى سواء الصراط ومهيع الرّشاد.

الإيجاز البلاغي ومكانته في القرآن الكريم

د. محمد الأمين السملالي
خبير لغوي بدائرة الثقافة بالشارقة

أهداف البحث :

- **التعريف بهذا الأسلوب البلاغي الذي يُعدُّ من أهم مباحث البلاغة العربية، مع بيان منزلته في القرآن الكريم.**
- **الإعلاء من شأن البلاغة العربية، وتقريب مباحثها للقراء والجمهور.**
- **المساهمة في خدمة اللغة ونشر محاسنها.**

تعريف الإيجاز

في مدلولها اللغوي: تحيل مادة (و ج ز) في مختلف استخداماتها إلى الخفة والسرعة. والفعل المجرد منها "وجُزَ" ككرم، لازمٌ، يقال: وجُز منطقك وجازة[١]، فهو وجيز، أي قصير سريع الوصول إلى الفهم[٢]، وأما "وجَزَ" بالفتح – كوعد – فبعضهم يجعله من التعْدية بالحركة؛ فيقال: "وجزت الكلام – من باب "وعدتُ" – بمعنى: "أوجزته"[٣]، ومصدره: الوجوز والوجز[٤]. ولكن صاحب "المقاييس" رأى أن الأوزان الثلاثة "وجُز ووجَز وأوجز" تأتي لازمة ومتعدية[٥].

(١) المحيط في اللغة للصاحب بن عباد: ١٥٣/٧.
(٢) المصباح المنير للفيومي، ص: ٣٣٤.
(٣) نفسه بتصرف.
(٤) المحيط في اللغة: ١٥٣/٧.

أما في الجانب الاصطلاحي: فقد كثرت تعريفات البلاغيين لمصطلح "الإيجاز"، وكلها تحوم حول معنى متقارب وإن اختلفت بعض العبارات، ولعل أقدم من عرفه هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٤) الذي رأى أنه: "العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف"[٦]، وهذا التعريف نفسه اعتمده الرازي (ت: ٦٠٦) وزاد عليه: "من غير إخلال"[٧]. وأما شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧٤) فيرى أن الإيجاز هو: "أن يُدلّ بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى"[٨].

ويأتي السكَّاكي (ت: ٦٨٦) في (مفتاح العلوم) بطريقة أخرى في التعريف؛ حيث رأى أن: "الإيجاز" وصفٌ نِسبيٌّ في مقابل "الإطناب"؛ فلا بد من قياسه إلى شيء متوسط ليكون التعريف بالمقارنة مع ذلك المتوسط، فاصطلح على تسمية المتوسط بين الإيجاز والإطناب: "متعارَف الأوساط"[٩]، وعليه فقد عرف الإيجاز بأنه: "أداءُ المقصود من الكلام بأقلَّ من عبارات متعارَف الأوساط"، وعلى هذا التعريف اعتمد القزويني (ت: ٧٣٩) في كتابه (الإيضاح)[١٠]، الذي سيصبح دستور البلاغة العربية في العصور المتأخرة.

بقي تعريفان لا بد من إيرادهما لإكمال الصورة: أحدهما تعريف ابن الأثير (ت: ٦٣٧) في (المثل السائر)[١١] وهو: "الإيجاز: دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه".

والتعريف الثاني لابن أبي الإصبع المصري (ت: ٦٥٤): "اختصارُ بعض ألفاظ المعاني ليأتي الكلام وجيزاً، من غيرِ حذفٍ لبعض الاسم، ولا عدولٍ عن لفظ المعنى الذي وضع له"[١٢].

(٥) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٢١/٢.
(٦) أورده ابن رشيق في العمدة: ١٥٠/١.
(٧) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، ص: ١٧٦.
(٨) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ص: ٤٦٣.
(٩) مفتاح العلوم، ص: ١٧٧.
(١٠) الإيضاح في علوم البلاغة، ١٧١/١.
(١١) المثل السائر: ٢٧٥/٢.

ونكتفي بهذا القدر من التعريفات لنعلق عليها بإيجاز، فرغم أنها تبدو متقاربة تحوم حول معنى واحد، نلاحظ – عند التدقيق – أنها تتمايز إلى ثلاث وجهات، على النحو التالي:

أ) وجهة ترى أن الحذف لا يدخل في الإيجاز، وهذا ما يتضح من تعريف ابن أبي الأصبع القريب العهد.

ب) وجهة ترى أن الإيجاز هو كل كلام لا زيادة فيه على المعنى، سواء أكان اللفظ أقل أم مساوياً، وهذا ما يتضح من تعريف ابن الأثير، وعليه فهو لا يعترف بالمرتبة الوسطى بين "الإيجاز" و"الإطناب"، والتي يسميها البلاغيون بـ "المساواة"[١٣].

ج) وجهة ترى ضرورة الاقتصار على أقل ما يمكن أن يؤدي المقصود، سواء بالحذف أم باختيار التعبيرات ذات الدلالات الكثيرة، وهذه الوجهة هي التي نلمسها في بقية التعاريف وفي مقدمتها تعريف الرماني، وهو الذي يبدو أنه تغلب على الساحة البلاغية، وهذا ما يجعلنا نعتمده فنقول: إن الإيجاز هو "العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف".

واعتماداً على ذلك نرى أن الإيجاز يتركب من جانبين، لفظي ومعنوي:

١–أما الجانب المعنوي فهو: الوفاء بالمعنى كاملاً بدقائقه، وتوصيل ذلك إلى "المستقبِل" على الوجه الذي يجعله يتساوى مع "الباثّ" في العلم به.

٢–وأما الجانب اللفظي فهو: الاقتصاد في اللفظ، بما يعني البراعة في استخدام الكلمات القليلة وإدارتها في هيئة خاصة تفي بالغرض، فعلى الأديب أن يتروى في اختيار الكلمة التي تصيب شاكلة المعنى، الكلمة التي تصوره وتشع بأحواله وتوحي بأجوائه، ثم يتروى في

(١٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: ٤٥٩.
(١٣) . الإيضاح في علوم البلاغة، ١٨٠/١.

صياغة الجملة ليبث في هيئاتها ويسكب في أعطافها أكبر قدر من المعنى.

منزلة الإيجاز في اللغة العربية والقرآن الكريم

لا تفتأُ كتبُ البلاغة العربية تنوّه بقيمة أسلوب الإيجاز في ميدان البلاغة، وتعدُّه من أهم خصائص اللغة العربية، لأن "العرب إلى الإيجاز أمْيَل وعن الإكثار أبْعد"[١]، و"العرب تختصر الكلام ليخفّفوه، لعلم المستمع بتمامه، فكأنه في تمام القول"[٢]. ولهذا أُثر عنهم في الإيجاز كلماتٌ ومقولاتٌ كثيرة، منها قول جعفر بن يحيى لكُتّابه: "إن قدرتم أن تجعلوا كُتبكم توقيعاتٍ فافعلوا"[٣]. وقد فعلوا مثل ذلك في الشعر؛ فقد "قيل لبعضهم: مالَك لا تزيد على أربعة واثنين؟ قال: هي بالقلوب أوقَعُ، وإلى الحفظ أسرعُ، وبالألسن أعلَقُ، وللمعاني أجمَعُ، وصاحبُها أبلغ وأوجز"[٤].

ويقول ابن الأثير عن أسلوب الإيجاز: "وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة؛ من سبق إلى غايتها وما صلّى، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المُعَلّى، وذلك لعلو مكانه، وتعذُّر إمكانه، والنظرُ فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ (...)، ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة؛ فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، ولهذا سمَّى النبي عليه السلام الفاتحةَ "أمَّ الكتاب"، وإذا نظرنا إلى مجموعها وجدناه يسيراً ليست من الكثرة إلى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرهما من السور الطوال، فعلمنا حينئذ أن ذلك لأمر يرجع إلى معانيها"[٥].

إن السر في هذه القيمة التي يحظى بها أسلوب "الإيجاز"، هو أنه يعتمد على كِفّتين قلّما تعادلتا، تانِكَ الكِفَّتان هما: القصْد في اللفظ، والوفاء بالمعنى، فكل من حاول معادلتهما فهو كمن يحاول الجمع بين ضَرَّتين لا يكاد يعدل بينهما من دون ميل إلى إحداهما.

فالذي يقتصد في ألفاظه وعباراته، لا محيصَ له من الحَيْف على المعنى، فهو بين خيارين: إما أن يعبر عن مراده إجمالاً لا تفصيلاً، فبذلك لا يوفي المعنى حقه ولا يبلغ ما يريد، وإما أن يفصّل بعض تفصيلٍ هو فيه مضطرٌّ إلى أن يحذف كثيراً من الأدوات التي تجلي المعنى وتقرِّره، وبذلك يخرج كلامه كثوب يقصُر عن صاحبه أو كطير مقصوص جناحاه.

وأما الذي يرجّح جانب المعنى، لا يعبأ بما بذل فيه من الألفاظ، فلا سبيل له إلا أن يلجأ إلى حشود الكلام يرصّها صفوفاً ويسوقها أفواجاً، فلا يلبث القارئ أو السامع إلا يسيراً حتى يسأم من التطويل ويعرض عن استقبال المزيد.

وبين هذين الطرفين يدور البلغاء والفصحاء؛ فلا ينفكُّ أحدهم يميل إلى هذا الجانب أو ذاك، ولئن استطاع أحدهم أن يقارب بين الطرفين في جملة أو اثنتين، فلن يطول به الكلام حتى يعود إلى طبيعة الإنسان، وهي العجز والنقصان.

ومن هنا ينطلق الإعجاز القرآني؛ فبأسلوبه الخارج عن طَوْق البشر يستطيع القرآن أن يعدل كِفتي الميزان، ويُقيم الوزن بالقِسْط ولا يُخسِر الميزان، فيقتصد اللفظ إلى أبعد مدى، وبقدر اقتصاده في اللفظ يكون اتساعُه في المعنى. يقول الشيخ عبد الله دراز: "ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعُدَّ ما أحصيته من الكلمات عَدّاً، ثم أحْصِ عِدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن (الدَّفَّتَيْن)، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك، ثم انظر كم كلمةً تستطيع أن تبدلها أو تسقطها هناك! فكتاب الله كما يقول ابن عطية: "لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب من أجل لفظة أحسن منها لم توجد"، بل هو كما وصفه الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]"[٦].

(١٤) الخصائص لابن جني، ١/٣٠.

(١٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة، ١/١١١.

(١٦) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري: ١٧٣.

(١٧) نفسه، ص: ١٧٤.

(١٨) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢/٢٦٥.

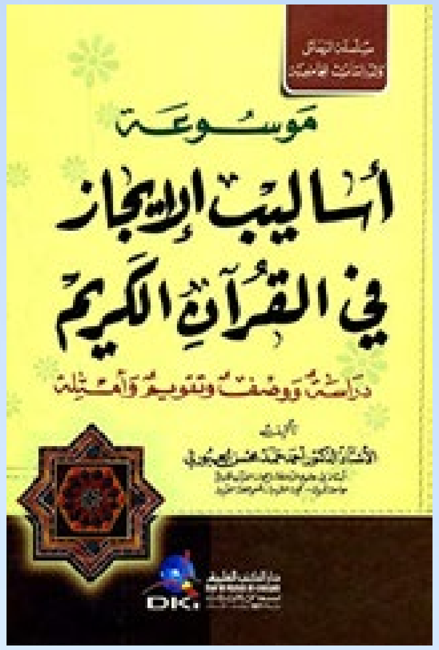

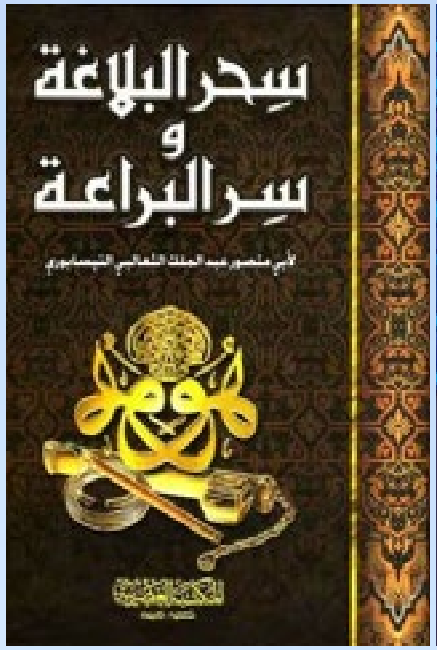

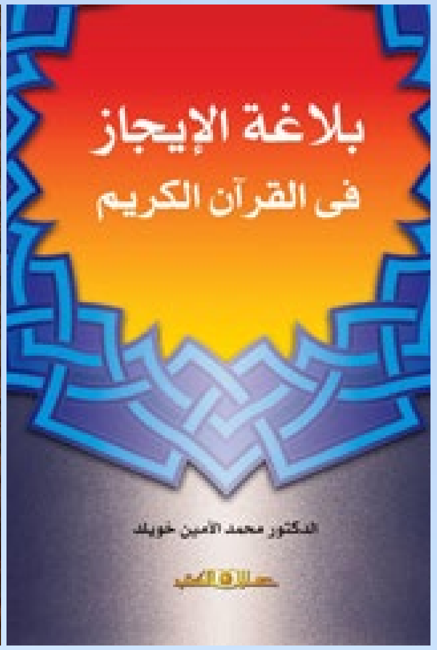

ومما يشدُّ الانتباه في الإيجاز القرآني، أنه يأتي في بعض الأحيان على طريقتين؛ فهو تارة إيجاز قصير مختصر جداً، وتارة إيجازٌ مطوَّل ؛ أي بالنسبة إلى المختصر لا بالنسبة لمطلَق الكلام ،وللتوضيح نمثِّل بقصة يوسف التي وردت بالطريقتين:

فقد قصَّها أولاً بتفصيل، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] إلى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف: ١٠٠].

ثم قصها بإيجاز مختصر في قوله: ﴿.. وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ ..﴾[يوسف١٠٠].

فذكر القصة أولاً في تسعين آية وأربع آيات، ثم ذكرها ثانيةً في أقل من آية واحدة، ولم يكن موجِزاً في المرة الثانية فحسب، بل في ذكرها الأول كانت موجزة كأبلغ ما يكون الإيجاز.

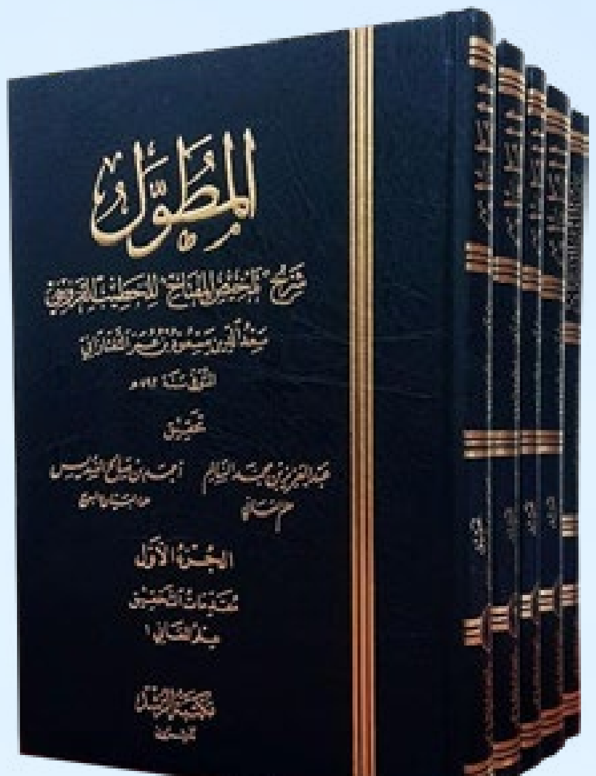

(١٩) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، عبد الله دراز، ص: ١٠٦-١٠٧.

علماءُ الشريعة الإسلامية في خدمة اللغة العربية

الدكتور خالد حسين الخالد
أستاذ الفقه الإسلامي وأصوله بكلية المدينة الجامعية بعجمان

تَضَلُّعُ علماءِ الشريعة من علوم العربية:

قلّما تجد عالماً مِن علماء الشريعة الإسلامية، إلا وهو متمكّن من اللغة العربية تحدثاً وكتابةً، وإعراباً وبياناً، وبخاصة إذا ما كان مفسّراً أو فقيهاً أو أصولياً، وذلك لأن نصوص الشريعة الإسلامية المقدسة جاءت باللغة العربية فحسب، وعلى سَنَن كلام العرب في الإعراب والبلاغة، بل هي في القمة منهما.

ولا يحق لأحد أن يتصدى لتفسير كتاب الله تعالى أو شرح حديث رسوله محمد ﷺ، وهو قليل البضاعة في علوم اللغة العربية، ولا سيما النحو والصرف والمعاني والبيان.

إذ كيف يسبح في اللُّجج من لا يحسن السباحة!

وقد عدّ الأصوليون فيما عدّدوا من شروط الاجتهاد أن يكون الفقيه عالماً باللغة العربية، نحواً وصرفاً وبلاغة، وإن لم يبلغ في ذلك مبلغ أئمتها.

بل إنَّ كثيراً من علماء الشريعة خدموا اللغة العربية في جوانب عديدة، وكان بعضهم معدوداً في زمرة علماء اللغة العربية، كالزمخشري المفسّر الشهير صاحب الكشاف وأساس البلاغة، والفيروزآبادي صاحب القاموس وهو فقيه شافعي، والراغب الأصفهاني صاحب مفردات ألفاظ القرآن، وابن الحاجب الأصولي الكبير والفقيه المالكي، وغيرهم.

وأكثر من ذلك، فإنّ ثلث علم أصول الفقه تقريباً هو مباحث لغوية، ويمكن للمطلع المتصفح لكثير من كتب الأصول أن يلحظ ذلك بيسر وسهولة حين ينظر في فهارسها.

شذرات من جهود علماء الفقه وأصوله في خدمة اللغة العربية:

هذا، وسأعرض شواهد وأمثلة تجلي ما ذكرت وتقرره، في واحد من ميادين علوم الشريعة ويتمثل في ماقدمه أئمة الفقه وأصوله لخدمة اللغة العربية المكرّمة، وهم في الحقيقة يخدمون دينهم وشريعتهم قبل كل شيء.

الإمام الشافعي أحد الكبار الذين يُحتجُّ بعربيتهم:

ولنبدأ بالإمام الشافعي القُرَشيّ المُطّلبيّ، إمام المذهب، وواضع علم الأصول في كتابه الشهير (الرسالة)، إذ يبين في مواضع عدة من رسالته العظيمة أهمية تعلّم لسان العرب لمن يودّ فَهْم كتاب الله وسنة رسوله، بل يوجب على الفقيه أن يتقن العربية أيَّما إتقان.

والشافعي نفسه ﷺ كان نموذجاً للأصولي الفقيه في التمكّن من العربية، إذ كانت له رحلة طويلة إلى البادية، وهو العربي الأصيل، وعلى وجه الخصوص إلى قبيلة هذيل، التي كانت من أفصح قبائل العرب، ولم تخالط لغتَها العجمةُ آنذاك، فحفظ أشعارها ونثرها، حتى صار حجة في اللغة، وحياته كانت بعد زمن الاحتجاج، حيث ولد عام (١٥٠ هـ) ومات سنة (٢٠٤هـ).

وإليك -أيها القارئ الكريم- بعض عباراته في ذلك:

قال ﷺ: "وإنما بدأتُ بما وصفتُ من أنّ القرآن نزل بلسان العرب، دون غيره؛ لأنه لا يَعلَمُ مِن إيضاح جُمَلِ علم الكتابِ أحدٌ جهلَ سَعَة لسان العرب، وكثرةَ وجوهه، وجِماعَ معانيه وتفرُّقها. ومن عَلِمه انتفت عنه الشُّبَه التي دخلتْ على من جهل لسانها"[1].

وقال: "على كلِّ مسلم أنْ يتعلّم من لسان العرب ما بلغه جُهدُه، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذِّكر فيما افتُرض عليه من التكبير، وأُمِرَ به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"[2].

ثم قال: "ولا يكون لأحد أن يقيس، حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السُّنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس،

(١) الرسالة، ص٥٠، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، بتحقيق العلامة أحمد محمد شاكر.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٨.

واختلافهم، ولسان العرب، ... وعليه في ذلك بلوغ غاية جُهده، والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال ما يقولُ، وتَرَكَ ما يَتْرُك"[٣].

واقرأ ما كتبه أبو الحسين البصري المعتزلي في مقدمة كتابه (المعتمد في أصول الفقه)، وهو يبيّن مشتملات علم الأصول ويسرد مباحثه:

"اعلم أنه لما كانت أصول الفقه هي طرق الفقه، وكيفية الاستدلال بها، وما يتبع كيفية الاستدلال بها، وكان الأمر والنهي والعموم من طرق الفقه، وكان الفصل بين الحقيقة والمجاز تفتقر إليه معرفتنا بأنّ الأمر والنهي والعموم ما الذي يفيد على الحقيقة وعلى المجاز؛ وجب تقديم أقسام الكلام، وذكر الحقيقة منه والمجاز، وأحكامهما، وما يفصل به بينهما على الأوامر والنواهي، ليصح أن نتكلم أنّ الأمر إذا استعمل في الوجوب كان حقيقة. ثم نقدم الأوامر والنواهي على باقي الخطاب؛ لأنه ينبغي أن يعرف فائدة الخطاب في نفسه..."[٤].

الإمامان الجُويني والزَّرْكَشي مَعْلَمتان بارزتان في دَوْحَة العربية السامقة:

وتأمّل ما قاله إمام الحرمين الجويني ﷺ: "اعلم أنّ معظم الكلام في الأصول يتعلق بالألفاظ والمعاني. أما المعاني، فستأتي في كتاب القياس، إن شاء الله تعالى. وأما الألفاظ، فلا بد من الاعتناء بها؛ فإنّ الشريعة عربية، ولن يستكمل المرء خلال الاستقلال بالنظر في الشرع، ما لم يكن ريّاناً[٥] من النحو واللغة، ولكن لما كان هذا النوع فنّاً مجموعاً يُنتحى ويُقصد، لم يُكثِر منه الأصوليون، مع مسيس الحاجة إليه، وأحالوا مظانَّ الحاجة على ذلك الفن، واعتنوا في فنِّهم بما أغفله أئمة العربية، واشتد اعتناؤهم بذكر ما اجتمع فيه إغفال أئمة

اللسان وظهور مقصد الشرع، وهذا كالكلام على الأوامر والنواهي والعموم والخصوص وقضايا الاستثناء وما يتصل بهذه الأبواب، ولا يذكرون ما ينصّه أهل اللسان، إلا على قدر الحاجة الماسة التي لا عدول عنها"[٦].

وانظر فيما قاله الإمام الزَّرْكَشي في "بحره المحيط" وهو يردُّ على من يرى أن علم الأصول إنما هو نُبَذ جُمعت من علوم متفرقة، كعلم الكلام، وعلوم اللغة، وعلم الفقه. قال ﷺ: " فالجواب منعُ ذلك، فإن الأصوليين دققوا النظر في فَهْم أشياء من كلام العرب لم تصل إليها النحاة ولا اللغويون، فإن كلام العرب متسع، والنظر فيه متشعب، فكتب اللغة تضبط الألفاظ ومعانيها الظاهرة دون المعاني الدقيقة التي تحتاج إلى نظر الأصولي باستقراء زائد على استقراء اللغوي. مثاله: دلالة صيغة "افعل" على الوجوب، و"لا تفعل" على التحريم، وكون "كل" وأخواتها للعموم، ونحوه مما نص هذا السؤال على كونه من اللغة، لو فتشت في كتب النحاة لم تجد فيها شيئاً من ذلك غالباً. وكذلك في الاستثناء من أن الإخراج قبل الحكم أو بعده، وغير ذلك من الدقائق التي تعرض لها الأصوليون وأخذوها من كلام العرب باستقراء خاص، وأدلة خاصة لا تقتضيها صناعة النحو"[٧].

العز بن عبد السلام من أعلام الفقهاء الذين بحثوا في (المجاز) وأتقنوا الكتابة فيه:

وهل أخبرُك، أيها القارئ الكريم عن كتاب (مجاز القرآن)[٨] للإمام العظيم سلطان العلماء العز بن عبد السلام، الفقيه الشافعي المجتهد، صاحب (قواعد الأحكام في إصلاح الأنام)، حيث استخرج خمسة وأربعين

نوعاً رئيساً للمجاز في كتاب الله تعالى، وفصَّلَ الكلام في النوع الرابع والأربعين، وهو مجاز التشبيه، فجعله في مئة وتسعة أنواع، وأكثَرَ من إيراد الأمثلة على كل نوع، حتى يكاد يخيّل للقارئ أن أكثر كلام القرآن مجاز، وإليك بعض المقتطفات القصيرة:

قال ﷺ بعد أن ذكر ثمانية أنواع للحذف: "فائدة: ليس حذف المُضاف من المجاز؛ لأن المجاز استعمال في غير ما وضع له أولاً، والكلمة المحذوفة ليست كذلك، وإنما التجوّز في أن يُنسب إلى المضاف إليه ما كان منسوباً إلى المضاف، كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، فنسبة السؤال إلى القرية والعِيرِ هو التجوّز"[٩].

وقال: "المجاز فرع الحقيقة؛ لأن الحقيقة استعمال اللفظ فيما وُضِع دالاً عليه أولاً، والمجاز استعمال لفظ الحقيقة فيما وُضع دالاً عليه ثانياً لنسبة وعلاقة بين مدلولَي الحقيقة والمجاز، فلا يصح التجوّز إلا بنسبة بين مدلولَي الحقيقة والمجاز، وتلك النسبة متنوعة على ما سنذكره، فإذا قويَ التعلق بين محلَّي الحقيقة والمجاز فهو المجاز الظاهر الواضح، وإذا ضَعُف التعلق بينهما إلى حدّ لم تستعمل العرب مثله ولا نظيره في المجاز فهو مجاز التعقيد، فلا يُحمل عليه شيء من الكتاب والسنة، ولا ينطق به فصيح، وقد تقع علاقة بين الضعيفة والقوية؛ فمن العلماء من يتجوَّز بها لقوتها بالنسبة إلى العلاقة الضعيفة، ومنهم من لا يتجوّز بها لانحطاطها عن العلاقة القوية"[١٠].

وقال مقدّماً للفصل الرابع والأربعين في مجاز التشبيه: "العرب إذا شبَّهوا جِرماً بجِرم، أو معنًى بمعنًى، أو معنًى بجِرم، فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً حقيقياً،

(٣) المصدر نفسه، ص٥١٠- ٥١١.

(٤) المعتمد في أصول الفقه، ج١ ص٨، ط١ دار الكتب العلمية- بيروت.

(٥) لعله لم يمنعها من الصرف؛ بناء على أنّ مؤنثها يأتي على وزن (فَعلانة)، مع أنّ المشهور في مؤنث ريّان هو ريّا. [انظر المصباح المنير- روي].

(٦) البرهان في أصول الفقه، ج١ ص ١٣٠، ط٤- مصر.

(٧) البحر المحيط في أصول الفقه، ج١ ص١٤، ط٢ (١٤١٣هـ-١٩٩٢م)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت.

(٨) هو سِفْر ضخم عظيم الفائدة، يقع في خمس مئة وعشرين صفحة من القطع الكبير، بحسب الطبعة المحققة، بتحقيق الدكتور مصطفى محمد حسين الذهبي، وتقديم أحمد زكي يماني، والناشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).

(٩) مجاز القرآن، ص١٧.

(١٠) مجاز القرآن، ص٤٣.

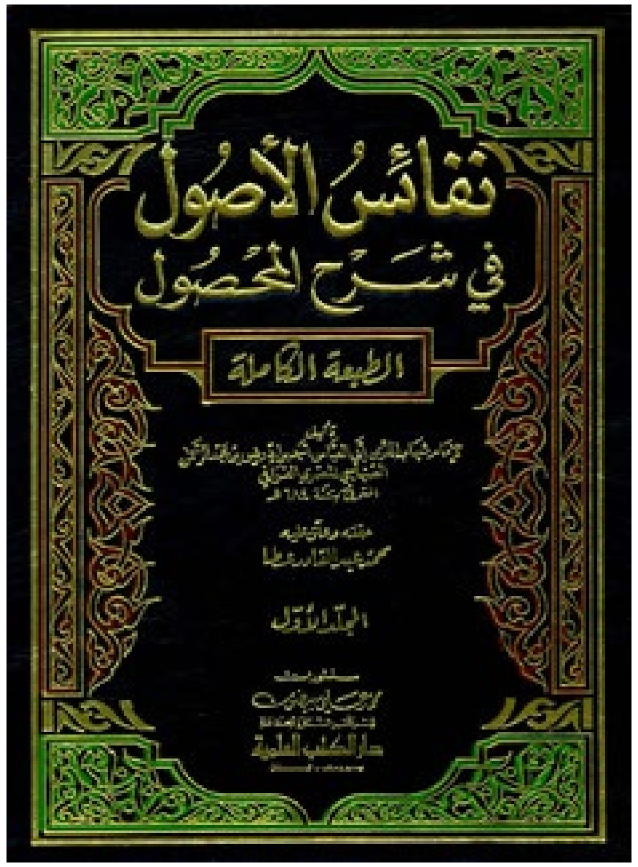

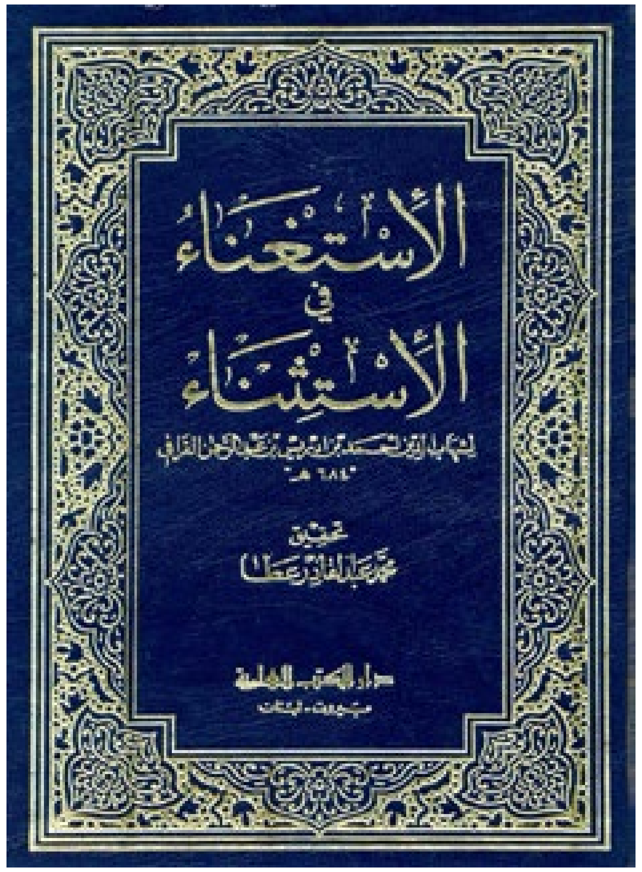

وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً مجازياً، ولذلك أمثلة:

منها: قوله: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] أي: مثل أمهاتهم في الحرمة، وتحريم النكاح.

ومنها: قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤] أي: مثل أبنائكم في تحريم حلائلكم.

ومنها: قوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] أي: مثل ولد.

ومنها: قول رسول الله ﷺ للمغيرة: «يا بُنَيَّ ما ينصبُك منه» أي: من الدجال.

وكذلك قولك للأجنبي: "يا بني" معناه: يا نظير بني في الشفقة والرحمة.

ومنها: قولهم: أبو يوسف ،أبو حنيفة: يريد أنه مثله في الفقه والفطنة...، وكذلك قولهم: أنت سمعي، وبصري، معناه: أنت عندي في العزة والمنزلة مثل سمعي وبصري.

ومنها: قوله ﷺ: «أنتَ ومالُك لأبيك»، وفي هذا الحديث مجاز من وجهين:

أحدهما: تشبيههما بما يملكه الأب. والثاني: أنه أمرٌ بلفظ الخبر، ومعناه: نزِّل نفسَك ومالَك من أبيك منزلة المملوك من المالك، وهذا كله يُسَمّى التشبيه البليغ؛ لأنك تشبّه شيئاً بشيء لاشتراكهما في وصف واحد، فإذا أردتَ المشابهة في جميع الوجوه والصفات أسقطت أداة التشبيه حتى كأنه هو من غير فرق بينهما. ...

ومثل قوله:﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] أي: هذا مثل الذي رُزقناه من قبل.

ومنها: قوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: ٤٣] أي: مثل سنة الأولين.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥] أي: مثل سنة الأولين."[١١]

إمام المالكية الكبير الشهاب القَرَافي يبرِّز في (أبواب الاستثناء وأحواله):

وهل أنبئك، عزيزي محبَّ اللغة العربية، عن كتاب (الاستغناء في أحكام الاستثناء) للفقيه المالكي الكبير الإمام شهاب الدين القرافي[١٢]، صاحب (الذخيرة) في الفقه، و(الفروق) في القواعد الفقهية، و(نفائس الأصول شرح المحصول) في أصول الفقه، وغيرها؟!

إنّ كتاب (الاستغناء) فريد من نوعه، إذ استوعب القرافي في كتابه هذا -الذي طبع في ما يزيد عن سبع مئة صفحة من القطع الكبير- جميع أنواع الاستثناء وأحواله بما لا مزيد عليه، بل ربما تجده قد أسرف في ذلك، وجاء فيه بما لم يخطر على بال النُّحاة وأهل اللغة عامة، ولا يتسع المجال للاقتباس من أقواله ونصوصه، وأكثر عناوين الأبواب دالّة على خلاصة مضمونها،ويتضوَّع عَرْفُها من خلال استقراء الباحث فهرسَ ذلك العِلْق النفيس !

الإمام الآمدي يبدع البحث في جوانب أخرى من علوم العربية:

ولو قرأت مقدمات كتاب سيف الدين الآمدي في أصول الفقه، لرأيت دقة ما بعدها دقة في عرض المباحث النحوية الضرورية لدارس علم الأصول، وبخاصة الاسم وتقسيماته في كلام العرب، وهو كلام طويل، لا يتسع المقال لذكره، ولا لاختصاره[١٣].

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أقول: رحم الله علماءنا الأبرار الأخيار، حملة الشريعة الغراء وفقهاءها، الذين خدموا اللغة العربية وعلومها، وأبدعوا في خدمتها أيما إبداع، وهم يحتسبون الأجر من الله تعالى؛ لأن دافعهم إلى هذا كله خدمة دينهم وشريعتهم وأهل ملتهم.

وما علينا إلا أن ننهل من كتبهم، ونقدّر جهودهم، ونتابع السير على خطاهم، وندعوا لهم.

(١١) مجاز القرآن، ص١٤٨-١٤٩.

(١٢) هو أحمد بن إدريس المشهور بالقرافي، نسبة إلى القرافة بالقاهرة، وهو أحد أشهر تلاميذ الإمام العز بن عبد السلام.

(١٣) انظر الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، علي بن محمد، ط ١ (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ج١ ص٢٩- ٦٩.

أحـــمـــد الضـبـيـــب
في سطـــور

س١: ما الأسس التي شكّلت شخصيتكم العلمية ؟

ج١: إن أهم هذه الأسس هي الإيمان بالله، والانتماء إلى الهوية العربية الإسلامية، والتعلق بتراث هذه الأمة، والحرص على الدقة في البحث، والأمل في أن تكون أمتنا أمّة متقدمة في مضمار الحضارة.

س٢: نرغب في السماع للأعوام الأولى التي قضيتموها في بناء ملامح ومعالم شخصيتكم العلمية، متى كانت البدايات الأولى ؟ بمن تأثّرتم، وكيف استوى عودكم في هذه الدراسات؟

ج٢: لقد ولدت في مكة المكرمة ونشأت في المدينة المنورة، ومنها ومن مسجدها العظيم وحلقاته العلمية وأجوائه المباركة سرت إليَّ نفحات من العلم وبركات من التحصيل، كانت الأعوام الأولى في حياتي ذات أثر كبير في بناء حياتي العلمية واختيار مستقبلي الأكاديمي واللغوي. لقد كان والدي الشيخ محمد بن حسن الضبيب (أمطر الله على جدثه شآبيب الرحمة) مثقفا، واسع الاطلاع، شغوفًا بكتب التراث وبخاصة كتب التراث الشرعي، وكان إلى جانب ذلك منفتحا على العصر في قراءة المجلات العلمية والثقافية، كمجلة المنار، ومجلة الهلال، ومجلة الرسالة والثقافة. وكان على علاقة بكثير من العلماء والمثقفين في المملكة العربية السعودية وخارجها. وكان مجلسه لا يخلو دائما من النقاش العلمي والأدبي في شتى الموضوعات. وكانت لدينا في المنزل مكتبة متوسطة تحفل بكتب التراث الشرعي من تفسير وحديث وعقيدة وفقه وغير ذلك، إلى جانب كتب الأدب، ودواوين الشعر، وكتب التراجم والرجال. وقد قرأت على والدي في كثير من هذه الكتب، كما كان هو أول معلم أعطاني دروسا في النحو،حتى تستقيم قراءتي. وذلك كله في بدايات المرحلة الابتدائية.

وكان أول كتاب ملكته هو كتاب "جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب" للسيد أحمد الهاشمي، رحمه الله وهو كتاب يحتوي على نماذج جيدة من فنون الأدب العربي خلال العصور. وقد أهداه أبي إليَّ عندما رأى شغفي بالأدب، وولعي بقراءة الشعر، ومحاولاتي قرض الشعر في المرحلة المتوسطة، وقد كان لهذا الكتاب أثره الكبير في إغناء حصيلتي من تاريخ اللغة العربية وآدابها

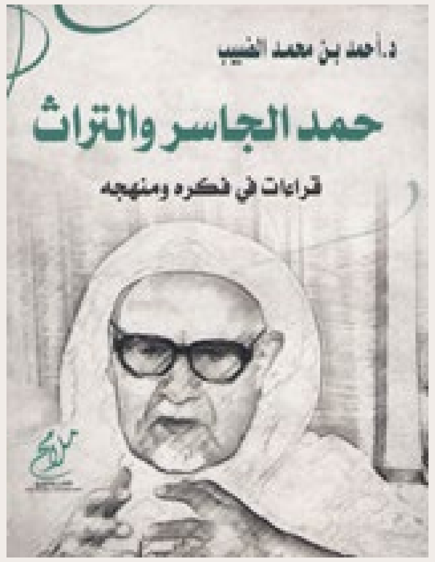

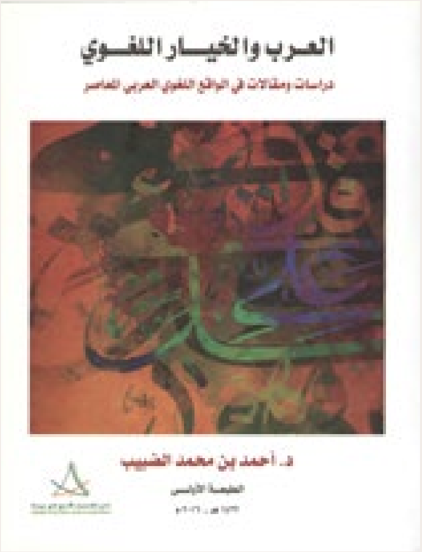

في ذلك الوقت المبكر من حياتي.

بعد إنهاء المرحلة الابتدائية اقترح والدي أن ألتحق بالمعهد العلمي السعودي في المدينة المنورة، وكان هذا المعهد يهتم بالعلوم الشرعية والعربية بالدرجة الأولى، لكنّه مع ذلك لم يكن منغلقا، وإنما كان يمزج بين الأصالة والمعاصرة، فإلى جانب الدروس المكثفة في علوم القرآن والحديث، والخوض في كتب تعد الآن من المراجع التي لا تكاد تذكر في الجامعات من كتب العقيدة والفقه وأصوله والتفسير وعلومه، والحديث ومصطلحه، كنا نقرأ الأدب العربي في كل عصوره ونطلع على جميع أطيافه، دون استبعاد أي نوع منه. وكنا نأخذ دروسًا في علوم الجغرافيا، ودروسًا في التربية الفنية من رسم ونحوه، كما ندرس مواضيع في الرياضيات. ونحوها من العلوم.

كان هذا في الخمسينيات من القرن العشرين وحينها كانت النهضة الثقافية في مصر وغيرها من البلاد العربية قد استبحرت وأخذت تعطي ثمارها الوفيرة، وقد وصلتنا في المدينة مؤلفات الكبار: طه حسين، والعقاد، والرافعي، وزكي مبارك، وغيرهم من المفكرين، ورواد الشعراء والنقاد وعمالقة الصحافة، فتعلقت النفس بهم وبنتاجهم، وكانت القاهرة الهدف الذي يتطلع إليه كل مثقف كي يكون قريبا من منبع الثقافة ومرتكز المثقفين.

ولذلك عندما أنهيت المرحلة الثانوية من المعهد العلمي السعودي –وكنت الأول على فرقتي في تلك السنة– تهيأ لي الابتعاث إلى خارج المملكة، فقد كان ذلك متاحًا من قبل الدولة للثلاثة الأول الناجحين من المعهد. وفعلا شددنا الرحال إلى القاهرة، وهناك التحقت بكلية الآداب، بجامعة القاهرة في قسم اللغة العربية. وفي هذا القسم شرفت بالتلمذة على كبار الأساتذة واللغويين من أمثال الدكتور شوقي ضيف، والدكتور حسين نصار، والدكتورة سهير القلماوي، والدكتور شكري عياد، والدكتور سيد يعقوب بكر، والدكتور يحيى نامي، والدكتور عبد العزيز

السلام على جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب رحمه الله

السلام على جلالة الملك الحسين بن طلال ملك الأردن رحمه الله

الأهواني، والدكتور يوسف خليف، رحمهم الله جميعا، وغيرهم من أفاضل الأساتذة وكبار الباحثين.

في القاهرة تعلمت بدايات البحث العلمي واتصلت بآفاق الدراسات الأدبية واللغوية بشكل أكاديمي، وعرفت المنتديات الثقافية، فكتبت بحوثا أدبية نشر بعضها في الصحف السعودية، ثم كان الابتعاث بعد البكالوريوس إلى بريطانيا لمرحلة الدراسات العليا، وهناك التحقت بقسم اللغات السامية، وفي هذا القسم اتصلت بآفاق أخرى تتعلق بالدراسات اللغوية السامية الواسعة، وثقفت شيئا من هذه اللغات كالعبرية والآرامية والسريانية وآدابها، وقرأت قراءات مكثفة في عوالم هذه اللغات، وما كان ذلك ممكنا في البلاد العربية. وكان من حسن الحظ أن وفقت بمشرف جاد، لم يكن يرضيه القليل، ولا يكفيه النزر، وإنما يتوقع من الطالب دائما المزيد من الاطلاع، والمزيد من الإبحار في لجج التراث اللغوي السامي بعامة، والعربي بخاصة، وكان طلعة لكل جديد في الدراسات اللغوية وغيرها، مما يتعلق بموضوع دراستي، ففتحت لي توجيهاته– مع قسوتها في ذلك الوقت– آفاقا لم أكن أعرفها أو أصل إليها بدون حرصه و إصراره.

س٣: اقترن اسم الدكتور أحمد الضبيب بحقل اللغويات والدراسات الأدبية والتراثية، فأيّ الحقول الأقرب إلى نفسك؟

ج٣: أعتقد أن علوم اللغة العربية وآدابها والتراث العربي متواشجة، يشد بعضها بعضا، ولا يكتمل البحث في أحد حقولها إلا بالنظر في الحقول الأخرى، فلا سبيل للقول بأن فلانا لغوي لا شأن له بالأدب، أو هو ناقد لا شأن له بالنحو واللغة، لا بد للمتخصص في أي حقل من حقول المعرفة اللغوية أو الأدبية أو الشرعية من أن يكون على صلة بحقول اللغة المختلفة من صوتيات، وتركيب، وبنية، ومعجم. واللغوي لابد أن يكون على علاقة قوية بالأدب والأساليب البيانية العربية، إن لم يكن على سبيل التخصص فعلى سبيل المعرفة الجيدة والاطلاع المفيد. ولذلك فإن من الملحوظ أن بعضا من لغويينا المعاصرين يهجمون على العلم اللغوي من خلال دراساتهم الحديثة المعتمدة على الدراسات الغربية المعاصرة، ويُنَظِّرون للموضوعات اللغوية، دون وعي بما في تراثنا من كنوز معرفية، سواء في الناحية اللغوية أو في بعض الحقول الأدبية الأخرى، ولو أسسوا لدراساتهم بالاطلاع على ما في التراث من قضايا تهمهم لكان في ذلك إغناء لدراساتهم يجعلها أصيلة ومبتكرة.

اللغة عندي هي العشق الأول ممثلة في أعمال اللغويين العرب القدماء، وإسهامات الباحثين المعاصرين، ومتمثلة في الحراك الفكري على الساحة العلمية والإبداعية، وبوصفها لغة نابضة بالحياة في مسيرة الأمة، ويهمني كثيرا وضع اللغة العربية هذه الأيام، وما يطرأ عليها من تغير أو تطور أو انكماش في كثير من المواقع.

س٤: ما الكتاب الذي كان له أثر بالغ في توجّهاتك اللغوية؟

القرآن الكريم هو الكتاب المبهر لغويا. واللغوي العربي الذي يتأمل النص القرآني لا بد أن ينطلق منه إلى آفاق واسعة من الدرس اللغوي في كثير من الموضوعات، وسيجد في المعالجات اللغوية الثرية التي قام بها علماؤنا القدماء حول الكتاب الكريم سواء في

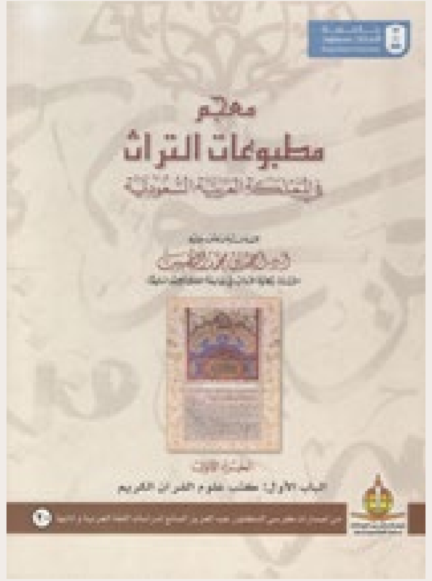

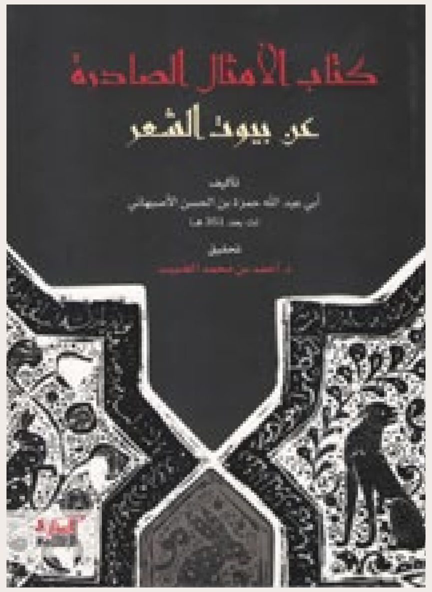

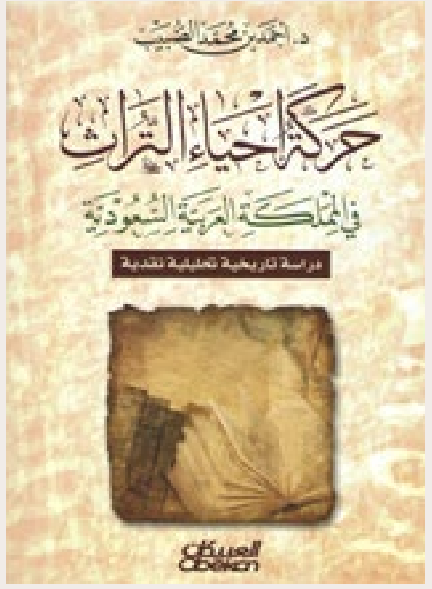

التفسير أو في الغريب أو في الإعراب، أو في القراءات وفي اللهجات العربية الكثير من الآفاق الرحبة الملهمة لدراساته.

س٥: كيف يمكن وصف واقع اللغة العربية اليوم في عالمنا العربي، تشخيص الداء ووصف الدواء؟

ج٥: واقع اللغة العربية في الوقت الحاضر لا يسر الغيورين عليها،فهي تعاني من الغربة بين أبنائها الذين تنكروا لها في كل المجالات، فلم تعُد لغة السوق، ولا الطب، ولا العلم، ولا التعليم في الجامعات، وأخذت اللغات الأجنبية مكانها في المرافق السياحية وساحات المؤتمرات، والمنتديات حتى بين العرب أنفسهم.

اللغة مثل العملة تزدهر بالرواج، وتنتعش بالتداول، وتعتز بالاستعمال، فمتى فقدت ذلك أصيبت بالكساد، واقتربت من الموت، وبقيت حبيسة في مجلدات الكتب، على رفوف المكتبات. وأي أمة في هذا العالم المتقدم المتسارع لم تتقدم إلا عن طريق تشجيع لغتها وتفعيلها في المجتمع، لأن اللغة هي وعاء الفكر، ووسيلته إلى المعرفة، والعلم الذي يؤخذ باللغة الوطنية يمتزج بالفكر والجسد، ويستطيع الباحث عن طريقه الوصول بسهولة وسرعة إلى مرحلة الإبداع والابتكار. بلا لغة وطنية يكون الإبداع محدودا، وإذاكان باللغة الوطنية ازداد انتشار العلم في المجتمع وتعددت وسائل الإبداع والابتكار.

س٦: بوصفكم أستاذا أكاديميا وباحثا في اللغويات، هل يشهد هذا الحقل تطورًا في العالم العربي؟ وهل يمكن أن يلحق أو يسابق النتاج العلمي في هذا المجال؟

ج٦: حقل الدراسات اللغوية من الحقول النشطة في العالم العربي، وهو يتوزع بين الدراسات التقليدية التي تبحث في قضايا المتن اللغوي من خلال معطيات التراث، وتقارنها بعض الشيئ بالتطورات الحديثة في العالم الغربي على وجه الخصوص. والدراسات اللغوية الحديثة التي تتبنى النظريات اللغوية الجديدة في الغرب وتطبقها على اللغة العربية، وهناك معالجات جادة تتناول القضايا المتعلقة بتحليل الخطاب، ولسانيات النص، والتداولية، والسيميائيات، وغيرها، وفي كثير من هذه الدراسات تلتحم البلاغة مع النحو في مسير واحد. وعلى الصعيد المعجمي هناك نشاط ملحوظ وبخاصة في المغرب العربي الكبير، فالدراسات المعجمية هناك تلقى نهضة غير مسبوقة.

أمّا الدراسات المتعلقة بمكانة اللغة العربية في المجتمع فهي ما زالت قليلة، وتحتاج إلى جهود علمية حثيثة تسبر أغوار اللغة في المجتمع، وتبين مكانتها فيه. وأقصد بهذا الدراسات القائمة على الجهود الميدانية، والإحصاءات الموثوقة، التي يمكن أن تعطي صورة حقيقية لما يمكن أن يكون عليه حاضر هذه اللغة ومستقبلها.

وفيما يتعلق بمقارنة الدراسات اللغوية العربية بما يجري في الغرب، فالحقّ أننا في هذا العصر أصبحنا جزءا من العالم الذي نعيشه في جميع المجالات، وأصبح الاطلاع على ما عند الآخر أمرا ضروريا، نأخذ منه ما يتفق وخصوصية لغتنا العربية، ولسنا في سباق مع أحد وإنما هي أفكار قد تنبت عندنا أو عند غيرنا. ونحن نعلم أن العلم ليس له وطن، كما أن الجهود العالمية في كل العلوم ماهي إلا جهود بنيت على معطيات تراكمية من مختلف الحضارات والبيئات. والمهم في الأمر كله أن تخدم هذه الدراسات لغتنا في المنهج والتطوير، وتسهم في جعلها لغة فاعلة في الحياة.

س٧: تذكر لكم ريادة في الترجمة اللغوية في المملكة العربية السعودية، هلا حدثتمونا عن هذه التجربة.

ج٧: لقد كنت -ولله الحمد - أول سعودي يترجم كتابا لغويا، وذلك عندما صدرت ترجمتي لكتاب البروفيسور ت.م.جونستون، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن، بعنوان"دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية" عن جامعة الملك سعود، سنة ١٩٧٥م. وهو دراسة مستقصية للهجات العربية في بلدان الخليج العربي من الكويت إلى عمان. وقد لقيت ترجمتي للكتاب ترحيبا وإشادة من قبل كبار اللغويين ومنهم الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس (رائد الدراسات اللغوية في البلاد العربية) الذي بعث إلى برسالة مشجعة، والأستاذ الدكتور أحمد مطلوب الذي كتب مقالة ضافية عن الكتاب. وبعد ذلك بمدة توالت الترجمات الأكاديمية من قبل تلاميذنا وزملائنا في هذا الحقل. وتعدّ جامعة الملك سعود-في المملكة- السباقة والأكثر نتاجًا في مجال الترجمة.

س٨: في ظلّ التطورات والتغيرات التي يشهدها واقع اليوم على أكثر من صعيد يتجدّد السؤال عن وسائل ترسيخ اللغة العربية بين أبنائها في واقع تتلاطم فيه أمواج ثقافية وفكرية ولغوية متعددة، فكيف يمكننا تعزيز الأمن اللغوي؟

ج٨: ممّا لا شك فيه أن الوضع اللغوي الراهن في البلاد العربية يهدد الأمن اللغوي، وتهديد الأمن اللغوي هو تهديد للهوية العربية بمفهومها الواسع. فمن المعلوم أنه منذ أن خرجت اللغة العربية من أرض العرب وانتشرت في البلاد الإسلامية خارج الجزيرة لم تعد هذه اللغة لغة الجنس العربي وحده، وإنما هي لغة الثقافة العربية الإسلامية، وكل من كان منتميا لهذه الثقافة فهو بالضرورة عربي، وتمثل العربية أساسا مهما من أسس هويته الثقافية. ولذلك فإن علينا أن نكافح دعاة التفرقة الإثنية من خلال اللغة، ودعاة الإقليمية اللغوية، أو العرقية اللغوية الذين يحاولون تفتيت لحمتنا الثقافية بالانحياز إلى اللغات الإقلمية، ظانّين أنها في صراع مع العربية. مع أن العربية لم تكن في يوم من الأيام لغة صراع مع اللغات الأخرى، وإنما كانت دائما لغة التعايش بين جميع الثقافات، فالمسلمون عندما دخلوا البلاد المفتوحة لم يستأصلوا لغاتها كما فعل المستعمرون المعاصرون-

مع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ﷺ

في افتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢٠١٧

الذين حاولوا اجتثاث اللغات الوطنية للمجتمعات- وإنما أبقى المسلمون على لغات الأمم التي دخلوا أراضيها، فتعايشت العربية مع اللغات المحلية كالفارسية والكردية والأمازيغية وغيرها دون تنافر، فكانت العربية لغة الهوية الثقافية، وأصبح الناطقون بها عربا، وأصبح الوطن الذي يضمهم -بصرف النظر عن انتماءاتهم العرقية- هو الوطن العربي.

إن الأمن اللغوي العربي يبدأ بالحفاظ على اللحمة الثقافية العربية الإسلامية التي تجمع أبناء الوطن العربي الواحد من الخليج إلى المحيط. ثم علينا أن نؤسّس في كل بلد من بلدان وطننا الكبير لاستراتيجيات ذات أهداف ووسائل من أجل تفعيل دور اللغة العربية في جميع مفاصل الحياة، فتكون لغة التعليم والعلم والعمل والطب والسياحة وغير ذلك.

إن اللغة الواحدة الموحدة المتمثلة باللغة العربية هي نعمة من نعم الله وهبها لأبناء هذا الوطن العربي الكبير، وهي ميزة يتمناها كثير من البلدان التي تعيش في فضاء واحد، كالاتحاد الأوروبي مثلا. ففي وحدة اللغة كثير من عوامل القوة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها. وإذا أردنا النهضة والتقدم فلا بد لنا من ترسيخ عوامل القوة في وطننا الكبير، ومن أهمها عنصر اللغة، ولا يتم ذلك إلا بتبني سياسات حكومية ملزمة، هدفها تمكين اللغة في المجتمع، وجعلها حية نابضة فيه.

س٩: لكم اهتمام خاصّ بالتراث العربي تحقيقا ورصدا وتأريخا، كيف تم ذلك؟

ج٩: لقد قلت فيما سبق إن التراث العربي كان من الاهتمامات الأولى التي نشأت عليها، ولذلك فإنني عندما بدأت خطوات البحث العلمي الأولى في جامعة القاهرة، كانت معظم بحوثي في سنوات الطلب متعلّقة بالتراث العربي. فقد كتبت بحثا مفصلا عن "الوثنية في جزيرة العرب"، وآخر عن "الخوارج"، وثالث عن "المتنبي في مصر"، وهذا الأخير قد وجد طريقه للنشر. وعندما ابتعثت إلى بريطانيا زادت علاقتي بهذا التراث رسوخا. فقد كانت أطروحتي للدكتوراه من أقوى الأسباب التي فتحت لي أبوابا واسعة للولوج إلى هذا العالم الواسع، وتتبع قضاياه، وما لقيت هذه القضايا من بحث ودراسة ونقاش في الشرق والغرب. إلى جانب مقارنة ذلك بما اطلعت عليه من لغات الأمم السامية الأخرى وآدابها.

عندما عدت من البعثة كان أول كتاب نشرته هو "كتاب الأمثال" لأبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي(ت١٩٨ه)، ومؤرج هو أحد أكابر تلاميذ الخليل، و زميل سيبويه، وكتابه يهتم بالتعبيرات اللغوية، سواء أكانت أمثالا سائرة أم عبارات مثلية، مع الاستشهاد عليها من رصين من نصوص التراث. هذا الكتاب يعد من أوائل كتب الأمثال التي ألفت في القرن الثاني الهجري. وهذه النشرة هي النشرة الأولى للكتاب وقد صدرت بالرياض سنة ١٩٧٠م. وأنوي الآن إصدار نشرة جديدة للكتاب فيها تحديث وزيادات بناء على المعطيات الجديدة في عالم التراث، منذ إصداره لأول مرة حتى الآن.

ثم حققت كتابا آخر نفيسا من كتب التراث الأدبي هو كتاب "الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر"، لحمزة بن الحسن الأصفهاني (ت٣٥١هـ)، وحمزة من أعلام اللغويين في القرن الرابع الهجري، ويضم كتابه ما يقارب ستة آلاف مثل شعري، وهو بذلك يعدّ من الرواد في التصنيف في هذا الفن. ونسخة كتاب حمزة الخطية فريدة توجد في مكتبة الدولة ببرلين. غير أن ص: ٢٩ (أصعب شيء عانيته في تحقيق هذا السفر أن المؤلف لم يكن ينسب النصوص إلى أصحابها، ولذلك فقد الشعرية إلى مصادرها. وقد صدر الكتاب في بيروت سنة ٢٠٠٩م.

ويتعلق بذلك -أيضا- أنني أعجبت منذ زمن بشخصية الإمام الأعمش، سليمان بن مهران (ت ١٤٨هـ) وهو أحد كبار المحدثين والقراء في القرنين الأولين للهجرة، حتى سلكه الجاحظ ضمن أربعة نفر بثوا العلم في الدنيا. وقد أعجبني في شخصيته ميله إلى المرح، ونزوعه إلى بعض المواقف الطريفة، التي تعتمد على البديهة السريعة والمنطق اللاذع المشوب بالمزاح على الرغم من جلالة قدره، وكونه رأسا في المحدثين والقراء. فجمعت جملة من أقواله ومواقفه الطريفة في كتاب سميته "الأعمش الظريف، أخباره ونوادره، صدر في الرياض سنة ١٩٨٣م.

أما عن رصد التراث والتأريخ له، فقد اهتممت منذ السبعينيات الميلادية بالتأريخ لحركة إحياء التراث في المملكة العربية السعودية، ورصد معطيات هذه الحركة، بدأت ذلك ببحث صغير شاركت به في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٩٧٤م، بعنوان" نظرة في حركة إحياء التراث في المملكة العربية السعودية". كان بحثا استكشافيا، لكنني ما لبثت بعد ذلك أن تعمقت في الموضوع بزيادة الاطلاع والكشف والتحليل، واستمرت مسيرة هذا المشروع البحثي أكثر من ستة وأربعين عاما، وكان من ثمراته عدة كتب هي:

- آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب، سجل بيبليوجرافي لما نشر من مؤلفاته، الرياض: ١٩٧٠م.
- بواكير الطباعة والمطبوعات في المملكة العربية السعودية، الرياض: مركز حمد الجاسر الثقافي،٢٠٠٧م.
- معجم مطبوعات التراث في المملكة العربية السعودية (٨ مجلدات)، الرياض: جامعة الملك سعود، ٢٠١٦م.
- حمد الجاسر والتراث، الشارقة: دار ملامح ٢٠٢٠م.
- حركة إحياء التراث في المملكة العربية السعودية، دراسة تأريخية، تحليلية، نقدية. الرياض: دار العبيكان، ٢٠٢٠م.

س١٠: كلمتكم الأخيرة؟

ج١٠: في ختام هذا التحقيق أود أن أعبر عن إعجابي بهذه المجلة الغراء التي تضيف منفذا جديدا إلى منافذ التعريف باللغة العربية، وبالمشتغلين في حقولها المختلفة. وهي إحدى ثمار مجمع اللغة العربية في الشارقة، هذا المجمع الفتي الذي يقوم بمبادرات علمية متميزة-على مستوى الوطن العربي- في سبيل خدمة الفصحى ومؤسساتها ومشاريعها البحثية، برعاية خاصة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى،حاكم الشارقة، الذي ما فتئ يبذل الغالي والنفيس في سبيل تعضيد المشاريع الثقافية والعلمية على امتداد فضائنا العربي، فجزاه الله عن اللغة العربية والثقافة العربية كل خير، وجعل ما يقوم به في هذا المجال في ميزان حسناته.

والله وليّ التوفيق

الابتـــداءُ بالنكرة

بين مسوِّغات النحاة وبلاغة النص القرآني

نبيل احريز
المحرر اللغوي المساعد لدى مجمع اللغة العربية الأردني

ذهبَ كثيرٌ مِنَ النّحاة إلى وجوبِ تعريفِ المبتدأ في الجملة الاسمية، وبحثوا للمبتدأ النكرة في نصوص الكلام العربيّ التي واجهوها عـن مسوّغ إصرارًا منهم على اطّراد القاعدة المُفتَرَضَة (وجوب الابتداء بالمعرفة)، وقد اعتمدوا في ذلك مبرراتٍ عقليّةً منطقيّة، فوصلتْ هذه المُسوِّغاتُ إلى خمسين أو أكثر!! يُطالبُ الطُّلّابُ بحفظها دون أن يُلتَفَتَ إلى بلاغة استعمالِ النكرة مبتدأ؛ فقد تكونُ النكرةُ مبتدأً أبلغَ منها معرفةً في بعضِ الأحيان. وخصّ هذا الموضوعَ بعضُهم بمؤلفات، منها:

١- "التذكرة في تسويغ الابتداء بالنكرة" للعُنّابي. استقرى النصوص والقواعد الجامعة لمسوِّغات النحاة؛ فذكرَ اثنين وأربعين مسوِّغًا، مع شواهدها من نصوص الكلام العربي.

٢- "الفوائد المُحَرَّرَة في شرح مسوِّغات الابتداء بالنكرة" للشّيخ إسماعيلَ الجرّاحيّ العجلونيّ. وهذا الكتابُ شرحٌ لمنظومةِ أبي محمد أحمدَ، تاج الدين، ابن مكتوم القيسيّ، في مسوّغات الابتداء بالنكرة. بلغ عدد المسوّغات عنده ثلاثة وثلاثين مسوّغًا، وقد أضاف عليها العجلونيّ سبعة عشر مسوغًا. جمع العجلونيّ فيها الكثير مما قيل حول هذه المسوّغات من تأويلات العلماء، ذاكرًا شواهدَ من نصوص الكلام العربي على كل مسوّغ مما تناثر في أمهات كتب النحو في هذه المسألة.

ولعل من أبرز ما اعتمد عليه المسوّغون كونَ المبتدأ محكومًا عليه مُخْبَرًا عنه، ولا يصحُّ الحكمُ أو الإخبارُ على نكرةٍ مجهولة لدى السامع، فلا بدَّ من وضوحه في ذهنه حتى يتهيّأ لاستقبال الخبر. والغرضُ الأصليُّ للمتكلم من إلقاء الكلام الخبري إفادة السامع. يقولُ ابنُ السّرّاج: "...فَحَقُّ المعرفةِ أن تكون هي المبتدأ، وأن تكون النكرةُ الخبر؛ لأنك ابتدأتَ، فإنما قصدُك تنبيهُ السّامع بذكر الاسم الذي تحدِّثه عنه ليتوقّع الخبر بعده، فالخبرُ هو الذي يُنكِره ولا يعرفه ويستفيده، والاسمُ لا فائدةَ له لمعرفته به، وإنما ذكرته لتُسند به الخبر".

ولعلّ هذا المثالَ يُوضِّح كلام ابن السرّاج: إذا قلت: (شابٌّ). فإنّ ذهن المتلقي سينشغل باحثًا عن مُزيلٍ للإبهام في هذه الكلمة النكرة، ولنْ يتهيّأ لتلقّي حُكْم (خبَر) عن شيء مبهم. وبالتالي؛ لا يصحُّ الابتداء بهذه النكرة. وإذا قلت: (شابٌّ في الدّار)، فقد يظنُّ المتلقّي أنّ "في الدار" صفة لـ(شابٌّ) لا خبر، حسَب مذهب المسوّغين، وإذا وصِفَ زال إبهامُه باقترابه من المعرفة، فتقول: "شابٌّ في الدار فاضلٌ". وفي هذا يقول خالد الأزهري: "... فلو قلت: رجل في الدار. لم يُعلم: هل الجارُّ والمجرور صفة أو خبر؟ لأن النكرة إذا جاء بعدها ظرفٌ أو جارٌّ ومجرور تُحمل على الصفة لاحتياجها للنعت".

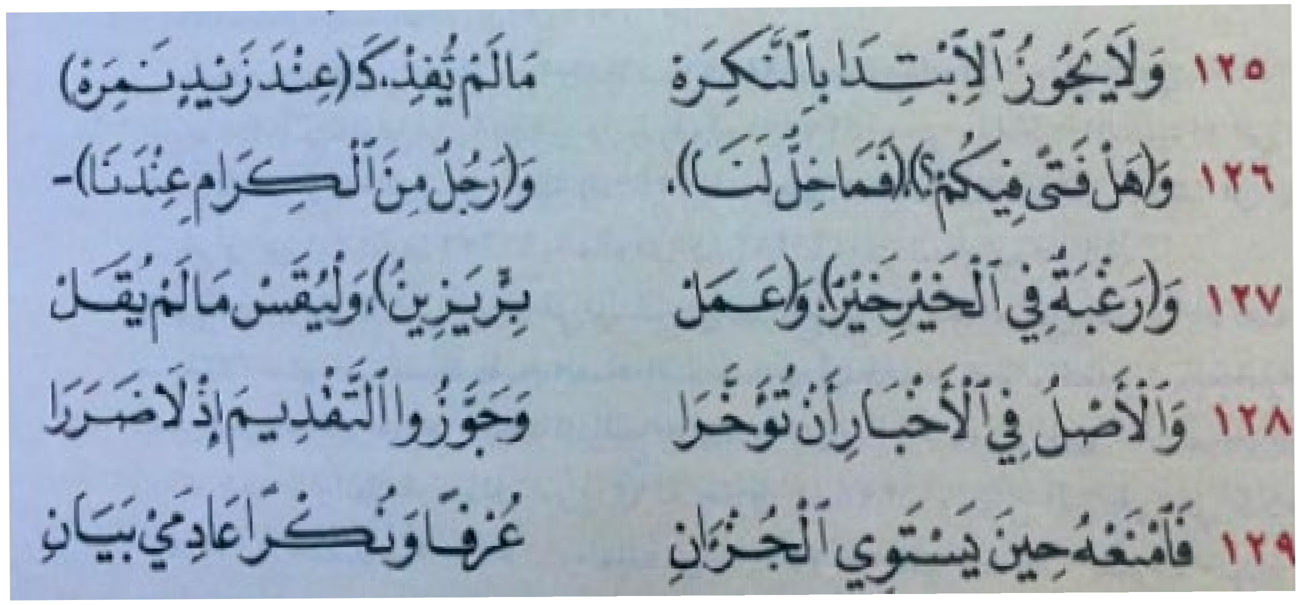

١٢٥ وَلَا يَجُوزُ الْابْتِدَا بِالنَّكِرَه ... مَا لَمْ تُفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَه
١٢٦ وَهَلْ فَتًى فِيكُمْ؟ فَمَا خِلٌّ لَنَا، ... وَرَجُلٌ مِنَ الْكِرَامِ عِنْدَنَا.
١٢٧ وَرَغْبَةٌ فِي الْخَيْرِ خَيْرٌ، وَعَمَلْ ... بِرٍّ يَزِينُ، وَلْيُقَسْ مَا لَمْ يُقَلْ
١٢٨ وَالْأَصْلُ فِي الْأَخْبَارِ أَنْ تُؤَخَّرَا ... وَجَوَّزُوا التَّقْدِيمَ إِذْ لَا ضَرَرَا
١٢٩ فَامْنَعْهُ حِينَ يَسْتَوِي الْجُزْءَانِ ... عُرْفًا وَنُكْرًا عَادِمَيْ بَيَانِ

لكنْ، إذا قال قائل: "رجلٌ في الدنيا قائمٌ": المبتدأُ (رجلٌ) نكرةٌ عامّة وُصِفَتْ بالجارّ والمجرور (في الدنيا)، وبالتالي تحقّق شرطُ المسوّغين اللفظيُّ فجاز الابتداء بها، لكنّ الوصفَ (في الدنيا) لم يُزِل الإبهام عنه! فبقيتْ دلالتُه عامة. فهل النكرةُ هنا مفيدةٌ؟! ولذلك قرّر ابنُ هشام ما يأتي: "وليست كلّ صفة تُحَصِّلُ الفائدة، فلو قلت: (رجل من الناس جاءني)، لم يجز".

ولذا فإن وضوحَ المعنى والقصدَ الإبلاغي هو الأساس في معالجة مسألة الابتداء بالنكرة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه ضابط هذه المسألة، ولنقاش هذه المسألة إليكم ما يأتي:

في حديث المسوِّغينَ عن تسويغ الابتداء بالنكرة في قول الله تعالى: "ويلٌ للمُطفِّفينَ" وأمثالها من نحو "سلامٌ عليكم"، ذكروا أنّ تنكير المبتدأ هنا مسوِّغُه الدعاء، مكتفين بذلك فقط؛ قال ابنُ الحاجب: "إنه مختصٌّ بنسبته إلى المتكلم؛ لأن أصله: سلَّمتُ أو أسلِّم سلامًا، بالنصب، ثمّ حُوِّل إلى الرفع لقصد الاستمرار؛ أي: سلامي عليك". لكنّ الرضيّ اعترض عليه بـ"أنه لا يطرد في جميع الدعاء، نحو: ويلٌ لك، إذ ليس المراد: ويلي لك، ولا ويلُك لك، بل المراد: مطلق الهلاك لك. فالأَوْلى أن يُقال: تنكيرُه لرعاية أصله حين كان مصدرًا منصوبًا، ولا تخصيصَ فيه؛ إذ تخصيصُه بالنظر إلى المخاطب إنما كان بذكر الفعل الناصب له" ثم قال: "ينبغي أن الأصل: سلّمك اللّهُ سلامًا، بمعنى: جعلك سالمًا، فهو مخصص بالنسبة إلى اللّه".

لكنْ، ثمة ملمحٌ اعتمدَ المعنى والقصد البلاغي لا اللفظ؛ فكلمة (ويل) معناها: العذاب، أما الحديث الذي يدلّ على أنّ الويلَ وادٍ في جهنم؛ فسندُه ضعيفٌ عند المُحدِّثين، وقال بعضهم بأن سنده مرفوع، وحكم آخرون بغرابته،... فالحديث عندهم ما بين ضعيف ومرفوع وغريب. وابنُ عباس ﵄ قال بأن (ويل) معناها العذاب، فهل ثمة فرقٌ بين: (الويلُ للمطففين) و(ويلٌ للمطففين)؟ أجابَ تمام حسان بأن مجيئها نكرة يختلف عن مجيئها مُعرَّفة بـ(أل)، فلو قال القرآن: (الويل للمطفّفين) لخفّف عنهم نوعَ ووقْعَ العذاب الذي يلاقونه، فـ(ويل) النكرة تدلّ على أن هناك أنواعًا عدة من العذاب محتملةً، وكلُّها تقع تحت الاحتمال، أما إذا قيل: (الويل) فهو نوع محدد من العذاب. ولمزيد من التوضيح: لو افترضنا أن طفلًا ما فعل فعلًا منكرًا فهدّده أبوه بعقاب ما دون تحديد. ماذا نتوقع من الطفل؟ سيتوقّعُ احتمالاتٍ عدة للعقاب؛ سيقول في نفسه: يا ترى، ماذا سيفعل بي أبي؟!... وبالتالي؛ فإن وقْعَ العقوبة على نفسه سيكون أكثر شدة، ولو حدّد أبوه العقاب، سيكون الوقع أخفَّ، فيرى في نفسه قدرة على تحمله فيرتكب الخطأ المنهيَّ عنه مطمئنَّ البال. فالقرآنُ عمّم كلمة (ويل) لئلّا تُخَفّفَ العقوبة، ومَنْ يستمعُ إلى "ويلٌ للمطففين" يراجعُ نفسه: أيّ لون من الويل سيقع عليَّ؟! فالملمحُ هنا ملمحٌ دلاليّ بقصدِ التأثير والإقناع، ومن ثَمّ تقوم اللغةُ بوظيفة التأثير والإبلاغ، وقد يكون هذا بالنكرة أكثرَ من المعرفة، وذلك حسب السياق؛ فعدمُ تحديد الويل يكون تأثيره أشدَّ على السامع.

ولعلنا نخلص أن المسألة ليست مسألة ابتداء بمعرفة أو نكرة، بل مسألة دلالة وإبلاغ وقصد، فقد تكون النكرة أبلغ في سياق ما من المعرفة. وعلى ذلك، فالابتداء بالنكرة مقبولٌ ما دام هناك قصدٌ دلالي ووضوحُ معنى وسلامةُ تواصل، وليست المسألة مسألة مسوغات شكلية.

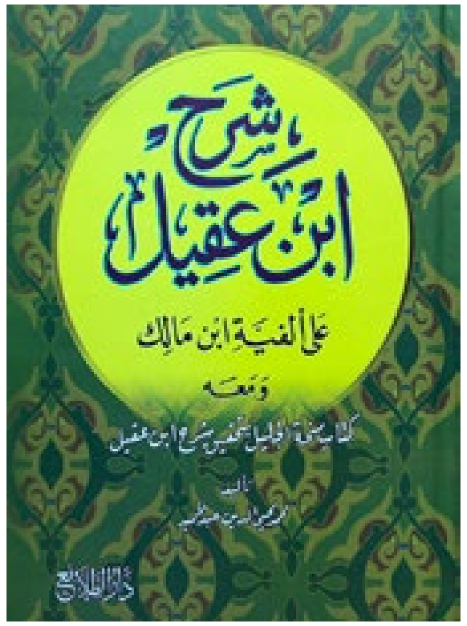

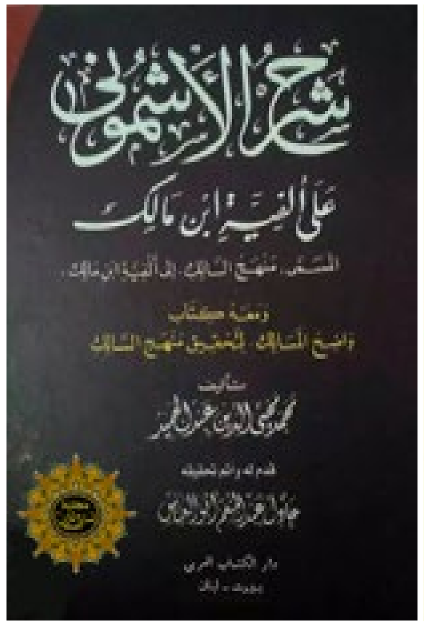

الكِتاب

د. لقمان رضوان شطناوي
وزراة التربية والتعليم - الإمارات

أعزُّ الصِّحاب عليَّ الكتابْ ... ففيهِ وجدتُ الْهَنَا والرَّغابْ
فكَمْ من حديثٍ بهِ لَذّةٌ ... وكمْ قِصّةٍ تَرْوِ أَمْرًا عُجَابْ
وكمْ من علومٍ بها أرتوي ... وتدفعُ شكّي بعينِ الصّوابْ
وكمْ من حُروفٍ بها سُطّرَتْ ... قصائدُ تُحيي النُّفوسَ العِذابْ
به يُكشَفُ الْكَونُ في صَفحةٍ ... لكلِ سؤالٍ لديهِ الجَوابْ
أعزُّ صديقٍ لديَّ الكتابْ ... يداوي أساي بوقتِ الصّعابْ
ويسهرُ قُرْبِي لِيُؤْنِسَ نَفْسِي ... ويُبْعِدَ هَمِّي إذا الْكُلُّ غَابْ
فنِعمَ الأنيسُ لهُ هَيْبَةٌ ... صَديقٌ صدوقٌ عزيزُ الجَنابْ
كريمُ المُقَامِ لَهُ حُظْوَةٌ ... وَمَنْ لا يواليهِ في الْعِلمِ خَابْ

شَرَف المحاولة

بقلم/ د. الطاهر خذيري
أستاذ جامعي وباحث أكاديمي

إني لأراك هيّابا متراخياً عن كثير مما تحسنه وهو في متناولك؛ تخشى مغبّة الفشل وكأنها حُمّى نافض، وتتوهم العثرة قاعاً مُوحلا؛ ترهب جرأة اقتحام العَقبة لكأنها ظُلة الموت، وتظن المحاولة عارا ومنقصة! حتى ليراك الناظر إليك؛ فيلقاك واهي الجأش رِخْو المنطلَق! وإن الذي يعتريك من ذاك الوهم لهو أوْعَر ما يكون من معاول هَدْك! وسَتَعي كلمتي حين تعقل وتتبصَّر؛ فيورثك الوعي فجْعةً لا تهدأ، ولذْعة لا تبرد، وأعيذك بالله من وراثة الحسرة وكسوف البال..

إني لأراك هيّابا متراخياً عن كثير مما تحسنه وهو في متناولك؛ تخشى مغبّة الفشل وكأنها حُمّى نافض، وتتوهم العثرة قاعاً مُوحلا؛ ترهب جرأة اقتحام العَقبة لكأنها ظُلة الموت، وتظن المحاولة عارا ومنقصة! حتى ليراك الناظر إليك؛ فيلقاك واهي الجأش رِخْو المنطلَق! وإن الذي يعتريك من ذاك الوهم لهو أوْعَر ما يكون من معاول هَدّك! وسَتَعي كلمتي حين تعقل وتتبصَّر؛ فيورثك الوعي فجْعةً لا تهدأ، ولذْعة لا تبرد، وأعيذك بالله من وراثة الحسرة وكسوف البال..

أتذْكر حين ألقيتُ إليك قبل سنين كلمةً رجوتُها لك هداية وبداية، وجعلتُ أساسها أن تحمل نفسك على مقارعة ما تتهيّب، وترميَ بها في مواجهة ما تكره وتستصعب، وحرّضتك على أن تَدَّرع للجِد حميّة، وعلى أن يكون مصرعُك فيما تحبّ؛ أحبَّ إليك من عافية في غفلة وسقوط همّة، وذهابُ نفسك في صلاح أمرك؛ أخفَّ من بقائها في هوانك وصَغارك!

وإن تكن أُنسيتَ أُلقيَتي إليك، أو انخزلْتَ عن التذكّر عمدا؛ فإني لست بناسٍ أول الحديث وما كان في سِلْخه، وفيه: أن انظر بعد أن تتسبّب في اعتلاء المجد كما يليق بالأماجد: هل تكون العاقبة رهيبة كما خَيّل لك وهمك؟ أم تلْقاها حسنةً عظيمة!؟

ولو أنك راعيْتَ تلك الكلمة ونهجْت سبيلها، وحذوت حذوها؛ لكان لك شأن، وأيّ شأن!! ولكنك ما زلت تتأمّل وتتمنّى!

تُخبرني أنك دُهشت من بدايات سمعتَ بها أو قرأتَ عنها؛ كانت مُلهمةً لك ومُشوّقة محمِّسة، لكنك لم تعلم نهاياتها البائسة، حين غدا فارسُها متقطّعَ الأحشاء حُزْنا، متصدّع القلب كمدا، وظننتَها بلغَتْ أوْجَ النجاح فيما تحسب، ولكنها كانت بداياتٍ مُشعّةً ما لبثتْ أنْ خَبَا نورها، وانطفأ أُوارها، وتحطّمت بعد حين، وصارت كالهشيم المذرور، وأنت لا تدري!

وهل نقص ذلك من شرفها وعظَمتها؟ وهل العِثار الذي احتوش تلك البدايات أزرى بها أو بأصحابها؟ وهل ظننتَهم استوْخَموا غِبّ السعي، وتردَّوا في مَهواة الندم!؟ كلاّ! إنهم ما إن عثروا حتى نهضوا وهَبُّوا، ثم نفضوا عنهم غبار العثرة وانطلقوا!! وعدّوا ما مضى خبرةً مكنوزة في جعابهم، واستثمروا ما تجرّعوا من غُصص الكبوات في قابل أيامهم.

وكم من نهايات عظيمة بلغك خبرها وألهمك صانعوها؛ وددت لو كنتَ أنت بطلَها، لكنك لم تعلم أنها نهاياتٌ لمحاولات شتى؛ اقْتات ذووها على الهمّ والتعب دهرا؛ وأنفقوا فيها أعمارا طويلة، وتَعَنّوا مرارة يحموم المحاولات الفاشلة –كما تصفها–، ويطيب لي أن أطلق عليها لقب (شرف المحاولة)!

إن النهاية العذْبة التي راق لك لونها، واستهواك ثناء الناس عليها؛ بات كادحُها ليالي الحرّ والقرّ منْهوك القوى، مَهْدُود العافية، محتاجا للُقمة! في وقت كان أقرانه وجيرانه وخِلاّنه في دَعَة وراحة وهناءة بال؛ لا يشغلهم همّ، ولا تُزري بهم مسغبة، ثم تطمع أنت في حيازة النهايات المشرقة بأول خطوة! هيهات هيهات!!

لقد كان مَن بلغَك خبر نجاحه؛ يزاول صعب المطالب، ويقتعد حَرون المراكب، ويحاول المرة بعد المرة، وفي كل كَرّة يتوعّر مطلوبه، ويتلوّى مقصوده؛ فما عيل صبْرُه، ولا انقدّ حزمه، بل لم يزده ذلك إلا عزما على المضيّ، ورغبة في التحدّي، وإلحاحاً على المبتغى، وإيغالا في طلب الغاية.

إني لأعلم من حيث أُتيت أيها الحالم المسكين! حَدَّثتْك الظّنون أن الوصول إلى المرام سهل المأخذ، وتَخَالج في صدرك أنك قادرٌ بلا عزمة، مستطيعٌ بلا عصْرة، غانمٌ بلا مشقة، وتلك مَراجم الظنون، وخوادع الآمال، وخلجات الغفلة، ولا والله ما هي بأحاديث ذوي الحِجى، ولكنها الغَبينة حين تحطّ رحالها بِسُوح الفارغين!

لنتذاكر في هذه الأسطر خبريْن عجيبين؛ عن رجلين غريبين؛ أحدهما مسلمٌ من القرون الأولى، والآخر من غير المسلمين متأخّر الزمان جدا؛ ما هما بملائكة ولا مصطفَيْن، ولكنهما بشَرٌ مثلك، يعتريهما ما تجده أنت في نفسك من الضعف والسأم والانكسار والخيبة، وسائر ما يركب النفس البشرية من أحابيل المنى الكاذبة؛ غير أنهما جدّا وكدّا، وحفرا الأخاديد في الصّوّان الصّلْد، وأعمقا في طلب البغية، ولم يلتفتا لمشغلة، ولا صدّتهما عن المطلوب مُعضلة.

طوَيا مراحل الشباب بعد أن كانا غِلْمةً أيْفاعا؛ فما بلغا ساحل العمر حتى تمكّنا مما أمّلا، ونالا ما طلبا؛ لكنهما أدركا الطِّلبة بالفعل لا بالادّعاء، ووصلا بالجدّ لا بالارتخاء!

هل بلغك خبر الروائيّ الأمريكيّ «هيرمان ملفيل» الذي عاش حياة مليئة بالشقاء والتعب والرحلة وراء الرزق، ولم يهنأ له بال في صباه، ولا في مَيْعة شبابه، ولم تسلم كهولته من الوعثاء والنصَب!

لقد عاش في القرن التاسع عشر القريب منّا، وكان متنقّلا في العمل على مراكب بحْرية؛ لا يشعر الكائن فيها بغير الغربة، ولوعة الفقد، ودوام التعب، وحيرة المحيطات، وكان يشغل فضول وقته بالكتابة أحيانا، ولم تُيْئسه حاله، ولا نخر الهمّ موهبته، بل على العكس من ذلك أذكاها ونماها، وفجّر طاقتها.

ولم يزل على تلك الحال منكودا؛ لا يكاد يقوم حتى يقعد؛ لكنه أبدا ما وهَن ولا استسلم، بل كان يحتال في بلوغ مآربه، ويتطلب الذرائع في الوصول إلى بغيته، ولك أن تتخيَّلَه وهو يرْسُف في قيده حين أُسِر في جزيرة نائية، وقد تساقط من الإعياء؛ لا تُقلّه رجلاه، ولا يحتمله جسده، وذلك بعد أن أبحر مدة عام ونصف عام في المحيط الهادي مع جماعة من أصحابه؛ حين هاجمهم حوتٌ أبيض ضخم؛ فدمّر مركبهم وغَارَ في قاع المحيط، وتشرّد صاحبنا ومن معه؛ فما نجا منهم إلا قلّة؛ ركبوا قوارب صغيرة بائسة! ولا تَسَل عما جرى لهم من الخوف والجَهد والبلاء وهُم في لُجّة البحر؛ تتقاذفهم أمواجه، ولا زادَ لهم من طعام ولا ماء ولا لحاف، والليلُ والبرد والجوع والهم والتعب والخوف؛ جنودٌ لا تكفّ عن الملاحقة!

ومع تلك الغُمة الشديدة أَسَرّ في نفسه حوادث هذه الحادثة، وقيّدها في سجل ذاكرته، وطوى عليها قلبه وعقله، وراح يرسم روايته في مخيلته، ويضيف إليها ما يستعذبه من مادة مشوّقة؛ لا يُعطاها إلا مَن امتلأت نفسه بالألق الأدبي الثريّ، وكان موقنا بأنه بالغٌ لا محالة مقصوده.. ثم تنجلي محنته، ويُفكّ إساره، فيكتب بكفٍّ شثْنَةٍ وأصابع مرتعشة كتابةَ المتهمّم المتقن! ولكن كتابته لا تبلغ شيئا من المجد الذي أمّله وتاق إليه، فيستجمع ذات قلبه وعقله؛ ويكتب مرة أخرى؛ فلا يكون لها من الصِّيت إلا ما كان لسالفتها، والعجب أن صاحبنا لا يرى محاولته عارا، ولا معاودة الكتابة عيبا، بل يراها قَدَره ومُتعتَه وقوةَ نفسه؛ يدور في خلَده –ليلا ونهارا– أن تميّزه ونجاحه أمْرٌ لا مَحيد عنه، ولا مناص منه!

وصحيحٌ أنه حُبّبت إليه الوحدة؛ فآثر الانعزال والتفرّد، والأنس بالوحشة، إلا أنه أبدا ما راودته فكرة الإياس ورمي المنشفة! حتى لقد مرّ بظروف مأساوية وآلامٍ شخصية وأمراض عصيّة؛ إذ أصيب بحُمّى شديدة أفقدته قواه، وضعُف بصره جدّا حتى كاد يَعْمَى؛ ومع ذلك كتب في هذه الأحوال المنهكة رائعته (الحوت الأبيض)، ولم ير من الفرحة بها والتألّق بسببها ما كان يرجو! فعاش مغمورا، وشاخ في وِشاحِ الستر؛ لا يكاد يُعْرَف؛ إلى أن ابتسم له الدّهر بعد موته، وناغاه الحظّ وهو في قبره، وانفتح له الباب بعد طول وقوف؛ فصارت تلك القصة المكتوبة معزوفةَ المجالس، وعطر العرائس، ونظرةٌ عجلى في كلام كبار النقاد الأدباء يكشف لك أيّ كنز ترك المسكين خلفه! ولستُ قاصّاً عليك شيئا من نَبئها؛ فتطَلّبْه أنت إذا شئت!

أفَترى بعد هذا أن العثرة مرةً ومرتين قاضيةٌ عليك، وأن المحاولات المتكررة سُبّة ينحطّ لها جبينُك، ومَعرّةٌ تشينُك!.. وأنت تسمع خبر رجل لا مقصد له من وراء جهده إلا الدنيا وحسب؛ فيجدّ ويتعب، ويفشل مرات فلا يملّ، ثم يعيد بعد كل عثرة ولا يكلّ، ومع ذلك فلم تتفتّح له الأبواب إلا بعد رحيله، ولم يرها أمامه إلا مُوصدة موحِشة!

أفَتظنّنا نتذاكر خبره اليوم، وقد مضى على موته أكثر من مائة عام؛ لو كان تعيسا من التعساء؛ عثَر مرة أو مرتين؛ فيئِس وانجفل عن المحاولة، ومات بئيسا حبيس نفسه!؟

ولنترك خبر الكُتّاب والأدباء والعلماء جانبا، ولنلْقِ الضوء

على صنف آخر من الجادّين الذين مرّغت الأيام أنوفهم، وأناخ العنت بساحتهم، وتحمّلوا من الشدائد رهَقا عظيما؛ فما ذلّوا ولا استخذَوْا، ولا بذلوا المقادة لغير ما أمّلوا..

قرأتَ بلا شك خبر سقوط الأمويين سنة ١٣٢هـ، وكيف دارت الدائرة عليهم؛ إذ قام العباسيون على أنقاضهم قيامًا دمويًا رهيبًا؛ حيث انشغلوا بالقضاء على خلفاء الأمس؛ فقتلوا كلَّ مَن كان مؤهّلا منهم لتولّي الخلافة وإعادة أمجادها؛ فقضوا على الأمراء وأبنائهم وأحفادهم، إلا قلّة ممّن لم تصل إليهم سيوفهم، وكان من هؤلاء الناجين عبد الرحمن بن معاوية حفيدُ هشام بن عبد الملك، وكان قد نشأ في بيت الخلافة، وسمع من عمّ أبيه مسلمة بن عبد الملك غير مرة أنه يراه موضعًا للنجابة والذكاء، وأهلاً للولاية والحكم؛ فتركتْ هذه الشهادة من الفاتح الكبير في نفس الغلام الحدث أثرًا محفورا في الواعية لا يُنسى؛ ظهرت ثماره فيما بعد!

ونتيجة للعسف الذي عاشه الشابّ ورآه بأم عينه؛ هرب من مكانه ومُستقرّه في قِنّسرين بالشام إلى بعض القرى في العراق ناحية الفرات؛ أملاً في أن ينجو من خصومه العباسيين، ولكن المطاردة المحمومة بلغتْه في مكانه، وأحاطت به الرايات السُّود (زيّ العباسيين)، وكان معه أخ له صغير؛ فانطلق به نحو الفرات؛ فما نشَبا أن أدركتهما خيول العباسيين؛ فألقيا بنفسيهما في النهر، وأخذا يسبحان.

أما أخوه؛ فعجز عن المواصلة، وآثر القتل على يد أعدائه، وأما عبدالرحمن فعبر النهر سباحة، وهو مغموم لا يستطيع الكلام أو التفكير من شدّة الحزن على أخيه الصغير ابن الثلاث عشرة سنة، ثم اتّجه وسنُّه (١٩ عاما) إلى بلاد المغرب عند أخواله الأمازيغ، في قصة هروب طويلة وعجيبة؛ عَبَر فيها الشام ومصر، وظلَّ مختبئا ببَرْقة في ليبيا خمس سنين؛ إلى أن هدأ عنه الطلب، وخفّت دونه المطاردة، ثم خرج إلى القيروان بتونس، وبعدها استخفى في الجزائر فترةً؛ تحت حماية ملوك بني رستم، وعلى بعد (٦٠٠٠ كلم) شَعَر هذا البطل المغامر بشيء من الأمان؛ فكان حقًّا صقرَ قريش؛ اسما ومعنى..

من سنة ١٣٢هـ حتى سنة ١٣٦هـ وهي رحلة هروبه؛ كان قد بلغ الداخلُ من العمر ثلاثا وعشرين سنة؛ عركته الحياة عرْكا، ومحنته البلايا مَحْنا.. ثم بدأ يفكر في أمره بجدٍّ وحزم؛ أيظهر فيُقتل؛ أم يظلّ مختبئا؟ وإلى متى؟! فهو في جميع البلاد مطلوب الرأس؛ حيا وميتا؛ فهل يُعقل بقاؤه مختبئًا طوال حياته، وكان شريف الطبع، عالي الهمة، سليلَ أُباةٍ شُمّ الأنوف؟! وهل يليق به التخفّي وبنو عمومته من الأمويين في كل مكان يُقتلون ويُذَبحون؟! أم الأجدى به –وهو الشديد الحُميّا– أن يقيم للأمويين مجدًا من جديد؟!

وهنا خطرت بباله عزْمة مُضرية؛ شدّ عليها حبالَ قلبه؛ ألا وهي أن يدخل الأندلس ويقيم بها دولة تعيد له المجد الغابر، وقد كانت أصلحَ البلاد لاستقباله، وذلك لأنها أبعد عن العباسيين، ولأنّها ملتهبةٌ بسبب كثرة الثورات، وفي جوٍّ كهذا يمكنه الاستخفاء عن العيون ولو في بداية أمره.

وكذلك كان.. فقد تجاوز كل المحن والعوائق والمخاوف التي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم، وجَدّ في تحقيق عزمه؛ فتمّ له ما أراد، وأقام للإسلام دولة في الأندلس على أنقاض دول وإمارات؛ ما تزال محفوظة المآثر إلى اليوم!

ولك أن تمتلئ فخْرا برجل مثله؛ حين تقرأ خبره كاملا في كتاب «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري التلمساني في المجلد الثالث منه! وقارنْ نفسك به، وتخيّل لو تهيأ لك من الأعداء والأجواء واللأواء ما تهيأ له، وكنتَ وحيدا شريدا طريدا؛ أكنت تفكّر فكرته، وتعزم عزمته؟

وبعيدا عن أخبار التاريخ الغابر؛ لنكشف السُّجُف عن نجاحات بعض المشاهير، لنَرَ: هل سِيق إليهم النجاح على سجادة؛ فتسلّموه وهم في غطيط نوم، أم أنهم دفعوا المهر دَمًا وعَرَقًا، وما طعموا للراحة ذَوَاقا، ولا عرفوا للدَّعة طعْما؟ لنتأمل: هل تسلموا صك

مايكل جوردن

والت ديزني

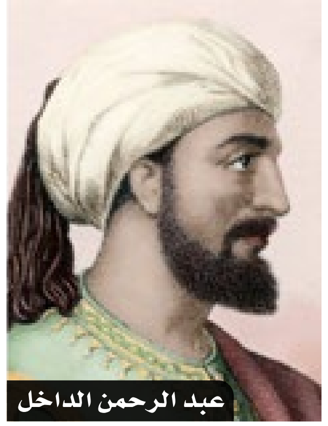
عبد الرحمن الداخل

هيرمان ملفيل

نجاحهم مُقدّما قبل البذل والتضحية، أم بذلوا الثمن مضاعفا قبل الحصول على الـمُثْمَن، وما أعزّه!؟

وإني لأراك مثلي لا يربطك بعالَم الكرة سبب ولا نسب، ولا يستهويك فيها ما يهواه عُشاقها، ولكن لا بأس من أخذ العبرة! هل سمعت بلاعب كرة السلة (مايكل جوردن)؟ لا عليك! إنه الأسطورة في لعبته، والرقم الذي يصعب تكراره في مجاله، وجميع محبّيه يظنونه وُلد موهوبا، وعاش متفنّنا، وانتهى أسطورة! وما كان كذلك! بل إنه حفر للمجد بأظافره، وسعى نحو القمة بقلب صلب لا يُقرّ بالفشل، فقد اعترف بلسانه أن سبب نجاحه هو فشلُه في الحياة مرارا؛ لكنه الفشل الذي يدفع نحو التحدّي، والإخفاقُ الذي يولّد الثأر!

كما اعترف بِشُموخٍ أنه أضاع خلال مسيرته الكروية آلاف الرمْيات، وخسر مئات المباريات!! لكن المعجبين إنما يتبدّى لهم الجانب الـمُشْرق فقط! يظنون حصوله على لقب –أفضل لاعب كرة سلة في التاريخ– هبةً ومَحْض صُدفة!

في إحدى زياراتي صحبةَ أطفالي لحدائق ديزني في باريس، أثارت حفيظتي الأموالُ التي دفعتها في مقابل التذاكر التي دخلنا بها، وكانت فيما يبدو لي غالية الثمن! وكنت طيلة اليوم ينتابني سؤال داخلي: مَن هذا العبقريّ الذي استطاع أن يستلّ مني ومن الملايين عبر العالم مبالغ معتبرة؛ لتكون في جيبه، لقاءَ متعة تافهة لا تلبث أن تنتهي بعد خروجنا من باب حديقة الألعاب!؟

فلما خلوتُ في مكتبي؛ قرأتُ عن «والت ديزني» مالك الشركة، الذي نَحَت نجاحه التجاريّ نَحْتا، وعانى في سبيل الوصول إلى مُراده مراحلَ من الإعياء والتعب والإفلاس وسائر أوصاف الحظ التعيس! لقد عمل صحفيا، ورسّاما، ومنتج أفلام، وأعمالا أخرى عديدة، تَتَوّج في أكثرها بالفشل والانكسار والخيبة؛ لكنّ الفرق بينه وبين القَعَدة الخاملين: أنه مُصرٌّ بعد كلّ فشل على النهوض، والانطلاق من جديد نحو هدفه؛ فالكبوة عنده زادٌ في مَهْيع النجاح، ووقودٌ في رحلة الصعود نحو القمة! هذا وهو لا أَرب له –فيما رَقِي الصعْبَ لأجله– إلا حظٌّ دنيوي تافه مهما عظُم!

وقد أرسل إليّ صديقٌ في هذه الأثناء قصيدة صفي الدين الحلي؛ فرأيت اقتطاف طليعتها مناسبا لما نحن بصدد الحديث عنه، وتحريكِ همتك نحوه:

لا يَمتَطي الـمَجْدَ مَن لَم يَركَبِ الخَطَرا
وَلا يَنالُ العُلى مَن قَدَّمَ الحَذَرا
وَمَن أَرادَ العُلى عَفواً بِلا تَعَبٍ
قَضى، وَلَم يَقضِ مِن إِدراكِها وَطَرا

فهذا يا صديقي.. حديثُ الروح إليك؛ خذه على عِلاته، وتدبّر علاماته؛ فإنْ وقَر في صدرك، وتغلغل في حُشاشة روحك، واعتقدتَ بصدقٍ نصيحتَه وشفقته؛ فدع عنك بكاء العاثرين، ولهفة النادمين، ولَمْلِمْ ما بقي من جهدك، وامض راشدا إلى حيث الكفاح الـمُرّ، والجهاد المستمرّ، وتيقّنْ فكرةَ هذه الكلمة وسِحْرها «شَرَف المحاولة»، وثق أن سبيلك ممهّدة مأمونة الغوائل، يتمنّى سلوكها الأواخر والأوائل، وكرّر بيقين: (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع اللغة العربية بالشارقة
ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

مركز اللسان العربي

FREE Arabic Courses

for **Non-Arabic Speakers**
at Arabic Language Academy

CONTACT US

00971 6 516 0400 \ 00971 6 516 0401
Sharjah ,Arabic Language Academy
info@alashj.ae R.abujuhain@alashj.ae
www.alashj.ae

عقابُ من أخطأ في الإعراب

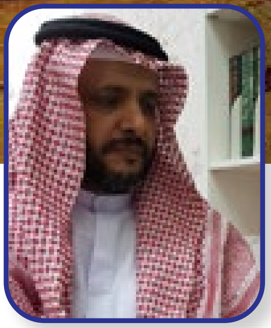

د. أحمد عبدالله المغربي
كبير باحثين بدائرة الشؤون الإسلامية بدبي

الإعرابُ علمٌ لايحسنه كل أحد، ولا يَمْهَر فيه إلا القلّة من الناس، وهو في الأصل ملكة لسانيّة مكتسبة من البيئة، ولذلك كانت العرب تتحدّث العربيّة سليمة خالية من الخطأ واللحن، بحكم الفطرة والسليقة والبيئة، يشهد لذلك قول شاعرهم:

ولست بنحويٍّ يلوك لسانه ولكن سليقيٍّ أقول فأعربُ

وكانت العرب تتفاخر بفصاحة اللسان وبلاغة البيان، ولم يكونوا يتفاخرون بالإعراب، لأنه كلامهم الذي نشؤوا عليه، وما تفاخر به الشاعر آنفاً إلا بعد ظهور اللحن، وتقعيد القواعد النحوية.

وقد ارتفعت مكانة العربية في الجاهلية بعامل التّنافس الأدبي بين الشعراء، ثم لما بُعث سيّدُنا محمدٌ ﷺ نزل الوحي بلغة عربية عالية فصيحة بليغة، كما قال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٢٨] فصار القرآن الكريم داعماً للعربيّة وحصناً لها ودليلاً على رفعة شأنها وعظم مكانتها، بل قد أضفى عليها الوحيُ صفةَ القداسة، حيث انتقلتْ من كونها لغة قومية إلى كونها لغة دينية، فزادها ذلك حصانة على حصانة.

ولما صارتْ العربيّة بهذه المكانة من التعظيم والتقديس كان من الطبيعي أن يَعظُمَ أمر اللحن فيها، ويشنّعَ على المخطئ في إعرابها، ومن هنا وقف المجتمع كله وقفة جادّة ضدّ كل من يلحن ، فقد روتْ لنا كتب السنة والتأريخ والأدب وقفاتٍ كثيرةً لايسمح المقام ببسطها والإطناب فيها، فالمقام هنا مقام إيجاز، ولذا سأقتصر على ذكر بعض المواقف التي عاقب فيها المجتمع من أخطأ في الإعراب.

وهنا يجب أنْ أُذكّرَ بأن من المسلّماتِ في علم النّفس، أن الإيذاء الجسدي أو النفسي يعد عقوبة، فالنقد اللاذع، أو النقد المُعْلَن، أو الإعراض بالوجه، أو النظر بشزر، أو رفع الصوت، أو نحو ذلك من المؤلمات النفسية ، فإنها تندرج في قائمة العقوبات.

وكان أول ما وقفنا عليه أنّ رجلاً في عصر النبوة لحن بحضرة النبي – صلى الله عليه وسلم – فأمر صلى الله عليه وسلم بإصلاح خطئه، ففي المستدرك [٢/ ٤٧٧]، من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أنه قال : سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا قَرَأَ فَلَحَنَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْشِدُوا أَخَاكُمْ»، وفي بعض كتب الأدب زيادة : « فقد ضلّ » – ولم أقف لهذه الزيادة على أصل في كتب السنة ولعل من أدرجها في الحديث أدرجها للتوضيح والشرح، يريد أن الإرشاد يكون بعد الخطأ، وكون الحديث يوحي بذلك فإنه نوع من أنواع التأديب بالتوجيه.

وقد تكون العقوبة جسدية، ففي عصر الخلافة حدثتْ مواقف كثيرة، منها: ما أثر عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ أحد ولاته كتب إليه كتابا فلحن فيه، فكتب إليه عُمَر : أن قنّع كاتبك سوطا.

وفي موقف آخر وجد عمر أبناءه يلحنون فضربهم على اللحن.

وفي موقف ثالث لعمر أيضاً، أنّه وجد في كتاب عامل له لحناً، فأحضره وضربه درة واحدة.

ومثل أبيه كان عبدالله بن عمر يضرب أبناءه على اللحن «ومن يشابه أبه فما ظلم».

وقد تكون العقوبة نفسية، كإظهار التعجب والاستغراب، كتعجب أبي الأسود الدُّؤلي عندما رأى أعدالاً للتجار مكتوباً عليها: (لأبو فلان!!)، فقال: سبحان الله ، يلحنون ويربحون.

وهكذا استمر نقد المجتمع لكل من لحن في الإعراب، ولم ينج من النقد أحد حتى أبناء الخلفاء، فهذا (يزيد بن عبد الملك) لحن ذات مرة وهو بين يدي مؤدبه،

فقال مؤدبه: لم لحنت؟

فقال: الجواد يعثر،

فقال المؤدب: إي والله ويضرب حتى يستقيم.

فهكذا كان الأمر في العصور الماضية.

وقد تكون العقوبة النفسية بالزجر بلفظ شديد، كزجر (ابن بجير) للناعي القائل: مات بجيراً (بنصب بجير وهو فاعل)، فقال ابن بجير: لحنت لا أم لك.

وقد تكون العقوبة بالصياح عليه على الملأ (كقصة سيبويه) في سبب طلبه للنحو، فقد كان يقرأ الحديث الشريف في مجلس شيخه (حماد بن سلمة)، فلحن وهو يقرأ قوله ﷺ:«ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء »، فقرأ سيبويه : ليس أبو الدرداء،

فصاح به حماد : لحنت يا سيبويه، إنما هذا استثناء.

فقال سيبويه : والله لأطلبن علما لا يلحنني معه أحد .

وقد تكون العقوبة بالمفارقة (كقصة الكسائي) في سبب طلبه للنحو ، فقد تعب ذات يوم، ثم جاء إلى قوم من الهباريين وقد أعيا، فقال لهم: «قد عييت».

فقالوا له: أتجالسنا وأنت تلحن؟

فقال: كيف لحنت؟

قالوا: إن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر ، فقل : «عَيِيت» مخففاً، وإن كنت أردت من التعب ، فقل : «أعييت».

فأنف من هذه الكلمة، ثم قام من فوره ذلك فسأل من يعلم النحو؟ فأرشدوه إلى (معاذِ الهراء)، فلزمه حتى أنفد ما عنده، ثم خرج إلى البصرة فلقي (الخليل) وجلس في حلقته، فقال له رجل من الأعراب: تركتَ أسد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحة وجئت إلى البصرة، فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز ونجدٍ وتهامة، فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ، فلم يكن له هم غير البصرة والخليل.

ومن المواقف ما حدث مع (أبي عثمان المازني)، فقد أورد (الراغب الأصفهاني) في كتابه (محاضرات الأدباء)، أن جارية غنّتْ بحضرة الخليفة (الواثق بالله)، بقول الشاعر:

أظلوم إن مصابكم رجلاً
رد السلام تحية ظلم

فاختلف الحاضرون في نصب (رجلاً) ورفعه، وأصرت الجارية على النصب ، وزعمت أنها قرأته على (أبي عثمان المازني) كذلك، فأمر (الواثق) بإشخاصه من البصرة، فلما حضر أوجب النصب، وشرحه بأن (مصابكم) بمعنى (إصابتكم)، و(رجلاً) مفعوله، و(ظلم) الخبر، ولهذا لا يتم المعنى بدونه. قال فأخذ (اليزيدي) في معارضتي ، فقلت له وهو كقولك : (إن ضربك زيدا ظلم)، فاستحسنه (الواثق) وأمر له بألف دينار. أقول: فلولا أن (أبا عثمان المازني) صوّب قول الجارية لعوقبتْ على اللحن.

وقد تكون العقوبة بعدم التّرحيب به إن كان ضيفاً، أوبعدم فتح الباب له، فقد أورد (ياقوت) في معجمه، أنّ رجلاً قرع على (الحسن البصري) الباب، وقال: يا أبو سعيد – برفع المنادى المضاف – فلم يجبه، فقال: يا أبي سعيد – بالجر – فقال الحسن: قل الثالثة وادخل.

وقد تكون العقوبة بالتهكم، كتهكم (الحسن البصريّ) برجل ناداه: يا أبو سعيد! فقال الحسن: كسب الدّوانيق شغلك أن تقول: يا أبا سعيد!

وقد يلحن المتكلم، فيدرك أنه لحن ويرى لحنه ذنباً، فيبادر بالاستغفار، كما حدث (لأبي أيوب السجستاني)، فقد حكى (الخليل بن أحمد) أنه سمع (أبا أيوب السجستاني) يحدث بحديث فلحن فيه، فقال: أستغفر الله ، يعني : أنه عدّ اللحن ذنباً.

فهذه مواقف كلها دالة على مكانة العربية وعلى مدى الغيرة عليها، وعلى عدم تساهل أسلافنا مع من لحن فيها. والله أعلم .

ويلٌ للشعر من راوية السّوء

د. محمد فتحي الحريري
باحث لغوى وكاتب

«ويل للشعر من راوية السوء» أو «ويل للشاعر... » جملة قالتها العرب قديما[1] وتمثل قاعدة هامة من أدبياتهم في فهم الشعر، ووجوب الأمانة ليس في نقل الرواية عن الشعراء وحسب، بله وجوب الأمانة في فهم الصورة والخيال الشعري، وبمعنى أوضح فإنها تدعو إلى فهم القصيدة رواية ودراية أو مبنى ومعنى...

ولعل أبرز نقطة نقدية لاتزال تشغل بال الشعراء في شرح الصورة الشعرية وإيصالها للقارئ إنما هي الخيال.

فالصورة من أقوى وسائل التعبير عن الفكر والشعور والأحاسيس، ولذلك فإن ملامحها الفنية يجب أن تتسم بالإبداع، فتكون الصورة إيمائية بعيدة المدى الإيحائي وليست مباشرة، ويجب أن تكون مبتكرة غير تقليدية، (غير مسبوقة غالبا)، كما يتوقع من الصورة الشعرية أن تكون أجزاؤها متكاملة من حيث الأثر النفسي لهذه الأجزاء في نفس المتلقي، أي أن العلاقة بين عناصرها موجودة بشكل إيمائي وليست قائمة على مشاكلة حسية (لونا ورائحة وتجسيما) فالعاشق الذي يصف وجنتي حبيبته بالورد الأحمر، أتى بصورة ممجوجة مبتذلة مكررة تقليدية. بينما لا نزال نلمس الجدة والابتكار والإيحاء في تصويرات ابن الرومي وصور البحتري رغم اختلاف الأحوال والأمكنة والأزمان. فها هو ابن الرومي يصور ريح الصبا[2]

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه
موسوسا وتنادي الطير إعلانا
ورق تغني على خضر مهدّلة
تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب
والغصن من هزّه عطفيه نشوانا

فلقد حفلت الصورة الشعرية لديه بالحركة واللون والصوت والرائحة (حياة متكاملة) !

ويضيف النقاد لجمال الصورة الشعرية قيدا أدبيا مهما وهو أن تلائم الفكرة والموضوع، وأن تساق في النص الشعري متنوعة، تارة كلية مركبة وتارة جزئية بسيطة، بل يتكلم النقاد أحيانا عن ملائمة الكلمة والحرف والفاصلة للفكرة! ولكن المصيبة الكبرى التي تهز الشاعر والناقد والأديب وذا الذائقة الأدبية هي عدم فهم النص ودلالات الصور فيه، مما يقلب الفكرة رأسا على عقب، بل ويُذهب ألق الصورة الشعرية وقيمة خيال الشاعر وعاطفته وصدق إحساسه كله.

أي نسف الصورة الشعرية بالكامل

منذ القدم وأنا أجمع بعض الهنات للنقاد وشارحي ومدرسي النقد الشعري ليس ولعا بجمع الهنات، وإنما للتحذير منها... وسوف أورد بعضا من ذلك:

أبدع الشاعر إسماعيل صبري رحمه الله في إعطائنا مثالا عن الجناس في الشعر من خلال قوله[2]:

طرقت الباب حتى كلّ متني
فلمّا كلّ متني كلّمتني
وقالت لي: أيا إسماعيل صبراً
فقلت: أيا اسما، عيل صبري

إبداع وتصوير رائع، لكن هذه الروعة يخدشها راوية السوء في تناوله للأبيات فيقول: طرقت الباب حتى تعبت يمناي من شدّة الطرق واستمراره، ولما تعبت من الطرق أجابتني..... الخ.

نقول له: وأي بلادة تلك التي أباحت لرجل أن يديم الطرق على الباب حتى تتعب يمناه من الطرق؟! نخشى على الباب من الخلع أو يده من العطب !!

أي ذوق وتهذيب يتمتع به هذا العاشق الطفيلي على مدرسة الحب والتهذيب؟!

المعنى الذي أراده الشاعر ببساطة هو:

طرقت الباب وأقمت أنتظر الرد بجانب الباب حتى كلّ متني (ظهري) والمتنان لا يتعبان من الطرق بل يتعبان من الانتظار،

(١) غالب النقاد ينسبها للحطيئة الشاعر.والراوية هو الراوي اسم فاعل من الراوية وهو عند المحدثين ناقل الحديث بالإسناد المتصل الجمع (رواة) و(راوون) وإضافة التاء المربوطة للراوية هي للمبالغة وليس للتأنيث.. راوية الحديث حامله وناقله المكثر ، وهناك مشاكلة بين الراوية والروّي والرواء.
وتقول العرب: رَجُلٌ راوية: كثير الرِّواية ونقل الأحاديث والشعر (زيدت التَّاء للمبالغة) .

(٢) ديوان ابن الرومي

(٢) ديوان إسماعيل صبري

القيام منتظرا، لنرجع إلى قواميس اللغة ولنبحث في معنى المتن [٤] وتهون المسألة!!

أجاد ابن المعتز في وصفه للهلال فقال:

انظر إليه كزورق من فضةٍ

قد أثقلته حمولةٌ من عنبر

ويأتي راوية السوء فيقول [٥]:

لا ينقل لنا ابن المعتز شعوراً صادقا بجمال الهلال لأنَّ العلاقة التي رسمها بين الهلال وزورق الفضة علاقة في الشكل واللون **phorm regation** – وهذا خيال ضعيف. والواقع أن صاحبنا ذو خيال ضعيف، بل إن قفاه لعريض، فما هكذا تورد الإبل ولا هكذا تحلل الصور الشعرية وتنقد يا أخانا !!

ابن المعتز قد أبدع، صوّر الهلال يتهادى، يمشي ببطء شديد وكأنه زورق مصنوع من الفضة (لون الهلال)، وهنا علاقة اللون والشكل بين الهلال والزورق، وهي التي توقف عندها الناقد وأهمل الغوص فيما وراءها، لكن لماذا كان يتهادى في أفق السماء؟! إنه محمَّل ببضاعة غير عادية، حمولة من عنبر، والعنبر ذو رائحة عطرية طبيعية كان يألفها العربي ويتعطر بها في حياته اليومية، والعنبر رمز لكل خبر طيب، والهلال أول الشهر يعني وجود موعد، والعرب كانت مواعيدهم حسب الأهلّة، هكذا كان التأريخ والوعد لديهم كما لا يخفى، والصورة الشعريّة:

هناك هلال يتهادى كأنه زورق فضي يسير متباطئا بسبب ثقل حمولته من العطور الطيبة، فالهلال ينبئ عن بشائر الخير ويحمل الأخبار السعيدة السارّة... فكيف يقول راوية السوء أن الخيال ضعيف لدى ابن المعتز؟! إن الخيال خصب واسع حقا، فلماذا لم يجعل حمولة الزورق من الطماطم ؟! ولقد ذكّرني هذا الناقد بآخر سمع قصيدة للوالد سماحة المفتي محمد راشد الحريري، رحمه الله يصف صديق السوء بأنه:

«مرهقٌ أثقلُ من نصف الرحى»

فقال أن الخيال ضعيف، فلو وصفه بأنه أثقل من «جرن الرحى» لكان أبلغ! قلت له آنذاك: طاشت سهامك يا أخي، فنصف الرحى أثقل من حجر الرحى كاملا...

إن حجر الرحى إذا لم تستطع حمله تستطيع دحرجته، أما نصف الرحى فلا تقدر أن تحمله ولا تقدر أن تدحرجه، فبهت الناقد !

نعم انّ خصوبة الخيال تثري الصورة الشعريّة ...

الأعشى يصف محبوبته [٦]:

ودّع هريــرة إن الركــب مــرتـحـل

وهل تطيق وداعــا أيهـــا الرجل؟!

غرّاء فرعاء مصقـول عــوارضـهــا

تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

فهو يصف فتاته (هريرة) بأنها غـرّاء بلجاء الوجه والجبين، فرعاء طويلة الشعـر مصقول عوارضها، تمشي بحذر....

يقول راوية السوء في شرح (مصقول عوارضها) أي أن أسنانها الأمامية مسنونة حادّة قد صقلت... نقَلَنا سيادتُه من صورةٍ شعرية عن الأنوثة الكاملة الرائعة بأبهى معانيها الغزلية إلى صورة الافتراس، وإذا بهريرة فتاة مكشرة تكاد تفتك بمن يمرُّ بها (مصقول عوارضها) .... فهل امتدح الشاعر افتراسها؟!!

وقد أشكل الأمر على راوية السوء هنا فخلط بين عارضة وعارضة.. العوارض جمع مفرده (عارضة) وترد في لغة العرب بمعنى السن التي في عرض الفم ومنه قول كعب:

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت

وترد أيضا بمعنى ما يستقبلك من الشيء (ما يعترضك منه) كعارضة السقف والباب والناحية، وتطلق أيضا على ما يبدو من الضحك والبيان واللسن، والمقصود هنا بقول الأعشى (مصقول عوارضها) أي أن جانبي وجهها قد أميط عنهما الأذى، فهما يبدوان مصقولين، ناعمين جميلين، وهذا من دواعي الجمال والأنوثة فأين هذه الصورة من تلك؟

هنا تكتمل صورة الأنوثة أكثر، وهناك تُخْدَش !

فالسياق هو الذي يحدد المعنى المقصـــود إذا تزاحمت الألفـــاظ المشتركـــة، والمعاني على لفظ.

صاحب اليتيمة (وهي من عيون الشعر العربي) دوقلة أو العكوك أو علي بن الجهم، لا يهم، لكن المهم أن الشاعر قد أبدع في وصف محبوبته من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها بدءاً من قوله (بعد المقدمة الطللية ولوازمها):

فالوجه مثل الصبح مبيض

والشَّعر مثل الليل مسودّ

ضدان لما استجمعا حسنا

والضد يظهر حسنه الضدُّ

إلى قوله:

والكعبُ أدرم ما يبيـن لـه

من نعمةٍ وبضاضةٍ حَـدُّ [٧]

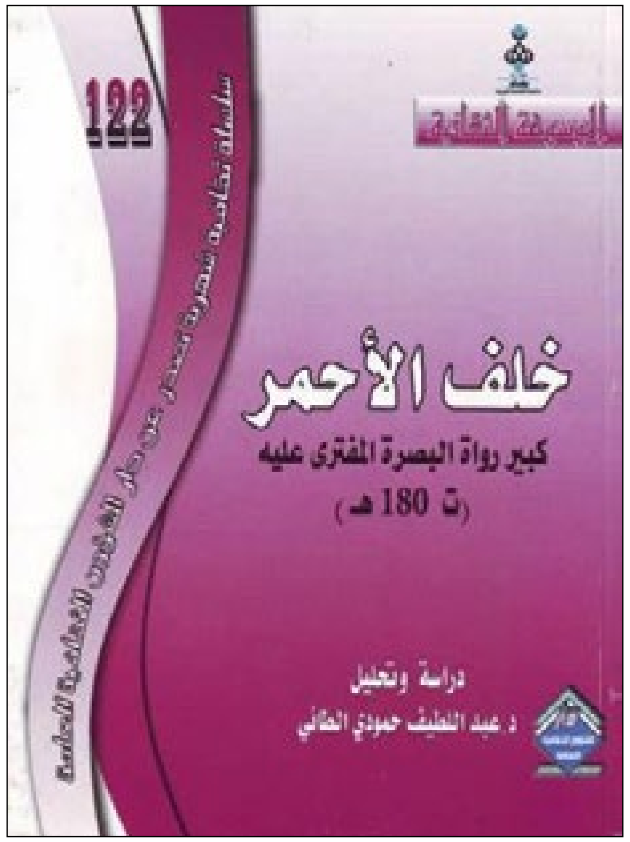

فكعبها خفيّ المعالم والحدود بسبب ليونتها ونعومتها، فهي من أهل نعمة وثراء، لكن راوية السوء شوّه الصورة الشعرية، وراوية السوء هنا أستاذ دعاني لحضور محاضرته الأدبية لأنها تهمني –حسب تعبيره– وتقع في دائرة اهتمامي، وكانت القاصمة في شرحه للكعب، فخلط بين الكعب والعقب، قال إن كعبها غير واضح بسبب السمن والبدانة، وأشار إلى عقبه.

كنا في صورة جمالية رائعة، فأفسدها أستاذنا العتيد بمرض خبيث بلغمي سيء، فهي تبدو كأنها مصابة بداء الفيل.

الكعب نتوء بارز في الجانب الأنسي من أسفل الساق، والعقب مؤخرة القدم وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «ويل للأعقاب من النار» وعيد لمن أهمل غسلهما عند الوضوء... وعدم وضوح العقب عيب، أما عدم وضوح الكعب فهو صفة جمالية للأنثى، فقلت يومها «ويل لمن يخلط بين الكعاب والأعقاب» !

وكُثُرٌ أولئك الذين يخلطون بين الأكفاء والأكفّاء وبين الكوع

---

(٤) متنا الظهر ما اكتنفا الصلب عن يمينه ويساره من عصب ولحم، فبهما قوام الجسد

(٥) كتاب التطبيقات اللغوية للصف الثاني عشر/ وزارة التربية والتعليم/ الإمارات ص ١٢٧

(٦) ديوان الأعشى وينظر لسان العرب ومحيط المحيط مادة / (ع ر ض)

(٧) ديوان علي بن الجهم وينظر القاموس المحيط ومحيط المحيط مادة / (ع ق ب) و (ك ع ب)

والبوع وبين وبين.... (وتطول القائمة) ...

وكم كان شعراؤنا على دراية ودقة بالغة في تصوير أحاسيسهم ومشاعرهم وائتمان الرواة عليها، فلقد أوفد ابن هرمة راويته إلى امرأة يحبها، وسأله ماذا أنت قائل؟ فأنشده:

بالله ربك إن دخلت فقل لها: هذا ابنُ هَرْمةَ قائما بالباب

فقال له: ويحك، ماكذا أقول، أكنت أتصدّق؟! أي أتسول فقال:

بالله ربك إن دخلت فقل لها   هذا ابن هرمة قاعدا بالباب

فقال له: ولا كذا قلت، أكنت أبول عند بابها؟! فقال الراوية: ماذا أقول؟ فقال له ابن هرمة، قل:

هذا ابن هرمة واقفاً بالباب

وليتك علمت مابين هذين من قدر اللفظ والمعنى(٨) أما اليوم فقد عدمنا كثيراً من الشعراء الذين هم بهذا المستوى من دقة التصوير والبلاغة وانتقاء الكلمات، كما عدمنا في الوقت نفسه الذائقة الشعرية عند كثيرين من المتلقين، ولقد ساهم في إفساد هذه الذائقة بعض من تسنّم هرم الشعر زورا ومينا، وتجرأ على صعود مركبه دون رياضة أو مران أو عتاد فزلّت قدمه، وأعني بهم بعض النقاد وبعض مدرسي الأدب، وقد اكتفيت بالأمثلة التي مرت رغم أنّ في جعبتي كثيراً منها، كلني اقتصرت على أمثلة _للأسف_ تدرّس في جامعاتنا ومدارسنا وهي موجودة في مناهجنا، وبقاؤها يسهم في الإساءة إلى الضاد وإلى الشعر الذي هو ديوان العرب، الشعر الذي قال فيه المصطفى ﷺ: إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر فإنه عربي.

الشعر الذي ضرب المثل بانتشاره وسيرورته:

يرد الماء فلا يزال مداولا

في القوم بين تمثّل وسماع

وراوية الخير:

ومن روائع الرواية ما ساقه راويه على شكل دُعابة، بالرغم من تقوّله، وإليك مثالاً:

(٨) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص / ٨٩

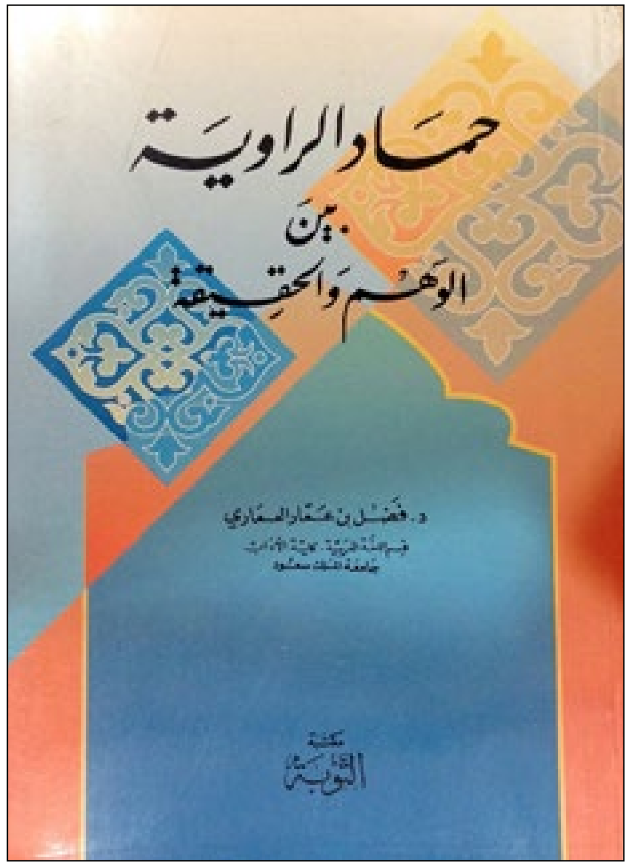

تزوّج الإمامُ ابنُ راهويه أرملةً؛ لأنَّ زوجها المتوفَّى كانت عنده كتبُ الشّافعيّ ،

فقيل له: ما حملك على ذلك ؟

قال: تُنكَح المرأة لكتبها !! في إشارة إلى الحديث الشريف: (تُنكح المرأة لجمالها ومالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين، تربت يداك). فأضاف من لدنه: (وكتبه) لكنه لم يورد ذلك مع الحديث الشريف وإنما أورده كرأيٍ شخصي تورّعـاً !

وحدَّث محمد بن عبد الله الكاتب قال : كنتُ يوماً عند المبرد فأنشدنا :

جِسْمي معي غيرَ أنَّ الروحَ عندكمُ

فالجسمُ في غُربةٍ والروحُ في وطنِ

فلْيَعجبِ الناسُ مني أنَّ لي بَدَنـاً

لا روحَ فيه ولـي روحٌ بلا بَـدنِ

ثم قال : ما أظنُّ أنَّ الشعراءَ قالوا أحسنَ من هذا .

قلت : ولا قول الآخر ؟

قال : هيه ،

قلت : الذي يقول :

فـارقتُكـمْ وحَـيِيتُ بعـدكـم

مـا هكـذا كـان الذي يجـبُ

فـالآنَ ألـقى النـاسَ مُعـتـذراً

مـن أنْ أعيشَ وأنتـمُ غُـيُّـبُ

قال : ولا هذا ،

قلت : ولا قول خالد الكاتب :

روحـانِ لـي؛ روحٌ تضمَّنَهـا

بلـدٌ وأخـرى حـازَهـا بلـدُ

وأظـنُّ غائِبَتي كشاهِـدَتـي

بمكانِها تجـدُ الـذي أجِـدُ

قال : ولا هذا ،

قلت : أنت إذا هَويتَ شيئاً مِلْتَ إليه ولم تعدِلْ إلى غيره ،

قال : لا ، ولكنه الحقُّ ،

فأتيتُ ثعلباً فأخبرتُه ،

فقال ثعلب : ألا أنشدتَه :

غابوا فصارَ الجسمُ من بعدهمْ

ما تـنظرُ العيـنُ لـه فيّـا

بأيِّ وجهٍ أتلقَّاهُـم

إذا رأوني بعدهم حيّـا ؟

يا خَجْلَتي منهم ومن قـولهـم

ما ضرَّكَ الفقْدُ لنا شيّـا

قال : وأتيتُ إبراهيم الحربيّ فأخبرتُه ،

فقال : ألا أنشدتَه :

يا حَيَائي ممَّنْ أحـبُّ إذا مـا

قلتُ بـعد الفـراق إني حَيِيتُ

لو صدقتُ الهوى حبيباً على الصحة لمّا نأى لكنتُ أموتُ

قال : فرجعتُ إلى المبرد، فقال : أستغفرُ الله ، إلّا هذين البيتين ، يعني بيتي إبراهيم(٩).

وإن كان لكل شيء لسان، فإن لسان الدهر هو الشعر عند العرب، لأنه ديوانهم وقيْدُ أخبارهم وبريد أمثالهم، والشعراء أمراء الكلام وزعماء البيان وروّاد اللغة واللسان، شعراء الذوق والذائقة والبلاغة والفصاحة أما شعراء الخلط بين العقب والكعب، وبين العوارض والعارضات وبين الحابل والنابل فأولئك الذين في كل واد يهيمون وصدق فيهم جرول بن أوس الشاعر [الحطيئة] إذ قال:

الشعر صعب وطويل سلّمه

إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلّت به إلى الحضيض قدمه

يريد أن يعربَـه فيعجمه

والشعر لا يسطيعه من يظلمه

ولم يزل من حيث يأتي يخرمه

ولايستطيع الشعر أيضا من يظلمه من باب روايته ، وليس من باب نظمه وقريضه فحسب، وإذ ذاك نقول : ويل من راوية السوء، ليس للشعر والشاعر وحده وإنما للأمة بأسرها !

(٩) معجم الأدباء لياقوت الحموي ج١ ص٤٦

العربية
جذر انتماء ومنبع إشعاع

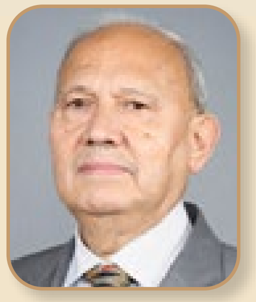

أ. د. عمر مسلم العكش
أستاذ جامعي وباحث أكاديمي

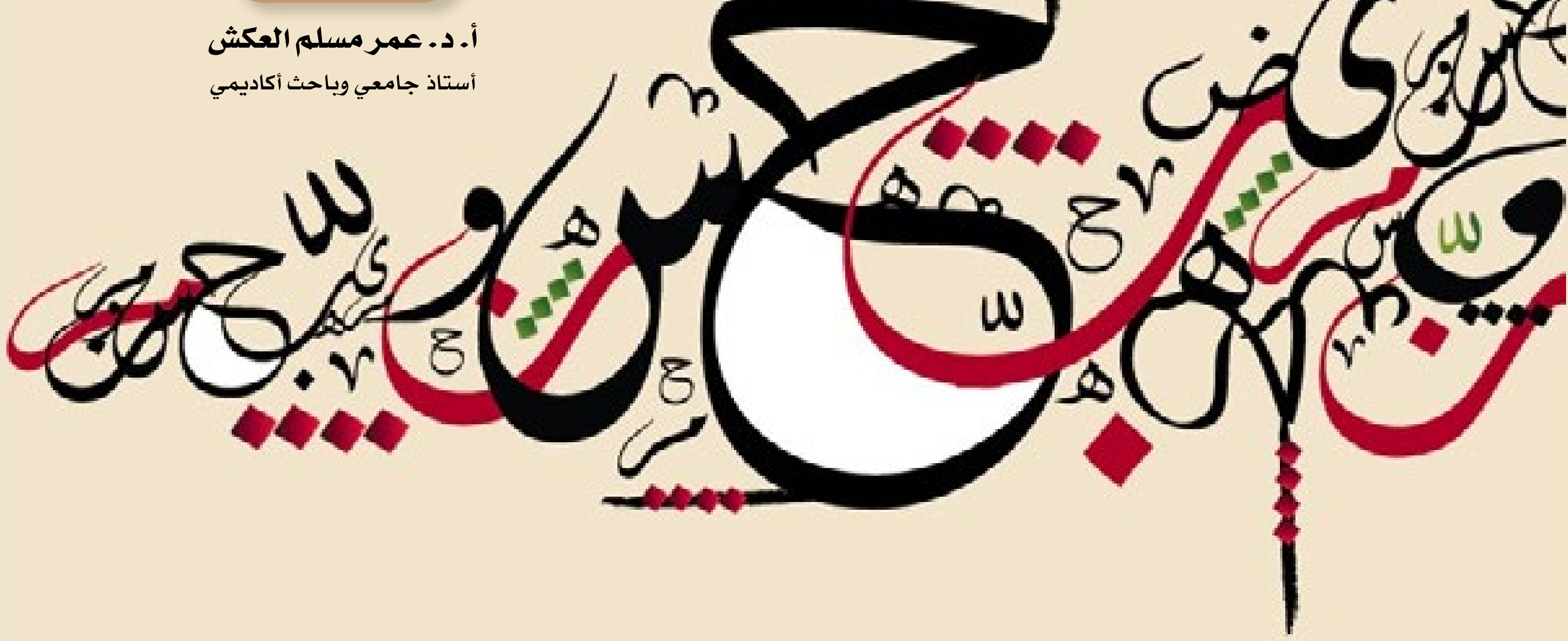

لأي لغة في العالم جذر تشكل وهوية انتماء، جذر انبعثت منه وكان أصل تشكلها، وهوية أرض أو وطن تنتمي إليه، واللغة العربية هي واحدة من أعرق لغات العالم، لا بل هي الأعرق تجذرًا وانتماءً، وهي منبع إشعاع فكري، ومصدر انبعاث معرفي، ولا قيمة لأمة، أي أمة من دون لغة حاضنة لموروثها الفكري، ولإبداعاتها الثقافية والعلمية والأدبية.

وإن اللغة ترتقي بارتقاء أهلها، وتنحط بانحطاط أهلها وضمور دورهم الحضاري، وما من أمة كان لها موضع الصدارة في سلّم حضارات الشعوب والأمم إلا كانت لغتها النبض الذي يهبها الديمومة، ويدفع بها إلى مراتب متقدمة في معارج التطور والازدهار الحضاري.

والحديث عن اللغة العربية يقودنا إلى الحديث عن عناية أبنائها واهتمامهم بها، والبحث فيها كما يقول أحدهم: كان تعلم اللغة وإتقانها ضربًا من ضروب العبادة، يتقرب بها الدارس إلى الله، ويطمع في الأجر والثواب.

مظاهر عناية العرب بلغتهم:

– الأمة العربية أمة لغة أولت لغتها فضل عنايتها وجلَّ اهتمامها، وأنزلت أصحابها وأربابها المحل الأول، في حياتها، فكان الشعراء والخطباء سفراء القوم، فهم الذين يذودون عن مناقبهم، ويحمون أعراضهم وأنسابهم، ويعبرون عن مفاخرهم ومكارمهم، وهم الذين يواجهون أعداءهم ويردون عليهم مثالبهم، وبهم يفاخرون ويباهون، وبلغتهم يحفظون تاريخهم، وهم يحاربون بالسنان طورًا وباللسان أطوارًا، وكان إذا نبغ فيهم شاعر أولموا له، وأطلقت النسوة الزغاريد والأهازيج احتفاءً بمولده، وكان من مظاهر عناية العرب بشعرائهم في العصر الجاهلي أنهم علقوا قصائدهم التي أطلقوا عليها اسم المعلقات على أستار الكعبة تعظيمًا للغتها وتشريفًا لمبناها ومعناها.

وكان من مظاهر عنايتهم بلغتهم ظهور مدارس عنيت بتنقيح الشعر وتجويده ومراجعة أبنيته ومعانيه، وعرف أصحاب هذه المدرسة بشعراء الحوليات الذين كانوا يثقفون الشعر ويجودونه وينقحونه، وقيل إن الشاعر كان ينفق حولًا كريتًا كاملاً وهو يجيل النظر في قصيدته حتى تخرج منقحة سليمة من العيوب.

– وكان من مظاهر عناية العرب بلغتهم مراجعة إنتاجهم اللغوي في أسواق العرب التي كانت أسواقًا تجارية وأدبية ولغوية ومواسم ثقافية ينخلون بها لهجاتهم ولغاتهم ويرتقون بها لتكون الأفصح والأبلغ، والرقي بها إلى درجة الكمال، وقد أسهمت تلك الأسواق بتقريب الوحدة اللغوية بين أبناء العربية والاجتماع على لغة قريش التي بلغت مراتب النضج في الفصاحة والبلاغة.

فاللغة العربية الفصحى التي نتحدث بها اليوم، سادت الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرنين من الزمان تقريبًا، مستخدمة في الشعر والخطب والأمثال استخدامًا يمكن أن نسميه موحدًا بين شعراء القبائل المختلفة وخطبائها، وإن وجدت هناك فروق لغوية يسيرة تشير إلى اختلافات لهجية، وأوضح مثال على هذه الوحدة اللغوية هو الشعر، فقد بقيت لغة الشعر لغة فنية يقصدها معظم العرب قصدًا.

لقد كان عرب الجاهلية يعربون كلامهم رفعًا ونصبًا وجرًّا وجزمًا، وذلك بالسليقة التي فطروا عليها منذ نشأتهم في بيئة فصيحة اللسان، سليمة البنان، حتى أصبح الإعراب لديهم من الملكات الراسخة، وقد انطبع حسهم اللغوي عليه، وكل خلاف في النطق بهذه السليقة ينبو لسان العربي عنه، يقول أبو بكر الزبيدي (لحن العوام:٤): "ولم تزل العرب في جاهليتها، وصدر من إسلامها تبرع في نطقها بالسجية، وتتكلم على السليقة، حتى فتحت المدائن، ومصرت الأمصار، ودونت الدواوين".

ظاهرة اللحن في اللغة:

قال رسول الله ﷺ: "أرشدوا أخاكم فقد ضل" فسمى الخطأ في الإعراب ضلالًا، أي سماه بما يؤدي إليه من ضلال، وهو ما يعرف في البيان بتسمية الشيء باعتبار ما سيكون، أي باعتبار ما سيؤول إليه، وتلقف هذه المقولة النبوية الفيلسوف اللغوي الحجة أبو عثمان بن جني، فقال في كتابه الخصائص: "إن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخف حلمه: ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها" (الخصائص ٣/٢٤٥)

وإن الاختلاط بين العرب والفرس قبل الإسلام كان سببًا مؤديًا إلى حدوث الانحراف اللغوي، كما كان الفتح الإسلامي من بعد سببًا ودافعًا لانتشاره وتنوع مظاهره. يقول أبو بكر الزبيدي: "فاختلط العربي بالنبطي، والنقي الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاط الأمم، وسواقط البلدان، فوقع الخلل في ألسنة العوام".

جهود العلماء في معالجة ظاهرة لحن العامة:

شهد القرن الثالث الهجري نهضة لغوية ونحوية، تمثلت في التنافس بين علماء البصرة وعلماء الكوفة في مسائل اللغة والنحو، ونهضوا يؤلفون الكتب التي تجنبها شر العامية، وتبين أخطارها، وتنبه على وجوه الصواب في اللغة الفصحى، وإن كل من ألف في لحن العامة، كان يقصد بكلمة اللحن مخالفة العربية الفصحى في الأصوات أو في الصيغ، أو في تركيب الجملة، وحركات الإعراب، أو في دلالة الألفاظ، ويظهر ذلك بوضوح من الأمثلة التي عالجوها في كتبهم.

لقد وقف أعلام اللغة موقف العلماء المخلصين لدينهم ولغتهم، وبذلوا جهودًا كبيرة للذود عنهما، وأسهموا بقسط وافر في دراسة اللغة واستنباط قوانينها، ووضع الضوابط التي تصونها من الخلل والفساد، وأدركوا أن الألفاظ تتعرض في أصواتها وصيغها ودلالتها إلى الانحراف والتغيير، والتأثر والتأثير، وقد نبه الجاحظ لهذا التطور، فقال: "اللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها" (البيان والتبيين: ١/٣٦٨).

مناهج اللغويين في معالجة ظاهرة لحن العامة:

(أ) التصحيح الدلالي:

أدرك علماء اللغة أن ألفاظ اللغة تتعرض إلى التغير في معانيها، وقد عالجوا الألفاظ التي اعتقدوا أن الناس أفسدوا استعمالها، ووضعوها غير موضعها، وأخطؤوا فهم دلالاتها، ونبهوا عليها مبينين دلالة العبارة على المعنى الذي وضعته له، وردوها إلى أصولها اللغوية التي اشتقت صيغها منها، وجعل ابن السكيت عنوان كتابه الذي وضعه لمعالجة ظاهرة لحن العامة: كتاب الحروف التي يتكلم بها في غير موضعها، وخص الباب الأول للألفاظ التي تعرضت إلى التغيير في معانيها بسبب الاستعارة، كاستعمال الأظلاف لأقدام الإنسان، وهي للشاء والبقر، واستعمال "المشافر" و"الجحافل" لشفة الإنسان، وإنما "المشافر" للإبل، و"الجحافل" لذوات الحافر.

وقال ابن قتيبة: "أشفار العين" يذهب الناس إلى أنها الشعر النائب على حروف العين، وذلك غلط، إنما الأشفار حروف العين التي ينبت عليها الشعر، والشعر هو الهُدب" (أدب الكاتب: ٢١).

ويقول ابن مكي الصقلي في كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان): "يقول العامة للكلأ الأخضر، حشيش، وليس كذلك، إنما الحشيش اليابس، فأما الأخضر فيسمى الرطب والخلى، ويقولون للحشيش اليابس: عُشب وليس كذلك، إنما العشب: الأخضر من المرعى" (تثقيف اللسان: ١٩٧).

(ب) تصحيح الأبنية:

اجتهد علماء اللغة في معالجة الأبنية التي اعتراها اللحن، وحرفت في ضبطها أو حروفها، من حيث الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير والقلب، والخطأ في تحريك أواسط الفعل الثلاثي من ضم أو فتح أو كسر، وكذا الخطأ في الأسماء وضبطها ضبطًا صحيحًا، وقال الكسائي: "وتقول: دعه حتى يسكت عن غضبه، بالتاء،

ولا يقال: يسكن بالنون، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] (ما تلحن فيه العامة: ١٠٠).

وقال: " وتقول: عجزت عن الشيء، بفتح الجيم، ومنه قوله تعالى:﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ [المائدة: ٣١] (السابق: ١٠٥، وما تلحن فيه العامة: ١٠٠).

(ج) تصحيح التصحيف:

وعالج علماء اللغة الألفاظ التي طرأ عليها التصحيف، فحل في كل منها حرف مكان حرف، ونبهوا على ما تصحف فيه العوام، وقال ابن مكي الصقلي في كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان): "غلط العلماء في تصحيف المشهور من حديث النبي ﷺ، وتغيير أسفار العرب وتصحيفها، وتصحيف كتب الفقه، وغيرها". وكذلك يقولون في جمع ماء، ميات، والصواب مياه، وأمواه، بالهاء؛ لأن الهمزة في ماء مبدلة من هاء أصله (موه).

(د) تصحيح الخطأ في النحو والصرف:

انصرفت جهود العلماء إلى معالجة اللحن في الألفاظ، وصوبوا أخطاء العوام في النحو والصرف، وأول زيغ ظهر في الألسنة تسكين أواخر الكلم هربًا من الإعراب، وذكروا استعمال العرب لصيغة الجمع، والعوام يطلقونها على المثنى أو المفرد خطأ، كأن يقال: رجل عظيم المناكب، وإنما له منكبان، وامرأة لينة الأجياد، وإنما لها جيد واحد.

وذكروا استعمال العامة المفرد للمثنى فيما لا ينفصل، فقالوا: توأم وزوج، والصواب: توأمان وزوجان، ونبهوا على خطأ العامة عندما استعملوا بالتاء الوصف الخاص بالمؤنث، وقال الفراء: " امرأة حامل وحاملة، إذا كان في بطنها ولد، فإذا حملت شيئًا على ظهر أو رأس فهي حاملة لا غير، وقال ابن قتيبة: إن العامة كانت تستعمل بالتاء الأوصاف الخاصة بالمؤنث، وقال: ما كان على

"فعيل" نعتًا للمؤنث، وهو في تأويل "مفعول" كان بغيرها، نحو كف خصب، وملحفة غسيل".

ولم يعترف علماء اللغة بما تولد من الكلام بالمعنى الذي لم تستخدمه العرب فيه، من ذلك إنكار بعضهم استعمال العامة نظر إلى الشيء، بمعنى "شاهده" وتنزه بمعنى خرج للنزهة، وعدهم إياهما من الكلام المولد الذي لم يكن له وجود في اللغة بهذا المعنى رغم وجود أصله (المزهر: ١/٣٠٦).

نشر الفصيح وإحياؤه أم تفصيح العامي؟

صنفان من الكلمات أساء الناس إليهما، الأول منهما: كلمات فصيحة صحيحة، خفيفة على اللسان، سهلة في النطق، زهد بها الكتاب وقل استعمالها، فانصرف عنها الناس غفلة وإهمالاً، وجهل معناها أكثر الناس، وكادت تكون منسية عند بعضهم، ومجهولة عند الأكثر وهم لو عقلوا تلك الكلمات وألفوا استعمالها، لكانوا أكثر قربًا من النص، وأعمق فهمًا وأكثر إدراكًا وتأثرًا.

وأما الصنف الثاني من الكلمات التي أساء إليها الناس، فهي أيضًا كلمات عربية فصيحة حرفتها ألسن العامة، وعدلوا من حركاتها أو حروفها حتى نزعوا عنها سمة الفصاحة،فغرقت في بحار عامياتهم، حتى كاد نسبها إلى أصلها العربي يضيع، مثل: كشّ وكمش.

وعلى كل فاستخراج الفصيح من كلام العامة، والتنبيه على صحته، ونسبته إلى أصله الصحيح الفصيح عمل لغوي مشكور لا غبار عليه..

جهود العلماء في نشر الفصيح:

إننا نتساءل، أليس في العربية الفصيحة مئات الكلمات التي ندت عن أقلام الكتاب، وأحاديثهم حتى نسيت، وهي عربية فصيحة، خفيفة النطق، لم تُعدَّل ولم تبدل، بل تركت وأهملت.

ولنا أن نتساءل أيضًا، هل الاهتمام بتفصيح وتصحيح ألفاظ، مثل: كمش وكماشة، وخربش وفشّ وفواشة، وكثير جدًا من أمثالها أولى من تفسير معاني كلمات فصيحة وأكثرها قرآني، يمر بها الناس والقارئون، ويسمعونها من القراء فلا يفهمون معانيها، حتى أصبح الكثيرون في بلاد العرب يقرؤون القرآن كما تقرؤه العامة في بلاد إسلامية غير عربية ولا يفهمون المعنى!! وهم أمة (القرآن) وأمة (اقرأ)

إننا إذا فسرنا ما كان من الكلمات مثل: ران، راغ، ألت، سمد، وقب، كند، بخع، العضل، مرج، مريج، خلاق، يستطيع القارئ فهم الآيات التي جاءت فيها تلك الكلمات، مثل:

- ران على قلبه: غلب، مثل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]
- راغ، حاد ومال إليه شرًا، مثل: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الصافات: ٩١]

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩٣]

- خرص، كذب، مثل: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]
- ألت الشيء، نقصه، مثل: ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]

، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤]

- سمد الرجل، غنّى ولهًا، فهو سامد، مثل: ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦١)] أي لاهون غافلون.
- عزَّ، غلب وقوي، مثل: " وعزني في الخطاب" (ص: ٢٣) ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس: ١٤]
- وقب الليل، حلَّ وشمل كل شيء بظلامه، مثل: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ [الفلق: ٣]
- الفلق، الصبح، وهي الذي فلق الظلام وكشفه، مثل:

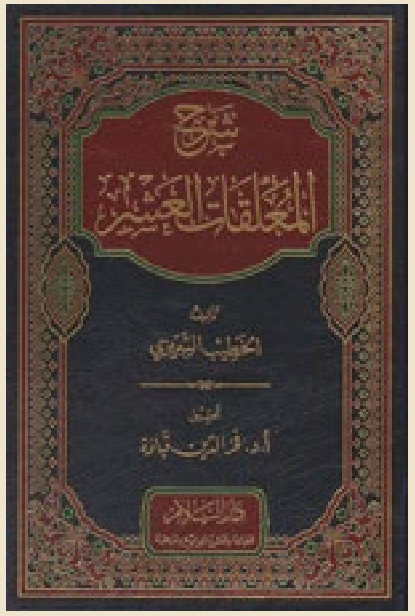

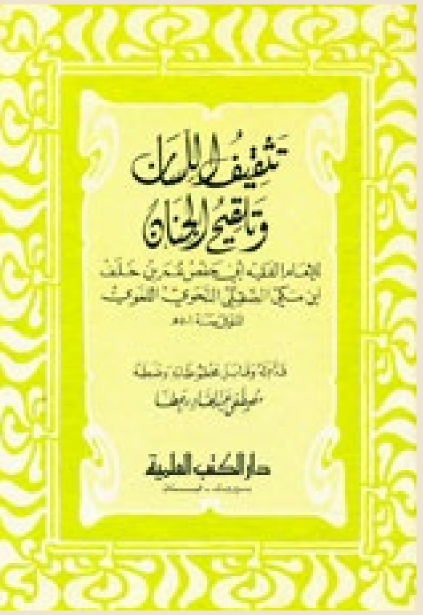

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]

- كند النعمة، جحدها ولم يشكرها، فهو كنود، وهي كنود، مثل: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦]
- بخع خصمه، قتله غمًّا وغيظًا، مثل: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦]
- العضل: المنع والحبس، وعضل المرأة، منع زواجها، ومنه في سورة البقرة الآية (٢٣٢): ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إلى عشرات من مثل هذه الكلمات التي غابت عن ألسن الناس وأقلام الكتاب وغابت معها معانيها، وهي جديرة بالإحياء والنشر والتداول.

٢- حروف المعاني:

بذل العلماءجهوداً كبيرة في تفسير اختلاف معنى الفعل الواحد باختلاف موقعه من الكلام، واختلاف الحرف الذي يتعدى به، لأن تفسير الأفعال لا يمكن أن يقوم به من لا يعرف الحروف التي تتعدى بها تلك الأفعال، وهي حروف لها معانٍ، لذلك سميت حروف المعاني، وأطلق عليها اسم (الأدوات) وقد يكون للحرف الواحد عدة معانٍ، فأيها يختار المفسر؟ وهل يصلح للمعنى الذي يريده؟ ، كما في (رغب فيه) و (رغب عنه) وكما في (فزع منه) و (فزع له) و (فزع عليه) و(فزع إليه) فلكل فعل في هذه المواضع معنى مخالف لمعناه في غيره.

وقد نبه القدماء من لغويين ونحويين على أنَّ استعمال الأدوات بعضها مكان بعض أو تعاقبها ليس قياسيًا، ولا يجوز -كما قالوا- أن يكون قياسيًا؛ لأن ذلك يفسد اللغة، وقالوا إن لكل منها محلاً لا يصح للآخر، وقد غفل عن ذلك بعض العاملين في ميدان اللغة اليوم، وجهله بعضهم فراحوا يقيسون حرفًا على حرف، أو أداة على أداة، أو محلاً على محل، وأدى ذلك عندهم إلى أحكام عجيبة ترفضها اللغة وأصولها وتنكرها أساليبها.

٣. فروق لغوية بين ألفاظ تبدو مترادفة: (مشى وسعى وسارع وفرّ في القرآن).

لو تأملنا تلك الأفعال كلها، لدلت على السير والحركة،

اللغة العربية

ولكن لو نظرنا إلى مواضعها في كتاب الله تجد أن الحركة أو السير إلى طلب الرزق وإلى التسوق يجب أن يكون مشيًا، وهو الحركة الهادئة المتأنية التي يحتاج صاحبها إلى النظر والبحث، فإذا طلبت الرزق فامشِ إليه، وإذا كنت متسوقًا فامشِ؛ لأن كلا الأمرين يحتاج إلى تمهل ونظر.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]

وقال: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧]

وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان:٢٠]

وهكذا لما كان الأمر يحتاج إلى اعتدال في السير، فقد أوحى تعالى بقوله على لسان لقمان: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ [لقمان: ١٩] أي: اعتدل وتوسط فيه.

ولا تظنن أن إسراعك في طلب الرزق أو اللهاث وراءه سينفعك أو سيزيد من رزقك ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]

ولو اجتمع أهل الأرض على أن يعطوك شيئًا لم يكتبه الله لك فلن يستطيعوا، ولو اجتمعوا على أن يمنعوا الرزق المكتوب لك فلن يستطيعوا، فهو سبحانه المعطي وهو المانع، وهو القائل: ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، أي يقدّر أو يقتر، فحسبك أن تطلب وسيأتيك ما قسمه الله لك.

وأما إذا كان المشي بقصد الصلاة، وهي ذات وقت معين محدد فعلى المرء أن يسعى سعيًا لإدراكها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩]

وكذلك طلب الآخرة وما أعده الله فيها لعباده المتقين، يحتاج إلى (سعي) صادق لإدراكه وبلوغه، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٩]

وإذا كان السعي من أجل المغفرة ومن أجل بلوغ الجنة، فذلك أمر يحتاج إلى السرعة بل إلى المنافسة بالمسارعة، قال جلَّ جلاله: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

ووصف زكريا ويحيى عليهما السلام بقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [الأنبياء:٩٠]

وكذلك وصف طائفة من عباده المشفقين من خشية ربهم، والمؤمنين بوحدانيته بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١]

وحين أراد سبحانه أن يعبر عن الإقبال على الله والدعوة إليه، قال على لسان رسوله: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠]

فعبر بقوله (ففروا)عن الفرار والهروب من شوائب الحياة الدنيا وضلالاتها، والهروب من عذاب الله وعقابه، وعن الفرار إلى الملجأ الذي لا ملجأ سواه إلى الله وحده بقوله

ففروا" أي فروا من عذابه إلى رحمته، وكلاهما في حاجة إلى أشد الهرب والفرار.

وهكذا كان البيان الإلهي في وضع المشي والسعي والإسراع والمسارعة والفرار في الموضع الذي لا يغني عنه غيره.

ولو تبينا كثيرًا مما ورد في كتاب الله من أسماء وأفعال وصفات، لوجدنا مثل وجدنا هنا في مشى وأخواتها، كل كلمة حلت في الموضع الذي لا يحسن فيه غيرها، ولو كان بمبناها! وسبحان من جعله "قرآنًا" عربيًّا" فصلت آياته من لدن حكيم خبير.

جهود العلماء في تحويل الثقافة العربية من المشافهة إلى التدوين:

ازدهرت حركة التأليف عند اللغويين العرب، وتنوعت الاتجاهات المتعددة التي تفرعت إليها حركة التأليف، فوضع اللغويون مؤلفات اختلطت فيها الموضوعات اللغوية بالموضوعات الدينية والأدبية والتاريخية، ومؤلفات اختلطت فيها موضوعات اللغة من اهتمام بالغريب وباللغات والنحو والصرف والعروض وفقه اللغة، ووضع رسائل لغوية مستقلة ذات مناهج محددة وطرائق متنوعة، منها رسائل على أساس الموضوعات، فألفوا في غريب القرآن والحديث وغريب اللغة، ورسائل في لغات القرآن والقبائل، ورسائل في الحشرات والخيل والإبل والشاء والوحوش، وفي خلق الإنسان، ورسائل في الأزمنة والأنواء، وفي الديارات والبلدان والمواضع، ورسائل في التضاد والمشترك اللفظي، والاشتقاق والمثلثات اللغوية، والأمثال ورسائل أخرى وضعوها على أساس الألفاظ، فألفوا في الإبدال والإعلال والقلب، ورسائل في الإتباع والمعاقبة والنظائر، وفي التذكير والتأنيث، وفي المنقوص والمقصور والممدود، وفي الإفراد والتثنية والجمع، ورسائل في الأبنية والحروف، وفي المعرب والدخيل، وفي لحن العامة، وقد شملت الدراسات اللغوية أغلب الجوانب اللغوية الدلالية والصيغية، والتركيبية والصرفية والصوتية.

، ثم انتقل العلماء إلى وضع معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني، ووضع مؤلفات كتب النحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة وكتب النقد بهدف صيانة العربية الفصحى وحمايتها من الضياع والانحراف.

جهود العلماء في ترجمة علوم الحضارات القديمة إلى اللغة العربية:

نجحت العربية في أول اختبار تتعرض له والمتمثل في استيعابها لعلوم الحضارات القديمة وإيجاد المصطلحات الخاصة بكل علم من علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب والهندسة.

وطبع العلم المترجم والمصاغ باللغة العربية بطابع العلم العربي الذي صنعه علماء أفذاذ من العلماء العرب وغير العرب وصاغوه باللغة العربية الفصحى، ثم نجاح العربية في اختبار آخر تمثل في نجاحها في استيعاب علوم الحضارة الحديثة، ووضع المؤلفات والكتب والمصطلحات باللغة العربية (تجربة جامعة دمشق).

أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في حفظ العربية وتنمية البحث العلمي فيها:

للتشريع الإسلامي الدور الأبلغ في حفظ العربية وحمايتها وضبطها من ناحية الصرف والنحو والمفردات والدلالة؛ لأن كل مفردات التشريع تقوم على ركنين أساسيين هما مصدر التشريع ولا يمكن الوصول إلى فهم هذين المصدرين إلا من خلال اللغة الأم التي جاء بها الوحي. المصدران هما: القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد نص القرآن الكريم في مواضع متعددة على أنه جاء باللغة العربية "لسانًا عربيًا" وكثيرة الأحاديث النبوية التي أكدت ذلك، ولا يمكننا فهم مضمون القرآن على الوجه الصحيح إلا من خلال هذه اللغة، ومن هنا كان لدينا ما يسمى عند علماء التشريع بعلوم الآلة، وفي مقدمتها علوم اللغة العربية إذ إننا لا نستطيع أن ننقل النص الذي أنزله الله عز وجل من الحالة السماعية " التلقي" إلى حالة العمل والسلوك إلا من خلال الفهم، والفهم لا يمكن أن يكون إلا من خلال معرفة اللغة معرفة دقيقة ، لذا جعل العلماء من شروط الاجتهاد والإفتاء، التمكن من اللغة العربية، وأن يكون الفقيه عالمًا بمفرداتها ومعانيها ودلالاتها، ولا شك أن مكانة اللغة العربية في علوم التشريع كانت سببًا في الحفاظ على هذه اللغة سليمة، صحيحة، وعلوم اللغة العربية نشطت وارتقت بناء على البحث في قضية الإعجاز التي جاءت في سياق إثبات إلهية مصدره، فالله سبحانه تحدى العرب في أن يأتوا بمثل هذا القرآن من حيث فصاحته وبلاغته، ولولا علوم التشريع لما كان للغة العربية اليوم هذه الحالة الموجودة عليها.

لغتنا هويتنا؛ وضياع اللغة ضياع للهوية.

إن للهوية ثلاثة أركان: اللغة، العقيدة، التاريخ، وتمثل لغتنا هويتنا، فهي لغة كل عربي وهي الوعاء الذي يحتوي كل العلوم: " الاقتصاد، السياسة، الاجتماع، وبالتالي فاللغة تستوعب الأجناس العربية كافة التي أتت إلى بلادنا، والتمسك بها تمسك بالوطن وبهوية الوطن وبالثقافة العربية وتمسك بالقرآن، وبالمروءة والقيم الإنسانية النبيلة، والعربية منا هي الأم والأب والأخ والأخت واللغة العربية لغة ولادة وغنية تستوعب مترادفات الاختراعات الجديدة وتواكب المصطلحات الجديدة.

الصحافة شريك في الحفاظ على اللغة العربية:

تبدو علاقة الصحافة باللغة علاقة وثيقة، وهي سلاح ذو حدين، فمن جهة تؤدي دورًا مهمًا في صقل اللغة وتقريبها من الناس، ومن جهة أخرى شاركت في قتل الكثير من قوة اللغة، نظرًا لطبيعة العمل الصحفي، والاستعداد للاستجابة السريعة لقبول الدخيل دون الكثير من التمحيص، ويجب أن نشير إلى أن إتقان اللغة ليس مقتصرًا على أهل الاختصاص، فعلى اختصاصي العلوم الأخرى إتقان لغتهم؛ لأن هذا الإتقان يزيدهم قدرة على التعبير والبحث والدراسة.

مراتب الاستعارة في الخطَاب العِلْمِيّ بَيْنَ القديم والحَديث

د. منجي العمري
أستاذ اللسانيات العرفانيّة
بجامعة القيروان

يظنّ كثيرون أنّ بلاغة الخطاب العلميّ ينبغي أن تُطلب بعيدًا عن وجوه المجاز؛ فالخطاب العلمي هو خطاب دقيق العبارة لطيف الإشارة لا تتحمّل ألفاظه ترف الاستعارة؛ لأنّ شأن مصطلحات العلم ومفاهيمه وفرضيّاته واستدلالاته عند أهل الصناعة أن تكون مدلولاتها مفهومة وقياساتها معلومة، ولذلك عُدّ كلّ تعقيد أو إلغاز في العلم من الطرائق المذمومة والبدع غير المفهومة؛ لأنّ فيه تعمية في إجراء العلّة، ومفسدة لتماسك الاستدلال تخرج العالم عن الملّة التي رسمتها تقاليد العلم وسننه، ولكنّ تجديد النظر في مفهوم الاستعارة دفع بعض اللسانيين المحدثين إلى عقد صلة وثيقة بين خطاب العلوم وضروب المجاز، فهم يرون أنّ بينها صلات شتّى ووجوهًا طريفة من النسب يمكن أن نعرض إلى نُتَف منها متى أمعنّا البصر وغيرنا زاوية النظر.

١- الاستعارة ديوان البلاغة:

لا شكّ أنّ الاستعارة هي أشرف وجوه المجاز استخدامًا في العربيّة، فبها تتزيّن أساليب الفصحاء، وتلهج بذكرها ألسنة البلغاء، وتتفاوت في إجادة استخدامها نظما ونثرا طبقات الأدباء؛ ولذلك سوّى صاحب العقد الفريد بين البلاغة والاستعارة، والحقّ أنّ ظاهر ما استقرّ في تعريف الجرجاني (ت٤٧١ه) للاستعارة من أنّها ادّعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه، مع طرح ذكر المشبه يؤسّس للفصل بين الاستعارة أسلوبًا في التعبير يحتكره الأدب، وبين الخطاب العلميّ أداة لبسط الرأي بوضوح وتبسيط المعرفة دون إلغاز، فإذا ما الاستعارة بهذا المفهوم البلاغيّ القائم على التشبيه والمبالغة فإنّ من الوجاهة أن نعدّ استخدام المجاز في الوصف العلميّ وفي اصطلاحات الفنون أمرًا يناقض طبيعة العلم وغاياته، ويصحّ حينئذ أن نستبعد الاستعارة من كل نظر وتفكّر إذا ما أجريناها على ميزان علم البيان، واستفتينا فيها مباحث المجاز كما فصّلها البلاغيّون، وراعينا فيها منطلقات الفصل الصارم بين بلاغة خطاب الأدب، وما يتطلّبه من تأنّق وتخييل وابتداع وصرامة خطاب العلم وما يقتضيه من وضوح في الاستدلال، وصرامة في القواعد، ودقّة في التحليل.

وآية ذلك أنّ الاستعارة تعرّف عند الجرجاني (ت٤٧١ه) بأنّها استعمال للفظ اختصّ في الأصل بوضع لغويّ معروف تدلّ عليه الشواهد، ثمّ يستعمله الشاعر أو الخطيب في وضع جديد، وينقله إليه نقلاً غيرَ لازم، ويكون هذا النقل لموضع العبارة ذا وجهين؛ إمّا تأنّقا في الأسلوب، أو توسّعًا في أوضاع اللغة غير ذي فائدة دلاليّة حسب صاحب الأسرار، فهو لا يضيف للمعنى شيئًا، أو يكون نقلا مفيدًا؛ لأنّه يحدث أثرًا جديدًا، وصورة ذهنيّة ذات فائدة معنويّة لها فائدة في نفس السامع من جهة استزادة البيان والمبالغة في الوصف.

ولو التزمنا بما يقتضيه هذا التعريف لاستخلصنا أنّ الاستعارة حكر على الخطاب الأدبيّ، وأنّ استخدامها في الخطاب العلميّ ليس مناسبًا لمقتضى الحال، فإذا ما استخدم العالم في أسلوبه مجازًا استعاريًا؛ فإنّ أمره آيل إلى إحدى نتيجتين: إمّا أنّه يُسمّي الأشياء بغير أسمائها فيزيدها غموضًا بنقل اللفظ إلى غير ما وضع له في الأصل، فيتخذه حلية وزينة في سياق يُراد منه الوضوح والدقّة أو أنّه يُبالغ في الوصف والتصوير من حيث ينبغي له أن يتوخّى الاقتصاد والأمانة، وفي كلا الحالين لا يخلو استخدام العالم للاستعارة من الزلل فيكون مقاله في غير مقامه.

٢- وجوه عدّة في تصوّر مفهوم الاستعارة:

يحمل تعريف الجرجاني (ت٤٧١ه) للاستعارة ما يدلّ على استيعاب ثلاثة متصوّرات مختلفة: أوّلها يستند إلى نظريّة النقل؛ فالاستعارة غير المفيدة عنده هي نقل لفظ من وضعه الأصلي إلى وضع جديد، كأن تُسمّي مشفر البعير شفة، فأنت تنقل لفظ وضع للإنسان من مدلوله في أصل وضعه إلى مدلول جديد يتصل بالحيوان. وهذا التصوّر يعود في الأصل إلى تأسيس مفهوم المجاز في كتاب أرسطو (ت٣٢٢ ق.م) "فنّ الشعر"؛ ذلك أنّ الاستعارة عنده – كسائر فنون المجاز – نقل للفظ من موضعه الأصليّ في معجم اللغة إلى موضع جديد طارئ بالاستخدام البلاغيّ يراد به الحلية والزينة والتأنّق في الموضع الجديد. وأمّا المتصوّر الثاني فيمكن وسمه بالنظريّة التشبيهيّة وهي التي تعتبر مقصد الاستعارة المبالغة في الوصف؛ لأنّها في الأصل تشبيه لم يذكر فيه لفظ المشبّه به كأن تقول

عن قدوم الرجل الشجاع "قدم الأسد"، وأنت تقصد قدوم الرجل الشجاع كالأسد، وهذا المنحى يخضع الاستعارة إلى التشبيه، وينزّله مرتبة الأصل منها وينزلها منه مرتبة الفرع، مع أنّها أعلى منه في مراتب البلاغة. وأمّا ثالث هذه المتصوّرات وأقربها إلى الطرافة والجدّة فَهُوَ ما يمكن أن نُسَمّيه نظريّة الادعاء الجرجانيّة، وهي أقرب ما تكون إلى النظريّة الذهنيّة؛ لأنها تجعل حدوث الاستعارة ليس في الألفاظ نقلًا أو تشبيهًا، بل في الذهن ادعاءً لمعنى جديد؛ فالمتكلّم حين يصف الرجل الشجاع بالأسد إنّما هو ينشئ جنسًا ثالثًا لا هو بالأسد ولا هو بالرجل، وإنّما هو جنس متخيّل يوجد في الذهن يجمع بين صفات الإنس والحيوان.

٣- جدّة مفهوم الادّعاء عند الجرجاني:

ليس ما يعنينا ههنا أن يكون بين هذه التصوّرات لمفهوم الاستعارة وشائج وصلات، أو أن يتفرّد كل تصوّر بضرب مخصوص من المجاز، وإنّما يعنينا من ذلك ما يحمله هذا التصوّر الثالث من حداثة في عصره وطرافة في رسم حدّ الاستعارة، ولا نرى ضيرًا في تبيّن آفاق جديدة قد يفتحها هذا النظر في تدبّر مواضع الاستعارة وربط وجودها أيضا بخطاب العلم، فأكثر ما يثير اهتمامنا أنّ الادّعاء آليّة ذهنيّة تفسّر أثر الاستعارة في عصر يسيطر فيه الفهم الأرسطيّ للمجاز. وهذا يعني أنّ الجرجاني (ت٤٧١ه) خرج عن أفق عصره ليربط الاستعارة بتصوّر حقيقة ذهنيّة ينشئها المتكلّم، ويزعم وجودها في عقله وجودًا حقيقيًّا كما يفهم من تعريف الخليل (١٧٥ه) للادّعاء بأنه بمنزلة أن "تدّعي حقًّا لك"؛ ولذلك حظي مفهوم الادّعاء في تصوّر الجرجاني (ت٤٧١ه) باهتمام كبير من جهة الدارسين، وتوسّعوا في تأويل معقوليّته ونسبته إلى ضروب من الطرافة والجدّة، ولا يعنينا في مقامنا هذا أن نحصي مظاهر الجدّة في ذا التصوّر بقدر ما يعنينا التأكيد على أنّ طرافة نظره تظهر في تجاوزه لمتصوري النقل والتشبيه الذي يحصر الاستعارة في الجانب اللغوي التلفظي، وتأكيده على مستوى جديد هو هذا الطابع الذهني النفسيّ الذي ينشئ بمقتضاه المتكلّم عوالم جديدة من التخييل ترتبط بإنشاء البلاغيّ لمفهوم جديد لم يسبق إليه؛ ولذلك كان الجرجاني (ت٤٧١ه) مدركًا لجدّة ما يستخلصه من تصوّر جديد للاستعارة "محصوله أنّك تدّعي حدوث شيء هو من الجنس المذكور، إلّا أنّه اختص بصفة غريبة وخاصية بديعة، لم يكن يتوهّم جوازها على ذلك الجنس".

إنّ التمعّن فيما قدّمه الجرجانيّ (ت٤٧١ه) من تصوّر طريف للاستعارة يدفعنا إلى مراجعة ما نخاله تعريفًا جامعًا مانعًا لمفهومها، وتصوّرًا نهائيًا لحدّها ومظاهرها وأشكال حضورها واستخدامها، لا يأتيه النقصان والنقد والإضافة من بعده خصوصًا من قبل ما يقترحه المعاصرون من مراجعة للتراث البلاغيّ وتثمين ما في من درر وفكر اعتمادًا على مكتسبات اللسانيات الحديثة في بعدها الكونيّ؛ فالمتأمّل في متصوّر الادّعاء في تعريف الجرجاني (ت٤٧١ه) – رغم ما حفّ به من اقتصاد في الشرح – يفتح لنا مسالك جديدة في مراجعة مفهومنا للاستعارة، لا سيّما بربطه بالجانب الذهني ذلك الجانب الذي يمكن أن يظهر في الخطابات كلّها بما في ذلك الخطاب العلميّ، وعلى عكس ما قد يحدثه الفهم الظاهر لهذا التعريف من ظنّ كاليقين قوامه أن الاستعارة أناقة في العبارة، وتشبيه تراد به المبالغة، قد تكون الاستعارة لو اعتمدنا على مفهوم الجرجاني (ت٤٧١ه) ضربًا من الإنشاء الذهنيّ يمكن أن يستوعب كلّ خطاب،

مهما انشغل عن الأدبيّة بضوابط العلم، ودقّة المصطلح، وصرامة المفهوم.

ويمكننا من هذا المنظور أن نشير إلى حداثة الجرجاني (ت٤٧١ه) في عصره؛ فقد كان اقتراحه النظريّ في تفسير الاستعارة بمفهوم الادعاء جدّة في النظر وفرادة في التفكير لم يسبقه إليها أحد، ومع أنّ الجرجاني (ت٤٧١ه) لم يتخلّ تمامًا عن فرضيّتي النقل والتشبيه في تفسير أثر الاستعارة، إلّا أنّه استطاع من خلال ترتيب منازل الاستعارة وقياس ما تحدثه من أثر، أن يعطي للادعاء القيمة الأهمّ في رسمه لحدود الاستعارة؛ ذلك أنّه نقل المفهوم من العلاقات اللفظية إلى علاقة جديدة ذات طابع ذهنيّ، ولا نرى صفة أخرى يمكن أن يتّصف بها العالم غير صفة الحداثة في عصره، إذا كان من طبقة المجدّدين الذين يقطعون خطوة إلى الوراء لاستيعاب السنن العلمية، وخطوتين إلى الأمام لابتداع نصيبهم من التجديد، ولكن هل يمكن لمفهوم الادعاء أن ينقل مجال الاستعارة من الخطاب الأدبيّ إلى مجال الخطاب العلميّ؟

٤- حياة متجدّدة لمفهوم الاستعارة:

لكل عصر حداثته، ولا يمكن أن نسقط حداثة عصرنا على عصر آخر فنخرج النظر العلميّ من شروطه التاريخيّة، ونطلق عليه صفات لا تنتمي إليه، ولا تستوعبها مفاهيمه وفرضيّاته، لكن لملاحظة مواطن التقاطع والاتفاق بين سائر النظريات – حتى وإن اختلفت عصورًا – يمثّل تدبّرًا وعبرة يمكن أن تفيدنا في تجديد النظر إلى مفهوم الاستعارة وسائر المفاهيم اللسانيّة، ومتى جدّدنا النظر إلى تراثنا اللسانيّ العربيّ اكتشفنا أنّه تراث ينبض بالحياة المتجدّدة، ويمكن أن نعيد دراسته في ضوء ما اكتسبناه من نظريات حديثة ومناهج مستجدّة، وقد نكتفي

بالقول إن الجرجاني (ت٤٧١ه) كان مجدّدًا في نظره إلى الاستعارة؛ لأنّه أصبغ عليها صفة ذهنيّة، فربطها بادعاء المتكلّم لصورة ذهنيّة جديدة، ويكفي أن ندلّل على قيمة هذا المنجز بالنظر في التطوّرات اللاحقة لنظريّات الاستعارة في عصرنا، لنتأكّد من أنّ هذا البعد الذهنيّ أعيد إليه الاعتبار وصار حجر الأساس في النظريات اللسانية والبلاغية اليوم.

يمكننا أن نتخذ لذلك مثلا في تجديد النظريّات اللسانيّة العرفانيّة للمفاهيم البلاغيّة وربط آليّات اشتغالها بالبعد الذهنيّ، ومنها إحدى أبرز النظريّات المؤسّسة لتصوّر جديد للمجاز تعرف بنظرية الاستعارة التصوريّة عند لايكوف وجونسون؛ هذه النظرية مارست حداثتها فأحدثت ثورة في مفهوم الاستعارة، فعدّت المجاز جزءًا لا ينفصل عن كلامنا اليوميّ، ولا يمكن أن نتصوّر قولًا خلوًا من الاستعارات، فهي استعارات نحيا بها؛ لذلك تعدّ الاستعارة طريقة في التفكير لا يمكن أن ينقطع عنها المجاز حتى وإن كان الخطاب علميّا؛ فالذهن لا يمكنه أن يفكّر ويترجم تفكيره كلامًا دون أن يعتمد على الاستعارات، فحين تقول "السلام عليكم"؛ فأنت في بحرف الجرّ "على" تستعير من العلوّ الفضاء المكانيّ، وتربطه استعاريًّا بالسلام تلك الحال المجرّدة التي تعني الأمان والسكينة، وحين تقول "يحمل الكلام معنى"؛ جعلت الكلام بمنزلة الوعاء الماديّ الذي يحمل كيانًا مجرّدًا مثل المعنى فاستعرت الماديّ للمجرّد.

٥- استعارات الخطاب العلميّ:

كيف ينشئ الخطاب العلميّ استعاراته؟ إذا ما استندنا إلى تعريف القدامى للاستعارة، فينبغي لهذا السؤال أن يستند إلى التمييز بين تصورين مختلفين: أحدهما لفظي، والآخر ذهنيّ؛ أمّا التصوّر اللفظيّ: فنقصد به النقل أو التشبيه، وكلاهما يقصي الاستعارة من الخطاب العلميّ، ويجعلها حلية من متطلبات بلاغة الأدب، وأمّا الثاني: فنقحم فيه متصوّر الجرجاني القائم على الادّعاء ونظريّة الاستعارة التصوريّة، مع حفظ الفارق بين مجاليهما؛ فمجال الادعاء قابل للاستثمار في استكشاف خطابات غير أدبيّة، إذا ما تجاوزنا الافتتان بجدّة مفهوم الجرجاني وشذوذه عن سنن البلاغة، بالنظر إلى ما يفتحه من مجال ذهنيّ لتفسير آليات اشتغال الاستعارة؛ فهل يوجد مثلا في خطاب العلم ما يدلّ على إنشاء استعارات يدّعيها العالم في نظره حقيقة؟

ليس هذا السؤال الذي نثيره بالترف الفكريّ، وإنّما هو دعوة للتفكير في دلالات كثير من المصطلحات في الخطاب العلميّ عند علماء العرب وإمكان تصنيفها ضمن الاستعارات التصوريّة؛ فكثير من الأسماء التي أسندت إلى المفاهيم تستعير مجالًا من مجالات حياة العربيّ، وتجعل أسماءه وسومًا للمفاهيم المجرّدة، ولو عدنا إلى البلاغة القديمة متسائلين عن السبب الذي يجعلهم لا يعدّون أسماء الأعلام استعارات، لوجدنا سببًا وجيهًا يذكره الجرجاني (ت٤٧١ه) في تدبّر طريف؛ فهو يعرض عن وسم أسماء الأشخاص من قبيل "أسد" و"ثور" بالمجاز، ويكتفي بوصفها أسماء منقولة؛ لأنّ فعل التسمية جرى دون سبب مشابهة بين المنقول منه والمنقول له؛ وهذا السبب كاف ليجعل الجرجاني (ت٤٧١ه) يسير على نهج سابقيه في إنكار صفة "استعارة" في الألفاظ التي يقع فيها اشتراك بين شيئين من غير سبب يكون بين المشتركين فهي عنده أسماء منقولة.

لكن الاعتماد على فرضيّات علم الدلالة الحديث خاصّة في منزعه العرفانيّ، يجعل مصطلحات أيّ علم ومفاهيمه لا تخلو من الاستعارة، إذ يرى العرفانيّون أنّ نقل اسم إلى غير مسمّاه في اصطلاحات الفنون ليس مجرّد حلية أو نقل، بل هو تحقّق للمجاز في صوره الذهنيّة؛ فالاستعارة جوهر أصيل في المصطلحات، وليس عرضًا طارئًا عليها، فنحن نفكر في المجرّد بواسطة ما ندركه من معرفة سابقة بالمحسوس. من ذلك أن وسم حركات الإعراب لا تخرج عن استعارة الوضع الطبيعيّ للشفتين "فتحًا" و"ضمًّا" و"كسرًا" لهما فيغدو ذلك استعارة لها في أسمائها، وكذلك تكون مصطلحات "الجرّ" و"الرفع" و"الخفض" اسما مستعارا من الحركة في الفضاء الطبيعيّ للمتكلّم، ويجرّ ويرفع ويخفض في الفضاء الطبيعيّ؛ فالاستعارة حينئذ ليست مجرّد مرتبة في البلاغة، أو حلية يتزيّن بها الكلام، بل هي آليّة في التفكير أصيلة في الخطاب العلميّ وسائر الخطابات مهما توهّمنا فيها الخلوّ من المجاز؛ لأنّنا لا نستطيع تصوّر المجرّدات إلا بواسطة ما ندركه من محسوسات، فيكون المجاز حينئذ ظاهرة ملازمة للغة على سبيل الجوهر الدائم لا العرض الزائل، فلا ينجو منه متكلّم، ولا يخلو منه اصطلاح مهما حرص على الدرجة الصفر من المجاز.

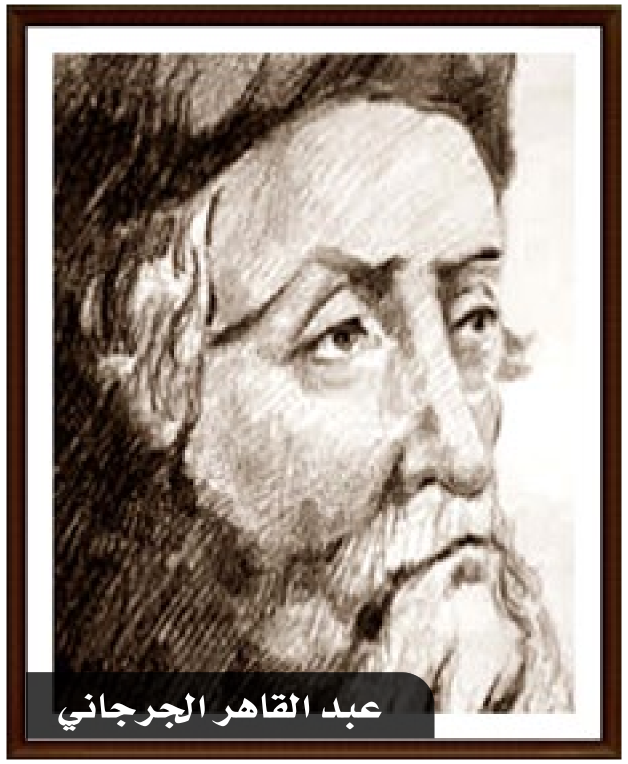

عبد القاهر الجرجاني

هذه المراجعة لمفهوم الاستعارة انطلاقا من تراثنا البلاغيّ، وتدبّر مدى حضورها في الخطاب العلميّ استئناسًا بالبلاغة الجديدة، هي ثمرة ثورة في النظر اللسانيّ أعادت تعريف الاستعارة، ونقلت مجالها من مجال حلية اللفظ إلى مجال آليّة التفكير، ومتى كانت مراجعة المفاهيم الحديثة منسجمة مع ما تدبّره علماء العربية قديمًا من نظر ثاقب، كانت مراجعة التراث اللساني العربيّ بوسائل منهجية حديثة أمرًا مفيدًا؛ لأنّه يزيح الغبار عن مساهمة العرب في التراث اللساني الكونيّ، ويزرع فيه حياة متجدّدة.

العبقري الخالد

د. إبراهيم بلقاسم
أستاذ بجامعة عبد الحميد بن باديس

الإمام عبد الحميد بن باديس مع طلبته

بَاديسُ أَنْجَبَ لِلْجَزَائِرِ مَحْمَدَهْ … صَارَتْ لَهَا مَشْكُورَةً وَمَحْسَّدَهْ
مَنْ عَاشَ لِلْوَطَنِ الْحَبِيبِ مُحَرَّرا … وَفّى لَهُ الْوَطَنُ الْحَبِيْبُ وَخَلَّدَهْ
قَلْبٌ مَنُوطٌ في السّمَاءِ بِهِمَّةٍ … فَلِذَاكَ قَدَّمَ يَوْمَهُ يَرْجُو غَدَهْ
فَحُبُّهُ دَارَ الْمُقَامِ حَدَا بِهِ … وَحُبُّهُ دَارَ الْمُقَامَةِ أَوْرَدَهْ
واللّٰه وفَّقَهُ لِنُصْرَةِ دِينِهِ … أَحْيَاهُ مِنْ بَعْدِ الدُّرُوسِ وَجَدَّدَهْ
واللّٰهُ ثَبَّتَهُ عَلَى دَرْبِ الْهُدَى … وحَبَاهُ بالنَّصْرِ الْعَزِيزِ وَأيّدَهْ
يدعُو إلى بِرْجِ الْفضيلة شَعْبَهُ … إنَّ الرُّقِيَّ إلى الْفَضِيلَةِ مَجْهَدَهْ
خلق الرّسالة دعوة قدسيّة … يحوي بها الشّعب المكرّم سؤددَهْ
كرم و صبر عفّة و طهارة … حزم و بأس قوة و مجاهدَهْ
وَجَدَ العَفَافَ رِداءَ صِدْقٍ فَارْتَدَى … وخَيْرَ زادٍ في التُّقَى فَتَزَوَّدَهْ
وَالصّدقُ مَنْجَاةٌ لَهُ وَلِقَوْمِهِ … فَارْتَادَهُ مَنْجًى لَهُ وَتَعَوَّدَهْ
والْعِلْمُ قَاعِدَةُ الْحَضَارَةِ كُلِّهَا … مَا خَابَ شَعْبٌ رَامَهُ وَتَعَهَّدَهْ
يَجْزِي بِإِحْسَانِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يُسِئْ … يُحْسِنْ إِلَيْهِ تَفَضُّلا لِيُقَيِّدَهْ
أَهْوَنْ بِعُمْرٍ لا يُحاطُ بِعِزَّةٍ … و الْعَيْشُ دُونَ كَرَامَةٍ مَا أَزْهَدَهْ
المجْدُ فُرِّقَ فِي نُفُوسٍ جَمَّةٍ … وحَوَتْهُ نَفْسُكَ فَذَّةً متفرّدةْ
شَعْبُ الجَزَائِرِ مُسْلِمٌ أنشودةٌ … أضحتْ لها كلّ الجزائرِ مُنْشِدَةْ
مَنْ كان يَبْغِي ودَّنا فحبيبُنا … ولمبْغِضٍ مِنَّا السّيوفُ مَهَنّدَةْ
وإذا الصّحائفُ نُشِّرتْ وتناثَرَتْ … بِسَمَائِهَا كانتْ شِهَابُك مُرْصَدَةْ
تَهْوِي عَلَى مُنَآدَهَا فَتُقِيمُهُ … وتحُلُّ بالزّيف المضلِّ فتنقدَهْ
هذي بَصَائرُ ربِّكُمْ تَتْرَى لَهَا … نُورٌ يُحَقّقُ في المعالِمِ مَشْهَدَهْ
في رفقةٍ مثل النّجومِ أدِلّةً … على الهُدَى فَمَنِ اقْتَدَى بِهِمْ اهْتَدَهْ
وَتَعَارَفَتْ أرواحُهُم فتآلفتْ … وغدَتِ جميعًا للجهادِ مُوَحَّدَهْ
سَاقَ البَشَائِرَ لِلْعِبَادِ بَشِيرُهُمْ … بِلِسَانِ صِدْقٍ في المحافِلِ أَسْعَدَهْ

مَا أحزنَ الشّعرَ المضيِّع عيدَه	عدمِ الخليفة إذْ أضاعَ محمَّدهْ
تبكي القوافي فقدَهُ لم تَسْلُهُ	أوْ تَنْسَهُ يَوْمًا لكيّ تتفقَّدَهْ
مجنونُ ليلى ظلّ يطلب أيْنَها	والعُمْرُ دَيْنٌ في هواهَا سدّدَهْ
طابت عقائدُنا بقول طيّبٍ	مِنْ طيّبٍ عرَفَ الإلهَ وَمجَّدَهْ
حذِرٌ من الشّركِ المُزيغِ وَكَاشِفٌ	لمزالقٍ أضحت لَديْهِ مُعَدَّدَهْ
الدّينُ عِلْمٌ بَيِّنٌ لا رِيبَة	أو ملّة موروثة و مقلّدَهْ
تبكي المجالس ذاكرًا ومذكّرًا	يهدي الشّفاء إلى سقام الأفئدَهْ
ومعلّمًا للجاهلين مذكِّرا	للغافلين محاربًا للمُفسِدَهْ
يحكي لدى بسط الحقائق عبده	ولدى الفصاحة في البيان مبرِّدَهْ
لو همُّه نَيْل المناصبِ نالَها	أو همُّه مالٌ يُكثَّر عَدَّدَهْ
أو همّه لقب يُحاز وشارة	لكان في دنيا المفاخرِ أوحدَهْ

أمّا الهوى فلربّه ونبيّه	إن يَرضَيا يبلغْ بذلك مقصدَهْ
والهمُّ كلّ الهمّ في دَرك الّتي	تصل النّفوس إِذا أتت مستشهدَهْ
في أمّة تحيا بعزّ دائم ×	ليست لغير إلاهها مستعبَدَهْ
واعدت نصرا باللّقاء ففُتَّه	وأنجز النّصر المظفَّر موعدَهْ
وتركتنا في يوم عزّ أبيض	عانيت من هول المتاعب أسْوَدَهْ
و هلكت لكن لم تزل لك صيحة	تحيا الجزائر حرّة و موحَّدَهْ
يا رب أعظِمْ أجرَه و جزاءَه	ولتُؤتِهِ خيرَ النّعيمِ وسرمدَهْ
باعُ القوافي دون شَامخِ طَوْدِكُمْ	و لربّما صَارتْ لذاكَ مُردّدَهْ
إن لم أكنْ وفّيتُ فضلَكَ حقَّهُ	ولَمْ أُقرِّبْ بالمدائحِ أَبْعَدَهْ
حسبي شفيعًا أنْ وَفَيْتُ بِحُبِّكُمْ	حُبًّا أباهي في الورَى أنْ أشْهَدَهْ
لكَ في الضّمائرِ مِنَّةٌ ممنونةٌ	إنْ أنْكرَ العبدُ المخبَّبُ سيِّدَهْ
ذكرى وفاتِه زَلْزَلَتْ أحبابَه	فَلْتَجْعَلُوا يومَ البشائرِ مولدَهْ

وفاء الأمومة
في شعر عيسى جرابا

أ. د. بكري محمد الحاج
رئيس مجمع اللغة العربية السوداني

جاءت هذه الورقة سعياً لاستمرار الصلة العلمية مع مجمع اللغة العربية بالشارقة من خلال مجلته المرموقة (العربية لساني). وتتكفل بإلقاء الضوء على النتاج الأدبي لشاعر يمثل جيل الشباب، وهو أحد المتخصصين في اللغة العربية، الذين تعرفوا تراثها الشعري والأدبي، ووقفوا على إمكاناتها التعبيرية الراقية، وعلى نماذج عالية لشعرائها المجيدين، تسند عيسى جرابا ملكةٌ شعريةٌ مطبوعةٌ، استقت من ينابيع بيئة الجنوب في المملكة العربية السعودية، التي لأبنائها قدم راسخة في مساحات الإبداع الشعري.

وتمثل الورقة نمطا لدراسة بينية، تجمع بين اللسانيات، وعلم الاجتماع الذي يعنى بدراسة سلوك الأفراد والجماعات، وتعد الجملة الوعاء اللغوي المبدع، وقد انطلق منها الشاعر لبناء نصوص تحمل أنماطا من الوفاء الأسري، وقد رأى الباحث الوقوف على ترابط النصوص في عينات مختارة، تركز على إبراز قيمة وفاء الشاعر لأمة العزيزة التي فارقته إلى دار الخلود. واعتمد البحث على المنهج الوصفي، وقام هيكله على مقدمة، وثلاثة محاور: عرف المحور الأول بالشاعر عيسى جرابا في لمحة مختصرة، وتكفل المحور الثاني ببيان روافد الوفاء عنده بصفة عامة، في حين أبرز المحور الثالث قيمة الوفاء والبر من قبل الشاعر لأمه التي فجع بفراقها له.

١- المحور الأول: التعريف بالشاعر:

اسمه عيسى بن علي بن محمد جرابا، ولد عام ١٣٨٩ هـ الموافق ١٩٦٩م في قرية الخضراء الشمالية التابعة لمحافظة ضمد من منطقة جازان، جنوب المملكة العربية السعودية. تلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة الابتدائية في الخضراء الشمالية، ثم التحق بالمعهد العلمي في ضمد، وبعده التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وتخرج بدرجة البكالوريوس. عمل مدرسا في معهد صبياء العلمي، وتقاعد عن العمل عام ١٤٣٨هـ.

بدأت كتاباته الشعرية في الظهور منذ عام ١٤٠٩هـ، وقد نشر شعره في صحيفة المسائية عامي ١٤١٣ هـ و ١٤١٤ هـ، ولايزال ينشر أشعاره في العديد من الصحف والمجلات الأدبية. فاز بالمركز الأول في مسابقة " شاعر الوطن، التي نظمها النادي الأدبي بالرياض، بمناسبة اليوم الوطني بالتعاون مع إذاعة الرياض عام ١٤٣٣ هـ وذلك عن قصيدته بعنوان (سيد الأوطان)، وقد تقدم إلى المسابقة أكثر من خمسين شاعراً.

هذا وقد اتخذت أشعاره مدونة لعدد من الأبحاث الجامعية، وأذكر منها تسجيل رسالة للحصول على درجة الدكتوراه في مسار النقد والأدب بقسم اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

٢- بيئة الشاعر:

نشأ عيسى جرابا وترعرع في منطقة جازان، وهي العاصمة الإدارية لهذه المنطقة، التي تقع

في أقصى الجنوب الغربي للمملكة العربية السعودية على ساحل البحر الأحمر.وهذا الموقع جعلها ممراً هاماً للقوافل. ووجود الميناء على البحر الأحمر له أثره في مشاركتها الفاعلة في أحداث التاريخ منذ أكثر من ألفي سنة، فكانت قريش تسلك طريق جازان وهي تقوم برحلتها إلى اليمن والحبشة قادمة من تهامة .

ولا شك أن هذه البيئة التي حظيت بالجمال الطبيعي، من جبال وسهول وخضرة من شأنها أن تكون عونا لإلهام الشعراء والأدباء عموما، ولا عجب أن ينتسب العديد من الشعراء لهذه المنطقة، وتظهر فيها مجموعة من شعراء الجنوب، ومن بينهم شاعر الشباب عيسى جرابا .

٣- المحور الثاني: روافد الوفاء عند عيسى جرابا:

كانت الدراسة الجامعية لجرابا في تخصص اللغة العربية قد تركت بصماتها في نفسه، وأوقفته على موقع الشعراء على امتداد تاريخ العربية، والدين الإسلامي، حيث موقع الشاعر في صدارة الأمة؛ فقد كان هذا للشعراء في العصر الجاهلي.وعند بزوغ فجر الإسلام رأينا الشعراء يسهمون بسلاح الكلمة نصرةً للدين، وكان حسان بن ثابت على رأسهم.

واقتفى عيسى النهج ذاته ، مرتكزا على عقيدته الإسلامية التي يستلهم منها الثبات.والعقيدة مرتكز من المرتكزات في إعلاء قيمة الوفاء وغيرها من القيم عند جرابا، والثبات عليها في وجه التحديات.يقول:

جَبَلٌ أنَا فـي عــزّتي وَثَـبَاتي
وَعَـقِيْدَتي الـغَرَّاءُ سِرُّ حَــيَاتي

من المجتمع الذي تربى على قيمه وموروثاته القائمة على هدى الدين الحنيف،تفاعل شاعرنا مع كل هذا، وأدرك دوره في حياة الأمة، وخير مثال لذلك ما ورد في دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصيدة منها قوله:

إلاَّ رَسُولَ اللهِ مَا أَعْرَاضُنَا وَدِمَـاؤُنَا
أَلاَّ تَـكُــونَ لَــهُ فِــدَى؟!

وعمل على النهوض بواجبه دون تشدد، وينفي عن نفسه هذه التهمة، ويبين أن اللجوء إلى الحوار مسلكه وديدنه. يقول:

وَافْتَحْ مَغَالِيقَ الحِوارِ فَبُلْبُلِي
سَامِي الـرُّؤَى غَرِدٌ أَصِيـلُ المَوْرِدِ

ويسعى عيسى جرابا إلى ترسيخ قيم السماء في النفوس؛ لتسمو بها، ويذكر بما حبا الله به هذه الأمة من نعَم، مثل وجود الكعبة المشرفة التي جعلها الله قياما للناس، وجعل الأفئدة تهوي إليها.يقول مخاطبا إياها، ومبيناً تعلقه بها:

يَا قِبْلَةَ الإِسْلامِ رُوحِي لَمْ تَزَلْ
وَلْهَى وَقَـلْبِـي دَائِـمُ الخَـفَـقَانِ
وَعَلَـى فَـمِي شِـعْـرِي أَصُوغُ حُـرُوفَهُ
لَحْـنـاً يَـنِـمُّ بِـعَاشِـقٍ وَلْهَـانِ

وبالإضافة لهذا فإن للأسرة دوراً أساساً في تنشئة عيسى جرابا فهي«الوسيط الأول بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه... ». ويبدو أن تأثير والدته كان عليه كبيرا، ويتضح هذا من تأثره الكبير بفقدها، بعد انتقالها إلى دار الخلود. وهذا ما سيتم تناوله في المحور الثالث بإذن الله.

٤- المحور الثالث: تجسيد الوفاء لوالدته:

يظهر من شعر عيسى جرابا ورثائه لوالدته أنه كانت له علاقة حميمة وقوية بها ؛ لذا كان وقع فقدها عليه كبيرا ومؤلما، وقد رثاها بأكثر من قصيدة في مرور ذكراها عبر السنين، وفي مناسبات لوفاة أمات أصدقاء

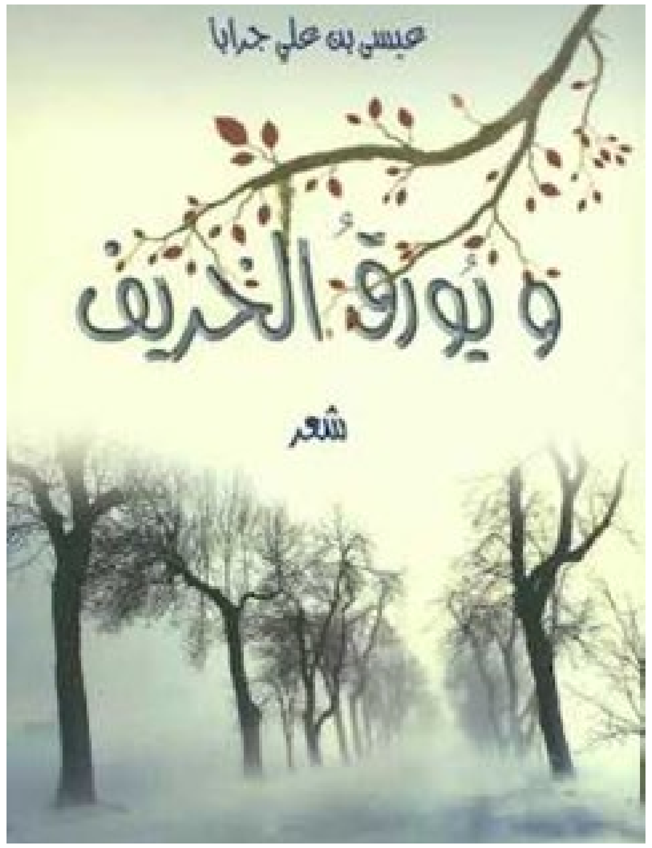

له، أججت في نفسه مشاعر تعلقه بها .وتتجلى في شعره العاطفة الصادقة المعبرة عن الوفاء والبر، بلغة تتابعت فيها الصور البلاغية، وتجاوبت مكونات الجمل المعبرة عن هذا الوفاء لتجسيد هذه الحالة الشعورية. من ذلك على سبيل المثال يقول من قصيدة له في مناسبة مرور عامين على وفاتها:

بَعْـدَ عَــامَيْنِ مِنْ رَحِيلِكِ أُمِّي
وَأَنَـا أَصْطَلِـي بِجَمْرِ انْتِظَارِي
أَشْتَكِي غُرْبَتِي.. فَلا الأَهْلُ أَهْلِي
مُـنْذُ فَارَقْتِـنَـا.. وَلا الدَّارُ دَارِي

وقد جاء صوغ نص الجملة في البيت الأول متجاوبا مع الإحساس العميق بهذا الفقد؛حيث تقدم شبه الجملة (بَعْـدَ عَـامَيْنِ مِنْ رَحِيلِكِ) المتبوعان بالجملة الندائية (أُمِّي) على الجملة الفعلية (أَصْطَلِـي) ذات الفاعل الضمير المستتر الذي عاد على الضمير البارز(أَنَـا) وترابط معه ترابطا لفظيا، واتفق معه في الإفراد والتذكير والتعريف. وهذا أحد أضرب الترابط اللفظي عند علماء لسانيات النص.

ويعبر عيسى جرابا عن إحساسه بالغربة بعد وفاة والدته في قصيدة أخرى بعنوان: مِنْ وَحْيِ البَيْتِ القَدِيْمِ، يقول فيها:

أَرَحَـلْتِ عَـنِّـي أَمْ رَحَـلْـتُ أَنَـا؟
أُمَّـاهُ بَـعْـدَكِ لَمْ أَجِـدْ سَـكَـنَـا!

إلى أن يقول:

أَمْــشِي إِلَى البَـيْـتِ القَـدِيمِ كَـمَنْ
يَمْـشِي إِلَـى السَّجَّانِ مُرْتَهَـنَـا

وفي البيت الأول يقابلنا هذا التكرار الفني الرائع بين الجملتين (رَحَلْتِ و(رحَلْتُ) في هذا الأسلوب الاستفهامي الذي يجسد حضور الوالدة العزيزة في قلب عيسى جرابا .والتكرار وجه من وجوه الترابط اللفظي في علم اللسانيات النصية، ولم يقتصر الترابط اللفظي على التكرار، بل كان للضمائر وجود وحضور، فضلا عن تحقق الترابط المعنوي بين الفعل وفاعله في الجملتين الفعليتين(رَحَلْتِ و(رحَلْتُ).

ويؤكد جرابا هذا الحضور لوالدته، والوفاء لها ولذكراها في قصيدة ثالثة بعنوان لا ترحلي يقول:

ذِكْرَاك مَا تَنْفَكُّ عَنِّي... وَجْهُهَا
نُورٌ وَمِعْزَفُ صَوْتِهَا مَا أَجْمَلَهْ!
عِيْسَى حَبِيْبِي" أَيُّ لَحْنٍ رَقَّ
حَتَّى لَمْ يَعْ فِي مُهْجَتِي مَا بَلَّلَهْ

وفي البيت الأول يتقدم المسند إليه (ذِكْرَاكِ) على المسند والجار والمجرور؛ لكون الذكرى هي التي تسارعت إلى ذهن الشاعر، ولذا تجاوبت عبارة المضاف والمضاف إليه (ذِكْرَاكِ) في التقدم في صدر هذه الجملة«فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق» .

وفي قصيدة من قصائده نراه يتطلع إلى استجابة أمه للقياه كأنه على موعد معها يقول:

وَلِمَ التَّأَخُّرُ؟ أَيْنَ أَنْتِ الآنَ؟
حَانَ الوَعْدُ أَمْ كُلُّ الوُعُوْدِ مُؤَجَّلَةْ؟
مَنْ لِي سِوَاك؟ فَقَدْتُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ
مُنْذُ افْتَقَدْتُ صَلاتَكِ المُتَبَتِّلَةْ

وكانت والدة عيسى جرابا حاضرة في كل مناسبة حزينة، غير أنه كان يستقلها للدعاء لها، والتماس التعزية لنفسه. من ذلك ما قدم به لقصيدةٍ له بعنوان(مَنْ لِي...؟) يقول : «حين رأيت أستاذي الحبيب الشاعر القدير/ محمد بن عبده شبيلي ينفض يديه من التراب بعد دفن أمه، تذكرت يوم نفضتُ يدي... قبل أكثر من عامين فكانت هذه القصيدة تعزية لي وله، ودعاء لأمي وأمه بالرحمة والمغفرة»:

مَنْ لِي إِذَا خَلَّيْتَنِي... مَنْ لِي؟
الفَقْدُ ثَوْبِي... وَالأَسَى ظِلِّي
وَالمَوْتُ سَوْطٌ مِنْ لَظَىً... وَلَهُ
صَوْتٌ... يُقَرِّحُ مُهْجَةَ الطِّفْلِ

وهكذا تجسد هذه المقتطفات من شعر عيسى جرابا قيمة الوفاء من ابن بارٍّ بوالدته، ذي صلة حميمة ضربت بجذورها في الموروث الأسري المترابط، المتكئ على قيم الإيمان والتقوى، المتطلع إلى رضاء الله عز وجل، وقد جاءت النماذج المختارة مترابطة في مكوناتها المؤلفة من الجمل المتتابعة، متسقةً من حيث دلالاتُها على نحو مكَّن الشاعر من التعبير عن مقاصده بوصفه شاعرا متمكنا من ناصية العربية.

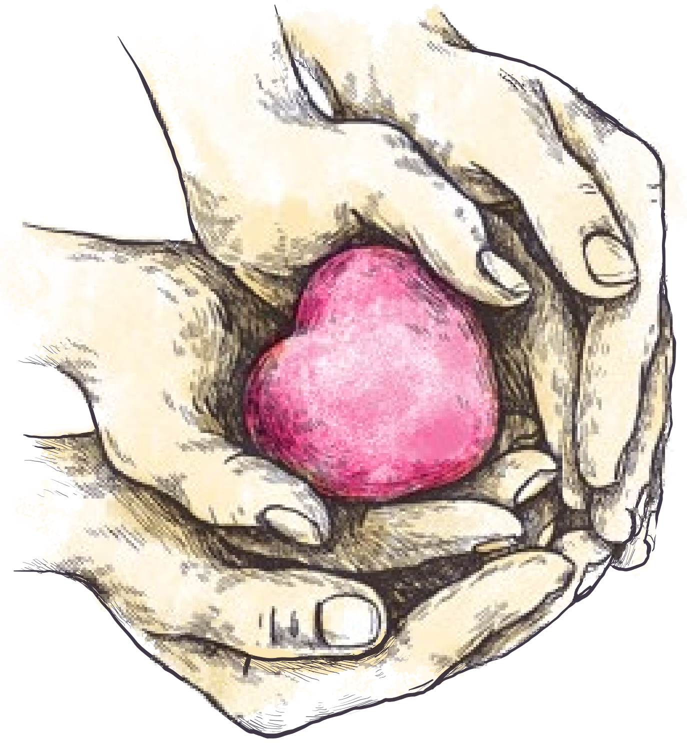

الشعر في مواقع التواصل الاجتماعي

(وقفة مع شعر محمد حماسة عبد اللطيف)

د / أحمد كمال محمد
دكتوراه اللغة العربية، كلية دار العلوم، جامعة الفيوم

لم يبرع العرب الأقدمون في فن من فنون القول براعتهم في الشعر، ولم يكتب لشيء من كلامهم من الذيوع والحفظ ما كُتِبَ له وقد أدرك أهل العربية وعلماؤها للشعر منزلته منذ الصدر الأول؛ فقد روى البيهقي «أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشعر لحكمة»، (السنن الصغير، ج٤، ص١٨٢).

وأشهر عبارة يوصف بها الشعر، وهي (الشعر ديوان العرب)، مرويةٌ عن ابن عباس رضي الله عنه؛ حيث روى البيهقي عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: " إذا قرأ أحدكم شيئا من القرآن فلم يدر ما تفسيره فليلتمسه في الشعر؛ فإنه ديوان العرب". (شعب الإيمان، ج٣، ص٢١٢).

ولعل من أوفى العبارات دلالة على تقدير علماء العربية للشعر قولَ ابن قتيبة :" وللعرب الشِّعرُ الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعًا، ولآدابها حافظًا، ولأنسابها مُقَيِّدًا، ولأخبارها ديوانًا لا يرثُّ على الدّهر، ولا يبيد على مرِّ الزمان، وحرسه بالوزن والقوافي، وحسن النظم، وجودة التحبير من التدليس والتغيير، فمن أراد أن يُحدث فيه شيئًا عسر ذلك عليه، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور"، (تأويل مشكل القرآن، ص١٧-١٨).

والشعر الذي عرفته العربية هو ما التزم الأوزان العروضية المعروفة طبقًا لرؤية الخليل بن أحمد، وهي القصيدة ذات الشطرين أو المصراعين محروسةً بالوزن والقوافي كما يقول ابن قتيبة.

وقد بقي الشعر في حراسة الوزن والقوافي حتى في عصور الضعف المتأخرة التي سيطرت فيها الصنعة اللفظية، ووصف شعرها بالركاكة وضعف المعنى، وظل محروسًا بالوزن والقوافي حتى ظهور حركة الإحياء الشعري في العصر الحديث، ثم خلفت من بعد ذلك خُلُوفٌ دعت إلى التخلص من الوزن والقوافي أحدهما أو كلاهما؛ وزعم زاعم أن الشعر العربي مات بموت أحمد شوقي ميتة الأبد، حكى ذلك شيخ العربية محمود محمد شاكر في (أباطيل وأسمار، ص٩).

وليس يخفى على ذوي العناية بالشأن الأدبي أن شعراء الموزون المقفى قد ضاقت الأرض عليهم زمنًا بما رحبت، فالصدارة في المحافل ووسائل النشر وغير ذلك من بوابات التواصل مع الجمهور صارت لغيرهم، وإن أتيح لهم شيء من ذلك فبقدر ضئيل لا يتناسب مع أصالة هذه النمط الشعري وعراقته، حتى كاد كثير منهم يموت بالسكتة الشعرية على حد تعبير أبي همام عبداللطيف عبد الحليم.

ولكن التضييق الذي لقيه الشعر بصفته التي أسلفنا أعقبته رحابة غير محدودة بانطلاق مواقع التواصل الاجتماعي، ومنها موقع (فايسبوك)، وقد لحظ كاتب هذه السطور - وقد لا يكون منفردًا بهذا- أن الشعر الموزون المقفى ازدهر وراج على نطاق واسع في الفضاء الرقمي بدرجة يصح القول معها إن الشعر العربي يشهد حركة إحياء جديدة كالتي شهدها على يد البارودي، ومن سار على نهجه من الإحيائيين الأولين.

وبالقدر الذي تسمح به هذه المقالة نقف مع شعر الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف (١٩٤١م-٢٠١٥م)، الذي نشره بصفحته الخاصة في موقع (فايسبوك)؛ وكان رحمه الله أستاذًا بدار العلوم، وعضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ونائبًا لرئيس المجمع، وقد صحب اللغة والشعر تدريسا وإبداعًا عدة عقود، وتحولت صفحته مذ أنشأها إلى منتدى أدبي للشعر فيه النصيبُ الأوفرُ؛ وغدت من مواقع التواصل الاجتماعي كما كان المربد وعكاظ من عالم الشعر في ذلك الزمان، (ولكل عهدٍ مِرْبَدٌ وعُكَاظُ).

والتزمت القصائد المنشورة في صفحة الدكتور حماسة

وحدة الوزن ووحدة الروي، وفق ما جرى عليه الشعر العربي القديم، ولم يخرج عن ذلك إلا قصائد مما نظمه في دواوينه الأولى، وكان ظهوره على هذه الصفحة إعادة نشر، لا محض ابتداء.

من موضوعات شعر حماسة في موقع (فايسبوك):

١ - الحنين إلى الشباب:

بكاء الشباب والحنين إليه موضوع مطروق من قديم، " قال أبو عمرو بن العلاء: ما بكت العرب شيئًا ما بكت الشباب، وما بلغت ما هو أهله"، (عيون الأخبار لابن قتيبة، ج٤، ص ٥٠)، ونُقِل عن الأصمعي قوله:" من أحسن ألفاظ الشعر المراثي، والبكاء على الشباب"، (شرح مقامات الحريري للشريشي، ج٣، ص ٢٢٣).

وليس بغريب أن يأسى المرء على فترة زمنية هي بعضُه، وقد تولت بما فيها من قوة وفتوة، وخلفت البعض الباقي منه يقاسي عوادي الدهر.

وقد جرى (حماسة) في شعره بموقع (فايسبوك) على سنن الأولين من الشعراء فبكى شبابه، وأسف لمشيبه، وترى في شعره الموازنة بين الشباب والمشيب بصورة مُبينةٍ عن الصراع الداخلي العنيف الذي يعانيه الشاعر، فالروح وثابة فَتِيَّة لا تعترف بعامل الزمن، والبدن - وقد أثقلته السنون - لا يستطيع أن يساير الروح فيما تهفو إليه، يولِّد ذلك عند من يشعر به إحساسا بالمحنة والقهر لا تمحوها السعادة التي يدركها المرء في بعض أطواره:

كَمْ يَبْتَغِى المَرءُ أَنْ تَبْقى نَضَارُته
يأَبى الزَّمَانُ وَيأْبَى الهَمُّ والحَزَنُ
وَكَمْ تَضِيقُ بِه الدُّنيَا فَيَقْبَلُهَا
وَإِنْ يُردْهَا فَإِنَّ العُمْرَ مُرْتَهِنُ
يَظَلُّ لِلرُّوحِ ما كَانَتْ تُرَاوِدُه
وَلا يُجِيبُ الَّذِى تَهْفُو لَهُ البَدَنُ
هَلْ بَعْدَ سَبْعِينَ أَو خَمْس تُنَاوِشُها
يُطَاوِعُ الجِسْمُ ما للنَّفْسِ يَفْتَتِنُ؟
هذا الزَّمَانُ الذى نَحْيَاهُ، يُسْعِدُنَا
طَوْرًا، وَيَقْهَرُنا طوْرًا، وَيَمْتَحِنُ

٢- الشعر:

حديث (حماسة) عن الشعر كثير، ونقف هنا مع قصيدة جعل عنوانها (الشعر)، وقد رأي فيها أن شعر الشاعر جزء من روحه، يتجسد في كلمات ينظمها استجابة لحوادث الحياة، سواء في ذلك عواصف الحزن وطوائف السعادة، فالمحب واجدٌ في شعره مسلكًا تعبيريًّا عن أشواقه ممتزجًا بالنغم الإيقاعي الذي تكسبه إياه البنية العروضية، وواجد فيه كذلك مواساة لما يعتري القلب من انكسار، والشعر باعث للآمال، مُوقِظٌ من الغفلة، وله تأثيره الحاسم في موقف التراخي والتردد فيستبين به الحق ويثبت به المتردد :

إنّمَا الشِّعرُ شَظَايَا رُوحِنا
تَتَبَدَّى دائِمًا فِي كَلِمَاتْ
تَنْجَلِي لَو عَصَفَ الحُزْنُ بِنَا
أو حَوَانَا طَائِفٌ مِنْ بَسَمَاتْ
تُرْجُمان الحُبِّ في أَشْواقِنَا
ويُجْلِّيه بِعَذْب النَّغَمَاتْ
أَو يُواسِيهِ إذَا مَا انْكَسَرَتْ
مِنْ حُمَيَّاهُ قُلُوبٌ ذَائِبَاتْ
ثُمَّ يَغْدُو شُعْلَةً مِنْ أَمَلِ
أَو نَفِيرًا إنْ تَوَلّانَا السُّبَاتْ
إنْ تَرَاخَتْ أَنْفُسٌ يَومًا غَدَا
رايةً للحَقِّ تَدْعُو للثَّبَاتْ
هَكَذَا كانَ وَيَبقَى أَبَدًا
فِي بَنِي الإنْسانِ في مَاضٍ وآتْ

٣- الحب:

يتمتع الحب بحضور وافر في شعر (حماسة) عبر الفضاء الرقمي، وحديثه عن الحب حديثٌ سامٍ، حديثٌ عن معاناة المحب وأشواقه، ترى فيه من صفات الهوى العفافَ والرقةَ، وفيه من خيال الحالم ما يلائم هذين، ثم هو من بعد ذلك يمر بالقلب مر النسيم، فيفعل فعله فيه، ويبعث في النفس ذكريات ما مضى من أيام بعيدًا عن نبع الحب الجميل، يقول:

هَوَاكِ هَوىً عَفٌّ رَقِيقٌ وَحَالِمٌ
يَمُرُّ كَمَا مَرَّ النَّسِيمُ المُقْبِلُ
فَيَخْطفُ مِن قَلْبِي هَوَاهُ فَأَنتَشِي
فَيَثْقُلُ خَطْوِي تَارَةً ثُمَّ أَثْمُلُ
وَأَذْكُرُ أَيَّامِي الَّتِي قَدْ قَضَيْتُها
بَعِيدًا عَنِ النَّبْعِ الجَمِيلِ فَأَخجَلُ

وتراه خصص إحدى القصائد للحديث عن ماهية الحب على نحو ما فعل مع الشعر، فجاءت بعنوان (سؤال وجواب)، وفيها حوار بين الشاعر وسائلةٍ عن ماهية الحب:

قَالَتْ، وفِى صَوتِها قَدْ أَحْكَمَ الضِّيقُ
خنَاقَهُ؛ فَهْوَ تَرْجِيعٌ وتَمْزِيقُ
يَا سَيِّدى هل لَدَيكَ اليَومَ أَجْوِبَةٌ
عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي يَعْلُوه تَغْلِيقُ
فَقُلْتُ هَاتى سُؤَالًا لَا يُلَجْلِجُه
خَوفٌ وَلَا يَعْتَلِيه مِنكَ تَحْلِيقُ
قَالَتْ: فَمَا الحُبُّ؟ هَذَا مَا يُلَجْلِجُنِي
ومَا أَصَابَ فُؤَادِي مِنْهُ تَأْرِيقُ
هَذَا الَّذِي حَيَّرَ المَاضِينَ كُلَّهُمُ
وكُلُّ قَولٍ لَهُم فِيه تَفَارِيقُ

د. محمد حماسة عبد اللطيف

سائلة حائرة قلقة لم تقنعها أقوال الماضين في تعريف الحب، لديها سؤال واحد تطلب له أجوبةً لا جوابًا واحدًا، وقد سقطت على خبير أجابها برأيه في الحب إثباتًا ونفيًا :

فَقُلْتُ قَوْلًا جَرَى مِنْ غَيرِ فَلْسَفَة
الحُبُّ نُورٌ وإِيمَانٌ وتَصْديقُ
وليسَ شَكّا وتَكْذِيبًا وَوَسْوَسَةً
فَغَيرُ ذَلِكَ تَعذِيبٌ وَتَضْيِيقُ
وَلا عَلَيْكِ فَإِنَّ الحُبَّ مَرْحَمَةٌ
وَشَوقُه خَمْرَةٌ والقَلْبُ إِبْرِيقُ

والحبُّ كما عبر عنه (حماسة) فاعلٌ قوي التأثير، وتيار جارف يبدد جسد المحب، ويفرق ضلوعه، ولا غرابة في ذلك؛ فَثَمَّ القلبُ الذي يحس وينبض، وينصهر بالحب، فينطقه الشاعرُ شعرًا :

مَا الذِى يَسْتَقِرُّ بَيْنَ الحَنَايَا
يَجْعَلُ الرُّوحَ والإِطَارَ بَقَايَا
أَهْوَ قَلْبٌ يَدُقُّ بِالحُبِّ حَتَّى

فَرَّقَ الجِسْـمَ والضُّلُـوعَ شَظَـايَـا
أو هوَ الرُّوحُ شَفَّ بالجِسْمِ حَتَّى
حَـوَّلَ الجِسْـمَ والبَقَايَا مَـرَايَـا
أو هيَ النَّفْسُ شَعْشَعَتْ بضِيـاءٍ
فَتَجَلَّـتْ نُجُومُـهـا فـي سَـمَـايَـا
أوْ هوَ الحُبُّ يَصْهَرُ القَلْبَ شِعْرًا
فَيُذِيـبُ القُلُـوبَ بَيْـنَ الخَـلَايَـا

٤- الشكوى:

نلحظ في بعض شعر حماسة الشكوى من جحود أهل زمانه وما لقيه منهم في محنة طبقت شهرتها الآفاق في وقتها؛ فكانت هذه النفثة التي عنونها بـ (جزاء سنمار) التي قيل – وليس كذلك – أنها آخر ما نظم من الشعر قبيل وفاته، يقول:

لَمْ أفعَلِ العُرْفَ لا خوفًا ولا طمَعًا
لكنَّهُ اللهُ والأَخْـلَاقُ والـدَّارُ
ما كُنْتُ أبْغِي سِوى حُسْنِ الوِدادِ به
وَقَدْ جُزِيتُ كَمَا يُجْزَى سِنمَّارُ
يَكْفِي جَزَائِي أنِّي قَدْ سَعِدتُ بِمَا
أَتَيْتُ مِنْ عَمَلٍ، واللهُ أَخْتَارُ

ما يقدمه موقع (فايسبوك) للشعر:

يستطيع الشاعر أن ينشر في صفحته ما يريد دون قيود شكلية، أو كمية، أو موضوعية، ويمكن الاعتماد على بيانات الموقع في التأريخ الدقيق لكثير من القصائد المنشورة، وهي تلك القصائد التي ينشرها الشاعر للمرة الأولى، ولا يصاحبها من القرائن ما يدل على مغايرة تاريخ نظمها لتاريخ إبداعها، ولا يتوفر لها من معاينة تعديلات ما يؤكد أنها لها تاريخًا رقميًا سابقًا.

كما يسهم النشر في هذا الموقع في سرعة انتشار القصيدة؛ حيث يستطيع الأصدقاء أن ينشروا القصيدة على صفحاتهم سواء أكان ذلك بالنسخ وإعادة النشر أم بخاصية المشاركة، وعلى سبيل المثال وصل عدد مشاركة قصيدة (جزاء سنمار) إلى تسعمائة وإحدى وسبعين مشاركة حتى وقت كتابة هذه السطور.

وهناك أمران يقدمها (الفايسبوك) لمنشوراته بعامة، ومنها الشعر، نقف عندهما يسيرًا فيما يلي:

١. تتبع تطور القصيدة وصولًا إلى صيغتها الأخيرة:

يمكن تتبع تطور القصيدة حتى وصلت لشكلها المنشور من خلال معاينة التعديلات التي أجراها الشاعر في سجل التعديلات، إن كان ذلك متاحًا، ومثال ذلك قصيدة (جزاء سنمار)؛ فقد نشر (حماسة) البيتين الأول والثاني يوم (٢٠١٥/١٢/٢٩م) في الساعة (١١:٣٠م) ثم أضاف البيت الثالث في الساعة (١٢:١٧ص) يوم (٢٠١٥/١٢/٣٠م) أي بعد سبع وأربعين دقيقة من نشر البيتين الأول والثاني.

وتستطيع متابعة تطور تشكيل القصيدة من إعادة نشرها بصورة مختلفة، ومن ذلك قصيدته التي نشرها في الساعة (٥:٣٦م) من يوم (٢٠١٥/١٢/١٧م)، يقول فيها:

أَنْتَ الهَوَى والشِّعْرُ والغَزَلُ
لَا تَعْتَبِـي، ولْيُشْـرِقِ الأمَـلُ
فَجُذُورُكُمْ في الرُّوحِ ضَارِبَةٌ
والقَلْبُ عَنْكُـمْ لَيْـسَ يَنْتَقِـلُ
مَا ضَرَّ هَذا الحُبَّ أنْ ذَهَبَتْ
عَيْنٌ مَـعَ الأزْهَـارِ تَرْتَحِـلُ
أَنْتِ التي في القَلْبِ صُورَتُها
دَوْمًا بِها الأَحْـدَاقُ تَكْتَحِـلُ

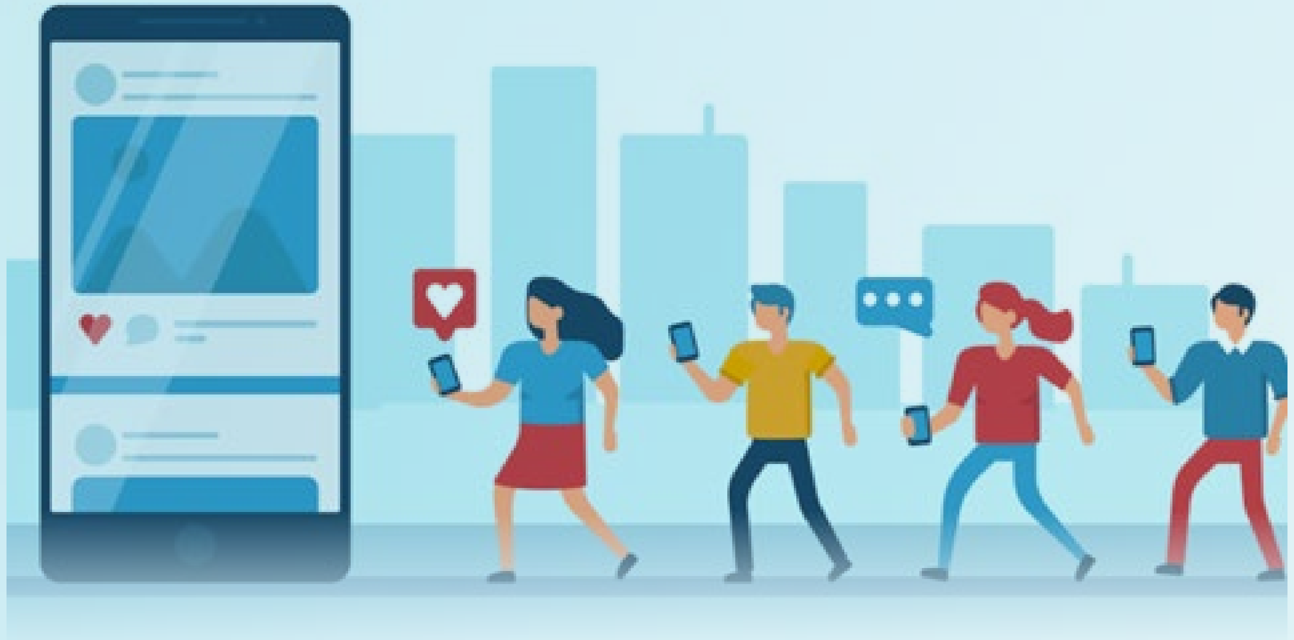

لا يَرتَجِي مِن غَيْرِها أَمَلًا
ذا أَنَّـهُ مِـنْ حُبِّهَـا ثَمِـلُ
يَا فِتْنَتِي أَنْتِ السَّبِيـلُ لَـهُ
لو أَظْلَمَـتْ أوْ حَـارَتِ السُّبُـلُ
لو أَبصَرَ العُـشَّـاقُ فِتْنَتَهَـا
لَتَعَلَّمُوا. إنِّي لَهُمْ مَثَلٌ فيمَ العَذَابُ؟
وفِـيـمَ حُـرقَـتُـهُ؟
خَلِّيهِ لِي. ولْتَضْحَـكِ القُبَـلُ
فَلْتُشْرِقِي بالحُبِّ مُؤْتَلِقًـا
ولْتُقْبِلِي، ولْيَذْهَـبِ الخَـجَـلُ
وإذَا نَهاكَ عَنِ الهَوَى وَجَلٌ
قُولِي لَهُ ارحَلْ أَيُّهَا الـوَجَـلُ

فقد سبق نشرها يوم (٢٠١٥/١٢/١٥م) في الساعة (٥:٢٢م)، وبمقارنة النشرتين تبين أن الشاعر عدَّل في القصيدة فاستبدل (وليشرق الأمل) بـ(وليزهر الأمل) في البيت الأول، واستبدل (ذا أنه) بـ(ألأنه) في البيت الخامس، واستبدل (حارت) بـ (ضاقت) في البيت السادس.

ومن البَيِّن أن إجراء مثل هذه التعديلات من قبل الشاعر وتتبعها من قبل المتلقي قد لا يتاح بيسر في حالة النشر الورقي.

٢. التفاعل بين الشاعر والجمهور:

يزيل النشر الرقمي الحجب بين الشاعر والمتلقين، فيمكن للمتابعين والأصدقاء أن يبدوا آراءهم ونقدهم على القصيدة موافقة وخلافًا، إجمالًا أو تفصيلًا، ويمكن للشاعر أن يتلقى هذه الاستجابات فور صدورها أو بعد حين، وأن يتفاعل معها بالقبول أو المحاورة.

من هذه الاستجابات ما هو إبداعي صادر عن أصدقائه من الشعراء، فكثير منهم كان يعلق على قصائد حماسة بقصائد من نفس الوزن والروي، مثال ذلك أنه نشر قصيدته:

أَشْعَلَ الجَمْرَ بِقَلْبِي وَمَضَى
مَا الَّذِي أَفْعَل فِي جَمْرِ الغَضَا
أَتُرَاه مُطْمَئِنًّا بَعْدَمَا
هَنأَ النَّفْسَ بِأَحْكَامِ القَضَا
إِنَّ مَا بِالقَلْبِ لَو أَطْلَقْتُهُ
مَلأَ الأَكْوَانَ أَرْضًا وَفَضَا
لَيْسَ لِي فِي حُبِّهِ مِنْ أَمَلٍ
كَيْفَ - يَا عُمْرِيَ - وَالعُمْرُ انْقَضَى
إِنَّنِي أَهْوَى الَّذِى يَأْتِي بِهِ
غَاضِبًا جَاءَ بِهِ أَوْ فِي رِضَا
فَلِذَا أَرْفُضُ مَا يَرفُضُهُ
وَأَنَا أَقْبَلُ مَا مِنْهُ ارتَضَى
نَحْنُ رُوحٌ وَاحِدٌ قُسِّمَ فِي
جَسَدَيْنَا، وَبِذَا اللهُ قَضَى

أَيُّهَا المُمْعِنُ فِي إِعْرَاضِهِ
مَهْ فَمَا قَلْبِيَ يَوْمًا أَعْرَضَا

فأجابته الأستاذة هُدَى مِيقَاتِي في تعليقٍ، تقول:

آهِ مِنْ جَمْرِ الهَوَى فِي مَا حَوَى
مِنْ لَهِيبٍ جَازَ أَجْوَازَ الفَضَا
مِنْ بَخُورِ القَلْبِ يَسْرِي عِطْرُهُ
نَاشِرًا فِي الكَونِ أَنْفَاسَ الرِّضَى
كُلَّمَا أَذْكَتْهُ أَنْسَامُ الغَرَام
ضَاعَ، شُكْرًا لِلقَضَا فِيمَا قَضَا

ومن استجابات متابعي شعر حماسة ما تضمن بعض التحليلات والتعليقات النقدية، ومن أمثلة ذلك قصيدته التي قال في مطلعها:

مَالِي أَرَى الذِّكْرَى بِقَلْبِي تَصْفَعُ
وَتَرجُّهُ مُهْتَاجَةً وَتُصَدِّعُ

يقول الناقد الدكتور أحمد فرحات معلقا: " الأفعال ذوات الدلالات النفسية الحادة، من جهة، والمضعفة، من جهة أخرى، جعلت النص متماسكًا، من حيث البنية الصغرى، وجلال الموضوع وهيبته، وصبه في قالب تقليدي، جعل من النص أيقونة شعرية لها مهابتها وقدسيتها الفنية، ونستطيع في ختام هذه المقالة التأكيد على أن الشعر العربي بصورته الأولى مازال متقد الجذوة قابلا للإفادة من التطورات الرقمية ومواقع التواصل الاجتماعي بوصفها وسائط نشر تضمن قسطا وافرا من الحرية والذيوع، وتضمن كذلك حرية التفاعل بين الشاعر ومتلقيه، ويستطيع الباحثون أن يجدوا في هذه الصفحات مادة وفيرة للبحث والدرس؛ فما اخترناه من صفحة الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف هو قليل من كثير تفيض صفحات الشعراء في الفضاء الرقمي.

آيــة العدالــة

من جلال القرآن العظيم وأمارات إعجازه ودلائل العدل في آياته الكريمات؛ أنه يخاطب العالمين جميعاً، لأنه أُنزل إليهم كافّةً، مبشّراً ونذيراً، فكان قَمِناً بكلِّ إنسانٍ أن يتفكّر في آيه، ويتدبّر أوامره ونواهيه، وتشريعاته وأحكامه.

واختيارُ الله - عزَ وجلَ - العربيةَ لتكون لغةَ لكتابه الخاتَم (القرآن الكريم)؛ ليس لتفضيل عِرقٍ على عِرقٍ أو قومٍ على آخرين، بل قضى سبحانه وتعالى أن يختم كتبه المنزلة بقرآن مكتوب باللغة العربية ناطق بها، لحكمته العليا وعلمه المطلَق بأن هذه اللغة فيها من غزارة المفردات والعبارات، ودقائق المعاني وشمول المفاهيم؛ ما لا تقوم به لغة أخرى من لغات الناس.

أ. حسن جمعه الرئيسي
مستشار قانوني

آية العدالة:

من جماليات اللغة العربية وملامح عبقريتها وإعجازها، أننا نجد آية كريمة واحدة أو بضع آيات تبني منظومةً متكاملةً في علم معين، أو جانب من جوانب حياة الإنسان ومعارفه وأنشطته؛ ومن بارع الأمثلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]

وهذه الآية الجليلة الفاذّة يَجْمُلُ بنا أن نَسِمَهَا باطمئنان بأنها (آية العدالة)، ذلك أنّنا من تَدَبُّرِ معانيها وعطاءاتها؛ يمكننا أن نستخلص (مفهوم العدالة القضائية وبعضاً من آليات تطبيقاتها)، ولسنا نتناولها بتقصّي نتاجات المفسِّرين والحُكم على آرائهم بالترجيح أو التقرير، بل نستقرئُ ألفاظها وعباراتها وتوجيهاتها من منظورٍ قانونيٍّ صِرْف.

ياء النداء:

بدأت الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ دون أن تسبقها (ياءُ النداء) التي غالباً ما تأتي في الآيات التي تحمل الأوامر والتوجيهات والإرشادات والبشريات وغيرها من الرسائل مثل: ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾، ﴿يا أيّها الناس﴾، ﴿يا داوود﴾، ﴿يا موسى﴾، ﴿يا يحيى﴾، ﴿يا مريم﴾، وغيرها من أدوات النداء، وهذا يعود إلى دقّة التعبير وعمق معانيه وسَعَةِ إيحاءاته.

فهي لم تبدأ بياء النداء ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾ مثلاً، لأنها موجَّهة للنّاس عامّة، بعيداً عن كونهم مؤمنين أو غير مؤمنين. كما أنّها لم تبدأ بالمناداة ﴿يا أيها الناس﴾؛ لأنّ هذه الآية – كما سنرى – تجمع بين المخاطبة العامّة لجميع البشر، والمخاطبة الخاصّة لفئة معينة هي جماعة القضاة الذين يقضون بين النّاس، وكما هو معلوم فإنّه ليس جميع النّاس يتولون القضاء حتى تأتي الآية بمخاطبتهم بـ ﴿يا أيّها الناس﴾.

ولم تناد آية العدالة على شخص معيَّن وتذكُره بالاسم كما جاء مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]

> **لا تناقضَ ولا تعارضَ بين أن يأمر الله بأن يُحكم بالعدل أو يُحكم بالحقّ، ويمكن أن نجمع ذلك في مصطلح قانوني واحد (تطبيق العدالة يقود إلى الحقّ).**

العدل طريق الحقّ وسبيله:

ومما يلفت نظرَ المتدبِّر أن (آية النساء) فيها أمر بأن (يحكم بين الناس بالعدل) بينما في (آية ص) جاء الأمر بأن (يحكم بالحق)، فالذي يُلمح من ذلك أنّ (آية ص) جاءت مخاطبةً للنبيِّ داود – عليه السلام – في زمن معين ومكان محدّد وفي قضية حقوقية معينة وُضِعَتْ بين يديه، أمّا (آية النساء) فمدلولها شموليّ للنّاس عامّة.

كما أنّه لا تناقضَ ولا تعارضَ بين أن يأمر الله بأن يُحكم بالعدل أو يُحكم بالحقّ، ويمكن أن نجمع ذلك في مصطلح قانوني واحد (تطبيق العدالة يقود إلى الحقّ).

وهذه الآية وما بعدها من الآيات علَّمَتْنَا الكثيرَ من الدروس في القانون، منها أنّ من العدالة القضائية وجوبَ أن يستمع القاضي للخصمين، لا كما فعل داود عليه السلام حيث استمع للمدَّعي وأصدر الحكم قبل أن يسمع حجة المدَّعَى عليه. كذلك فإنّ من العدالة إستئنافَ الأحكام وإعادةَ النَّظر فيها إذا تبيَّن أنها أحكام خاطئة؛

فلهذا خرَّ داود راكعاً وأناب، وكما هو معلوم أن في ركوع الإنسان خضوعاً لسلطةٍ أو أمرٍ أعلى منه.

إنَّ الله يأمركم:

ومن دلائل إعجاز هذه الآية الكريمة أن كل مفردة منها قد اختيرَتْ لتؤدِّي الغرضَ المطلوبَ تماماً ولا تُغْني عنها مفردة غيرها، فكلمة (يأمركم) تسدُّ على الإنسان باب الاختيار بأن يَحكم بغير العدل، فهو ملزَم بتطبيق العدالة. ولفظة (يأمركم) من أرفع درجات الحزم والوضوح الذي لا تأويل معه، وبعدها تأتي الرسائل الأخرى كالطلب، والتوجيه، والإرشاد، وغيرها من الكلمات المماثلة.

أن تؤدّوا:

بعد ذلك يأتي الأمر بأداء الأمانات (أن تؤدّوا)، وغنيٌّ عن البيان أن هذا الحرف (أن) هو عند اللغويين للتأكيد وإزالة أي شكٍّ أو احتمالٍ أو لُبْسٍ في الأمر.
ثم إنَّ اللفظة التي تليها (تؤدّوا) تفيد معنًى لا تستطيع أداءه كلمة أخرى بديلة مثل (تعطوا)، أو (تسلّموا) ونحوهما، فكلمة (تؤدّوا) في معناها الجليل العميق أمر بأن يقوم الشّخص من خلال أداء الأمانة بإبراءِ ذمّته وتسليم الشَّيء الذي لا يملكه إلى صاحب الحق.
أمّا (تسلّموا) و(تعطوا) وغيرهما من المرادفات؛ فهي غير ملزمة، فقد يسلّم الشّخص الشَّيءَ الذي بحوزته للآخرين تفضُّلا وتكرُّماً وليس إبراءً للذمَّة كما هو في حالة (أن تؤدّوا).

الأمانات:

ومن سياق ما جاء في الآية الآمرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ نجد أنّها بيَّنت بجلاء أنّ الأصل أداء الأمانة طوعاً، والاستثناء هو أن يَفزع النّاس إلى القضاء، وبهذا وُضِعت قاعدة العدالة الاجتماعية لاستقرار المجتمعات.
وكلمة (الأمانات) في الآية جاءت بصيغة الجمع، وهي بذلك تُظهِرُ تعدُّدَ الأمانات وتنوُّعها، وأنّها ليست واحدة، ولا يمكن حصرها في مجموعة معيّنة أو فئة مخصوصة.
والقرآن الكريم في هذه الآية يحجز النّاس عن أن يبغي

بعضهم على بعض، أو يأكل أحدهم مالَ الآخر، وإذا وقع تعدٍّ من أحدهم، فالقضاء هو الملجأ والفَيْصَل، ليأخذَ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه. ولذا حثَّ الحق سبحانه النّاسَ على أن يؤدّوا أماناتهم، ويبرئ كل منهم ذمّته، وبهذا يتحقق أداء الأمانة كما فرضَتْها آية العدالة، وإذا أنْعَمْنا النّظر في أسباب القضايا التي تنظر المحاكم فيها؛ فسنجد أنَّها ناجمة عن عدم أداء الأمانة.

إلى أهلها:

وقد استوقفتني هذه اللفظة (أهلها) وتساءلتُ: لماذا جاء التعبير بها، ولم يأتِ بمرادفات لها مثل: (أصحابها، مستحقّيها..) ونحوها؟ وعندما أُحيلُ هذا السؤال إلى القانون الذي يعتمد على صياغة النص المكتوب؛ أجدُ أنه لا يمكن لكلمة أن تتصدّى لمن يريد هَضْمَ الأمانة فتقطع عليه أي تلاعب أو تأويل مثلُ كلمة (أهلها)!
كما أن لفظة (أهلها) تُفيد وجوبَ تسليم الأمانة إلى مَنْ هو أهلٌ لاستلامها، وليس لأيِّ شخص آخَرَ حتّى لو كان هو صاحب الأمانة أو مستحقّها، لأنّه قد يطرأ طارئ يمنع صاحب الأمانة ومستحقها من استلامها لفقده أهليَّته: كالوفاة أو الجنون أو الحَجْر، أو غيرها من الأسباب التي تُفقد الشخصَ أهليَّته سواءً بصورة دائمة أو مؤقتة، وفي حالة الخلاف بتعيين من (هو أهلها) فالآية شرّعت أن يتمَّ الاحتكام إلى عدالة القضاء وأمانته.

وإذا:

وقوله تعالى في الآية (وإذا) هي هنا شرطية أي أنه حتمٌ لازمٌ لاخيار معه للقاضي أو من يقوم مقامه أن يَحْكُمَ بغير العدل إذا ما عُرِضَت عليه دعوةٌ قضائيةٌ.
كذلك تبيِّن (إذا) أنه ليس من الضروري أن يتمَّ عَرْضُ كل نزاع أو خصومة على القضاء، فقد يكون هنالك مَن يتنازل عن حقِّه لتحقيق مصالح أكبر، أو مَن يحتسب أجرَهُ عند الله ويُؤْثِر الصبر تقديراً للظروف وواقع الحال.

حكمتم:

ولمتدبِّر الآية أن يسأل: لِمَ جاء في الآية قوله تعالى (حكمتم) دون ما يُقاربها مثل (قضيتم)؟! وعند دراسة فقه اللغة والمعاني نجد أنّ كلمة (قضيتم) ونحوها متضمَّنةٌ ومشمولةٌ في مدلول (حكمتم) التي هي أعمُّ وأشملُ في معناها ومدلولها.
ومع اعتبار أنّ نزاعات النّاس وخصوماتهم متنوّعة ومتشعّبة ولا يَحصرها زمان ولا مكان، وكذلك طُرُقُ فَضِّ تلك النزاعات وآلياتُها مختلفة من زمنٍ إلى زمنٍ، ومن مجتمعٍ إلى آخرَ؛ فإنّ الكلمة الشّاملة دائماً هي الأنسب من الكلمة المحدّدة أو المقيّدة.

بين النّاس:

وعبارة ﴿وإذا حكمتم بين الناس﴾ التي وردت في آية العدالة أكّدت عالمية القرآن الكريم، وأنّه لم يأتِ لجنس معيَّن أو أمَّة مخصوصة؛ لهذا نَصَّتْ آية العدالة على أنّ جميع الناس على اختلاف أجناسهم وانتماءاتهم ومشاربهم، المسلمَ منهم الذي يؤمن بالقرآن، وغيرَ المسلم الذي لا يؤمن به وبما جاء فيه؛ جميعُهم متساوون في تحقُّق العدالة بينهم أثناء المحاكمات.

فاحكموا بالعدل:

عندما يَفزع الإنسان إلى القضاء لأخذ حقِّه؛ فهو يرجو من عدالة المحكمة أن تنتزع حقَّه ممن غَصَبه إيَّاه، ولذا أمرت آية العدل القاضي أن يَعْدِل في إجراءاته، وأن يتبيَّن صِدْقَ ادِّعاء المدَّعي، فقد يكون فاسقاً يحمل نبأً فيه من البُهْتان والزُّور ما يرمي به بريئاً، وإذا تحقّق عنده صِدْقُ

المدعِي فعليه أن يكون عَدْلاً مع المدَّعَى عليه ويُمكِّنَه من أن يأتي بدفاعه فيبيِّن وجهةَ نظره فيما ادُّعِي بهِ عليه، ليتمكّن القاضي من خلال إجراءاته العادلة من إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

ولسائلٍ أن يقول: لماذا أمر الله أن يكون الحُكْم بين الناس بالعدل، وليس بشيء آخر كالرحمة أو الرأفة أو الحِلْم أو الكِيَاسَة أو الحزم أو القوة أو غيرها من الصفات؟ والجواب: أنّ العدل يشتمل جميع ذلك ويحتويه، فعلى سبيل المثال: إذا أمر الله تعالى القاضي بالحُكم بالرحمة بين الناس، فقد يستغل بعضهم ذلك بارتكاب الجرائم المختلفة ثم يطلب الرحمة والعفو بعد اعتدائه على حقوق الآخرين، وهذا يؤدي إلى ضياع الحقوق وتمادي من لم تَرْدَعْه العقوبة، وقد قيل: من أَمِنَ العقابَ أساءَ الأدبَ!

إنَّ الله نعمّا يعظكم به:

وقول الحقّ هذا فيه ترغيب للنّاس في التزام أداء الأمانة وإجراءات العدالة؛ لأنّه سبيل الفلاح لهم والصلاح لمجتمعهم. كذلك لم يصرح في الآية بتوعُّدِ المخالفين بالعذاب والويل وما يقاربهما بصورة مباشرة، ولكنه ذَهَبَ إلى إجراءات العدالة الربَّانيّة؛ حيث أنّه لا يفوته – سبحانه – شيءٌ لأنّه سميع بصير، فإذا عجز المظلوم عن أخذ حقّه، أو تخَلّف القضاء عن واجبه في تطبيق العدالة؛ فإنَّ هناك سلطةً أعلى وأعظمَ ستتخذ مقتضيات العدالة، والتي لم تحدِّد موعدِها أَهِيَ في هذه الدنيا أو يوم الحساب!

إنَّ الله كان:

ومدلولُ (كان) يشير إلى حَدَثٍ وقع في الماضي، والتعبيرُ بها هنا يوحي بأنّ الآية كأنّها تقول: إنَّ كل أفعالكم وتصرّفاتكم بشأن أداء الأمانة هي محفوظة، ولن تَسقط بمضيِّ الزمن كما هو موجود في بعض التشريعات؛ لأنّ الله سميع بصير، ويُمهِل ولا يُهمِل.

سميعاً بصيراً:

ومن اللطائف التي تفيض بها هذه الآية ما جاء في ختامها وهو قوله تعالى: ﴿سميعاً بصيراً﴾، وليس (عليماً، حكيماً، قديراً..) أو ما شاكله، فمن النّاحية القانونية نجد أنّ ذلك يتّسق مع سياق آية العدل التي يكون فيها للسمع والبصر دورٌ في ما يتخاصم به النّاس؛ فمن يُنْكِر حقًّا عليه: إمّا أن ينكره سمعياً أو بصرياً، وإذا أراد غَريمُه إثباتَ حقِّه فعليه أن يأتي ببيِّنةٍ مسموعة أو إظهارها للنّظر فيها.

ولأنَّ القرآن الكريم كتابٌ لم يتوقَّف في عطاءاته مع تطوّر المجتمعات والتقنيات؛ فكأنه شَرَعَ لنا في هذا العصر أن يتَّم تثبيتُ بعضِ المعاملات والإجراءات سمعياً وبصيراً، بحيث يتمُّ استخدام التقنيات في ضبط أداء الأمانات؛ سواء أكان ذلك باستخدام آلات التصوير، أو تسجيل الأصوات.

> **"القرآن الكريم كتابٌ لم يتوقَّف في عطاءاته مع تطوّر المجتمعات والتقنيات؛ فكأنه شَرَع لنا في هذا العصر أن يتَّم تثبيتُ بعض المعاملات والإجراءات سمعياً وبصيراً، بحيث يتمُّ استخدام التقنيات في ضبط أداء الأمانات؛ سواء أكان ذلك باستخدام آلات التصوير، أو تسجيل الأصوات."**

اللّغة العربيّة والإعلام الجديد

حظي الإعلام بشقيه التقليدي والجديد بتدارس مكثّف، في مختلف الحقول المعرفية الإنسانية والاجتماعية، واستنادًا إلى مرجعيات متنوعة، ومشارب أيديولوجية متعدّدة؛ ومردّ ذلك خطورة الوظيفة التي يضطلع بها في الحياة المعاصرة، إذ أطلقت عليه نعوت وأوصاف كثيرة، وصلت حد وَسْمه بالسّلطة الرابعة، تبيانًا لما له من تأثير في توجيه الرأي العام إقناعًا أو تضليلًا. ودليل ذلك أنّ حقلًا معرفيًا كاملًا امتلك شرعية التأسيس والاستقلالية ضمن دائرة العلوم المشار إليها آنفا، وحاز اعتراف المؤسسة الاجتماعية والأكاديمية والسياسية، ونقصد به علوم الإعلام والاتصال، مما حدا بفاضل البدراني إلى الترجيح في إحدى دراساته : أن يكون أكثر فاعلية من سلاح المدفع أو الطائرة أو الدبابة، وإذا كان الاقتصاد ذا أهمية قصوى في حياة المجتمعات ونهضتها؛ فإن نجاحه لا بدّ من أن يرتبط بحركة الإعلام الذي يعد النافذة الأساسية له في السوق المحلية والاقتصادية.

د. محمد خاين
أستاذ بالمركز الجامعي
أحمد زبانة بغليزان، الجزائر

وما يهمنا في مقامنا هذا هو لغة الإعلام التي شغلت اهتمام الدارسين، وفق منظورات عدّة، لا على أساس وظيفتها التواصلية فحسب، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان، وإنما نُظر إليها على أنها وسيلة لممارسة السّلطة، بما تحقّقه من تأثير ضاغط على المتلقي المفترض لها، وهو الأمر الذي نجم عنه حديث عن لغة الإعلام واللغة الإعلامية، والسمات الفارقة للغة الموظفة إعلاميًا، ممّا أوصل إلى بروز لغة جديدة يمكن القول عنها: إنّها لغة داخل اللغة معجمًا ودلالةً وتركيبًا.

وسنعمل من خلال هذه الصفحات على تقديم توصيف نزعم أنّه إسهام في ترشيد الممارسات اللغوية، وترقيتها في حقل الإعلام بعامة والجديد بخاصة، مستندين في ذلك على معاينتنا للعربية المكرّسة بفعل التداول على صفحات وفضاءات شبكات التواصل الاجتماعي، كما نبغي من هذا الإسهام تشكيل وعي معرفي مؤسّس ومؤصّل علميًا عن حقيقة اللغة في هذا القطاع الحسّاس الذي فرض حضوره في كل مفاصل الحياة المعاصرة.

وتفرض علينا هذه الوقفة بعض التحديدات المفاهيمية، تبدأ أولا بمفهوم الإعلام الجديد، ثم نعرج على لغته توصيفًا وتمثيلا؛ إذ يلحظ المتأمل في المفاهيم المساقة لهذه الظاهرة المقترنة بتكنولوجيا الاتصالات، ورقمنة النص والصوت والصورة، والتي اشتهرت في الآونة الأخيرة بالإعلام الجديد، تعددًا وتباينًا في التسميات، وعدم استقرار حول مفهوم واحد جامع مانع يرجع إليه المشتغلون في هذا الحقل والمهتمون به؛ إذ إنّه وعلى الرغم من القفزة النوعية التي عرفها هذا القطاع؛ فإنّه في عُرْف عباس مصطفى صادق :"مازال في بعض جوانبه حالة جنينية لم تتبلور خصائصه الكاملة بعدُ".

وعليه ارتأينا الانطلاق في إثبات حالة عدم الاستقرار على مفهوم واحد، وذلك بفعل كثرة المصطلحات التي يحال بها على هذه الظاهرة الجديدة في حقل الإعلام للدلالة على اختلاف الرؤى؛ فهو في نظر بعضهم إعلام رقمي، وعند فريق ثان إعلام تفاعلي،كما عرف بالإعلام الشبكي، وذهب آخرون إلى أنّه إعلام سيبرني، في حين اتجه طرف خامس إلى أنّه إعلام معلومات، وسَمّتْه جماعة أخرى إعلاما فائقا-متفرعا-، واستقرت جماعة مخالفة على أنّه إعلام الوسائط المتعددة.

وعليه أمكن لنا ردّ التسميات إلى كونه اكتسبها من خلال مفارقته للإعلام التقليدي من حيث إنّه: تفاعلي في عمومه، ويستثمر تكنولوجيا رقمية بوساطة الخط أو بدونه، ويتمحور حول المستخدِم، ويشتغل في الزمن الفعلي بفضل خاصيته التفاعلية، ويتجاوز الحدود، وكون معلوماته ذات حياة محدودة، وأنّه ينفلت من المراقبة والضبط، وكلفته زهيدة، ولا يحترم دومًا معايير وأخلاقيات الإعلام والصحافة.

وهو ما يدفع الناظر إلى أن يلحظ في العناوين المساقة لتعيين هذه الظاهرة الجديدة، أنها انطلقت في كل اسم مما ذكر آنفا من خاصية جزئية يتسم بها هذا القطاع، وأغفلت بقيتها، ومن ثمة لم يقع الإجماع بين المعرِّفين، وإن كنّا بدأنا نعاين استقرارًا في الآونة الأخيرة على مصطلح الإعلام الجديد، وحتى مسألة الجدّة نسبية؛ كون الجديد مآله القدم، وهذا الاختلاف ليس بالغريب في دائرة المعرفة الإنسانية، وهو الأمر الذي يقودنا إلى أنّه: لا يجب أن ينصبَّ النقد على أسماء التخصصات العلمية وعناوينها، وكذا القطاعات الحياتية، التي تتّجه دوما نحو خسارة جزء من دلالتها الأصلية بفعل التطور الذي يلحقها.

وما سيق أعلاه لا يلغي الحدّ الأدنى من المفهمة المحقِّق لما يمكن وسمه بشبه الإجماع، من حيث أشكاله وسماته الفارقة، ووظيفته، فهو: مختلف الأشكالِ المستحدَثة من

نُظم الاتصال الإلكتروني، الناشئة عن حالات التلاقي، والاندماج بين الحواسيب وشبكات الاتصال الرقمي، والوسائط المتعددة، والقائم على التمازج بين النص والصوت والصورة؛ وهو ما يعني أن التفاعلية فيه أهمّ سمة فارقة عن الإعلام التقليدي، وعليه أمكن الحكم بأنه يعلي من الفردية والتخصيص بناء على تلك الخاصية؛ مما نجم عنه تغير في الصلات القائمة ما بين الإعلام والجمهور: "فعلاقة الصحافة/الجمهور التي كانت عمودية في السابق تتجه الآن لتأخذ منحى أفقيًا: لقد اضطر المعنيون في الإعلام إلى أن يعترفوا بالمتعاملين معهم" كما يرى ريمي ريفيل؛ فالتفاعلية ميزة إعلام القرن الواحد والعشرين في مقابل الجماهيرية سمة الإعلام التقليدي وفق ما استقر عليه المشتغلون في هذا الحقل المعرفي.

الأمر الذي دعا بعضهم إلى حصر الإعلام الجديد في (الإنترنت) والهاتف المحمول، وشبكات التواصل الاجتماعي مثل الفايسبوك والتويتر، ومواقع مشاركة الفيديوهات كاليوتيوب، ومن هنا قيل عنه: إن مصطلح الإعلام الجديد يصف نطاقًا إعلاميًا يوظَّف لأغراض مختلفة عن تلك التي يضطلع بها الإعلام التقليدي (إذاعة، تلفزيون، جرائد، مجلات).

وقد بدأ يشيع في الممارسات الإعلامية الراهنة – وبشكل مكثّف ومتواتر – تداخل وتماهٍ بين الإعلامَيّن التقليدي والجديد، من خلال استحداث قنوات البث الكلاسيكية مواقعَ لها على (الانترنيت)، وصفحاتٍ على شبكات التواصل الاجتماعي، وأضحى الحديث عن بثّ رقمي على الخط، وثانٍ عبر (الساتل)، ونسخة إلكترونية وأخرى ورقية من أدبيات اللحظة الراهنة، كما اتخذت المؤسسات الحكومية والأهلية في شتى أشكالها، وعلى تعدّد نشاطاتها واختصاصاتها من الإعلام الجديد

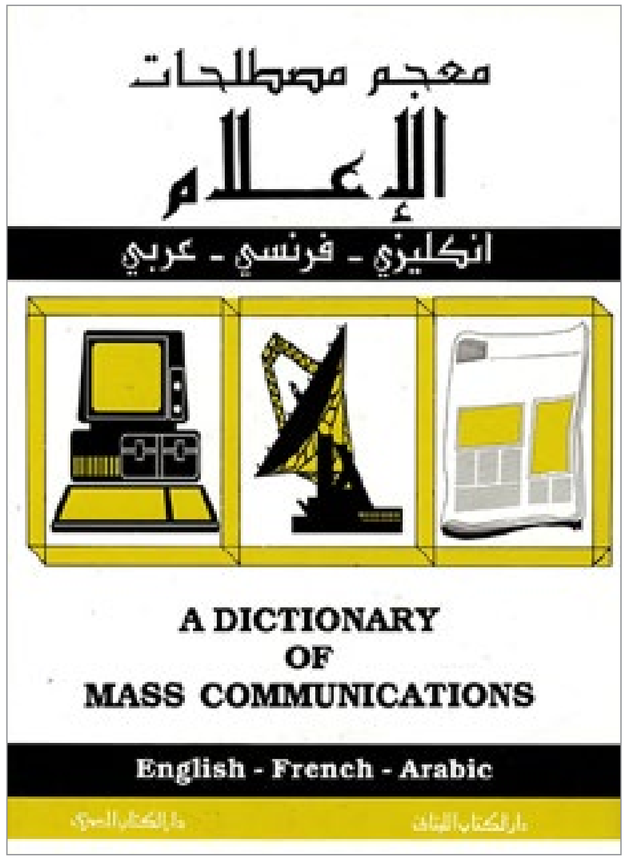

الوسيط الأمثل لتبليغ رسالتها، وتلميع صورتها، ونشر أفكارها وترويج منتجها؛ مما وفر عليها الكثير من الجهد والوقت والمال الذي يكلفه اللجوء إلى الإعلام التقليدي.

وبعد هذه المحاولة التعريفية بظاهرة الإعلام الجديد، نرى أنه من الضرورة المنهجية الوقوف عند لغة الإعلام بعامة، والحديث عن فرادتها، ومفارقتها للغة المتداولة. وذلك رغبة منّا في الوعي بحالة التجدّد الدائم، ودورها في ظهور ما أصبح يعرف بالعربية المعاصرة؛ إذ إليها يعود الفضل في التحديثات في كافة المستويات، وتخليص العربية من الكثير من القوالب الآسرة. ويصير لزامًا علينا التعريج على مسوِّغات وخلفيات التطوّرات السريعة التي عرفتها، ولو على حساب ما تواضعت عليه الجماعة اللغوية التي يُفترَض فيها أنها المؤطِّرة لكلّ تواصل لغوي بما خلّفته من تراكم معرفي ينظِّم عملية التواصل بين أفرادها.

فالسعي الدائم وراء المعلومة، وإرادة نشرها في زمن قياسي يدفع إلى عدم الاشتغال على النسق الناقل لها، وتركيز الاهتمام فيه، يضاف إلى هذا كون الإعلامي يبتغي تبليغها إلى فئات واسعة من المتلقين على اختلاف مستوياتهم ومحيطهم الاجتماعي والثقافي، الأمر الذي يدفعه إلى تبسيط خطابه بدعوى وصول الرسالة إلى مظانها، وتحقيق الغاية المرجوة منها ممثّلة في الإقناع والتأثير، وهذا ما قد يوقعه في فخّ الابتذال، كما قد يوصله إلى حدّ الإبداع لتوظيفات لغوية جديدة. ثمّ إنّ تنامي تكنولوجيات الاتصال، والتنافس بين المؤسسات الإعلامية، واعتماد الترجمة سبيلًا ومصدرًا للمعلومات، وتحوُّل الإعلام إلى صناعة، والبحث عن الإثارة في مختلف الوسائط الإعلامية، ووقوف المؤسّسات الراعية للشّأن اللغوي موقف المتفرج بفعل عدم قدرتها على مسايرة، ومرافقة هذا الزخم الإعلامي أوصل إلى غياب المراجع المنظِّمة، والراعية لحالة النمو اللغوي التي يعرفها هذا القطاع بوصفه مستهلكا نهما للمفردات والتراكيب والصيغ.

لما سقناه آنفا أفاد كثيرًا في مسايرة العربية لمستجدات العصر، إلّا أنه ولّد الجرأة على المعايير المعمول بها، وأوصل إلى حالة من التبرير البراغماتي للابتكار السائد في هذا القطاع الذي تفرضه المؤسسة الإعلامية، ونحن إذ نتحدث ههنا عن وضع اللغة في الإعلام لا نعني العربية فحسب، وإنّما هي ظاهرة عامّة في كلّ اللغات ذات الإرث الحضاري الوازن، والانتشار العالمي الواسع. وقد أثارت الممارسات اللغوية في حقل الإعلام وما زالت حفيظة اللغويين، والغيورين مما جعلهم يوجّهون لها سهام النقد منذ بدأت تستحوذ على متابعة الرأي العام، وتهيمن على الحياة وتمارس سلطتها وتأثيرها على الجماهير.

ويكفينا أن نحيل هنا على صرخة إبراهيم اليازجي، في بداية القرن العشرين، وموقفه من لغة الجرائد؛ إذ يقول منبِّها إلى أهميتها: "موضع الجرائد من الأمّة وما لها من التأثير في مداركها وأذواقها وآدابها ولغتها وسائر ملكاتها، ولا سيّما مع كثرتها وانتشارها في عهدنا الحالي"، ثم يواصل محذرًا مما فشا فيها من الغلط الذي يراه أخطر أثرًا من اللحن في الإعراب: "بيد أنّنا مع ذلك لا نزال نرى في بعض جرائدنا ألفاظًا قد شذّت عن منقول اللغة فأُنزلت في غير منازلها، واستعملت في غير معناها، فجاءت بها العبارة مشوَّهة...ولا يخفى أنّ الغلط في اللغة أقبح من اللحن في الإعراب". وهذا يدفعنا إلى القول: كيف سيكون موقفه لو كتب الله له أن يكون بيننا اليوم؟، بعد أن تجاوزنا ما سماه غلطًا إلى حالة الهجين السائدة بين الناس اليوم، والتي يعود أغلبها إلى اللغة

التي فرضها الإعلام بوسائطه الجديدة التي ملكت على الناس حياتهم.

وقد دعا الوضع اللغوي – الذي كانت له انعكاساته الايجابية والسلبية على باقي مرافق الحياة الدارسين – إلى العمل على احتواء لغة الإعلام ضمن حقول معرفية عديدة بغية تأطيرها ترشيدًا وترقية، ومن أهم هذه الحقول اللسانيات الاجتماعية في إطار ما أضحى يعرف بالتخطيط اللغوي، والذي تتكفّل به مؤسسات رسمية تضم بين جنباتها متخصّصين في الشأن اللغوي.

وبما أنّ الحديث عن لغة الإعلام أصبح من مكرور القول، ولن يضيف جديدًا إلى المسألة فإنّ اهتمامنا سيتجه صوب الممارسات اللغوية التي صاحبت الإعلام الجديد، وتشكّلت لدى فئات واسعة، وخاصة لدى الشباب المنساق بطبعه نحو الاندفاع والتحرّر حتّى من الأنساق اللغوية المتوارثة، وهو يتبنى تلك الممارسات بوصفها تعبيرًا عن موقف، واستحداثًا لنمط تواصلي خاص به، وهو الأمر الذي دفع محمود الذوادي إلى ربط الممارسات اللغوية السائدة في وسائل التواصل الحديثة بالبعد الهوياتي، متجاوزًا الوصف السطحي للظاهرة، محاولًا الوصول إلى أبعادها الاجتماعية وتأثيراتها على شخصية الشباب، وكذا كونها انعكاسًا لهوية بدأت في التشكل مع المدّ العولمي الذي يعدّ الإعلام الجديد أحد أبرز سماته الفارقة، والفاعل الرئيس في عملية قولبة القيم وترويجها.

كما أنه من الوارد أن يكون مرد الأمر التساهل وغياب الوعي، ولا سيّما في ظل المنابر الإعلامية الجديدة التي أتاحت لكل فرد أن يمارس الوظيفة الإعلامية متى يشاء وبالكيفية التي يشاء، بعد أن كانت هذه المهمة حكرًا على فئة مخصوصة.

ومع ذلك بإمكاننا أن نُجمِل ما نحن بصدد تبيانه من الاختلالات اللغوية التي أضحت سمة للغة الموظّفة في مواقع التواصل الاجتماعي، فيما يأتي:

– غياب التركيز على الكتابة اللغوية الصحيحة.

– إيثار التوظيف للحرف اللاتيني والذي اشتهر باسم العربيزي، والفرانكو أرابيك، وتفشي ما يعرف بالتعاقب اللغوي ، ويمكن لنا أن نلخص الوضع اللغوي القائم حاليًا في حقل الإعلام الجديد في مصطلح اللغة الهجين، وهو مصطلح مرن يشمل أنواعًا متعدّدة من مظاهر الهُجنة، والتي هي أخطاء يقع فيها العامة والكُتّاب وغيرهم، وأنّ من دواعي انتشارها؛ الإقبال على تعلم اللغات الأجنبية، وكذا يسر التواصل في عصر الرقمنة بين الأمم والثقافات من خلال وسائل الإعلام الجديد.

– التعبير عن المعاني العربية بوساطة الرموز المستحدثة في هذا الفضاء الرقمي.

– استخدام الأشكال الرسومية في أداء المعاني وتصوير الأصوات العربية برموز الأرقام كالرقم ٣ للعين و٧ للحاء مثلا ضمن نسق كتابي لا تيني.

– تفشي الأخطاء في كافة مستويات اللغة (إملاء، نحو، صرف، تركيب، دلالة)، وضعف الأداء اللغوي.

– التواصل بالعاميات، بما تحويه من انحرافات نطقية.

وهو ما يعني أننا بإزاء ما أضحى يعرف في اللسانيات الاجتماعية بالممارسات اللغوية، العائدة في جوهرها إلى الاستعمال الذي يفرض أنماطا تعبيرية ليست بالضرورة متجانسة مع المعيار اللغوي المتواضع عليه.

وقد قام صالح بلعيد بضبط العوامل المؤثّرة في الممارسات اللغوية وتحديدها، فوجدها ترتبط بمعطيات العصر السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية، وتتقسم إلى داخلية وخارجية، وقد حصرها في:

– الأرضية المعرفية للمتحدثين.

– ثقافة المجتمع.

– لغات المدرسة.

–السياسة اللغوية للدولة.

– وسائل الإعلام.

أما العوامل الخارجية فأرجعها إلى:

– تأثير اللغات الأجنبية.

– مؤثرات العولمة.

– تأثير لغة المستعمِر.

– تأثير وسائل الإعلام الخارجية.

– الآليات والأجهزة المعاصرة وما يلحقها من تسميات.

ونحن نرى أنّه وترشيدًا للممارسات اللغوية المتداولة في حقل الإعلام الجديد، بعيدًا عن الشحن العاطفي القائم على الشجب والإدانة، والتجريم، والتباكي على ضياع اللغة، وانتهاك قدسيتها من قبل شباب غير واع، مستلب ثقافيًا ينبغي وضع سياسة لغوية علمية قوامها:

– إنجاز دراسات نوعية يُتعرَّف من خلالها على مواطن الضعف في اللغة العربية في الإعلام والاتصال عموما.

– إقامة دورات تدريبية تخصصية لرجال الإعلام.

– تطوير تطبيقات تخصّ العربية في ميدان الإعلام الجديد.

– وضع معايير ومواصفات لمواقع (الإنترنيت) الخادمة للغة العربية.

–استحداث جوائز تشجيعية للكتابة المعيارية في شبكات التواصل الاجتماعي، وتشجيع المبادرات الفردية الناجحة.

–ضرورة تفهم المجامع اللغوية والمجمعيين للواقع اللغوي المستحدث، وتأطيره بعيدا عن التخوين والتجريم.

–الاستئناس بالتجارب الغربية الناجحة في مرافقة ظاهرة الإعلام الجديد لغويًا.

واقع اللِّسان العربيّ في العصر الرَّقْمِيّ

د. عباس محمد عبد الباقي
أستاذ مشارك بكلية التربية وعميد كلية الدراسات العليا- جامعة زالنجي

غَزَتْ التَكنولوجيا الرَّقْميّة حياة الإنسان العلميّة وسيطرت عليها، وبرزت العَولمة اللُّغويّة إلى حيز الوجود معلنة عن نفسها بكل قوة وصراحة، واستهدفت الجانبَ الثّقافيَّ المرتبط باللُّغة، وأصبح تقدّم الدُّول يقاس بمدى سيطرة لغتها على شبكة (الإنترنت) وبمدى مساهمتها في الاقتصاد والأسواق الماليّة العالميّة، كما ظهرت نتائج بحوث حوسبة اللُّغات، وارتفعت أصوات تنادي بضرورة تطبيق مفهوم اللُّغة لأغراض جديدة الذي ينصّ على وجود محتوًى لُغَويٍّ يلبّي حاجات النّاطقين بغيرها، واتخذ الإعلام مكانة عالميّة مؤثّرة، واحتاج إلى لغة بمواصفات خاصّة، فظهرت بحوث الإعلام الجديد، وأصبحت اللُّغة موردًا اقتصاديًا مهمًّا لا بُدَّ من استثماره، وبالرّجوع إلى البحوث والدّراسات تجد اللّغة الإنجليزيّة هي المسيطرة في هذا العصر الرَّقْمِيّ، وأنّ العربيّة في تراجع مستمر، وكأنّ أهلها سلّموا بأن القرآن تكفل بحفظها، والحقيقة غير ذلك فهي تحتاج إلى من يخطط ويضع السّياسة اللُّغويّة التي تضمن لها الأمن والبقاء؛ فالاتجاه المستمر في دراسات حوسبة اللّغات، وانتشار معامل الكتابة في (الإنترنت) والوسائط التي يجيد استخدامها الصغار أفضل من الكبار، وتغير العلاقة بين المعلّم والمتعلّم بسبب الوسائط التكنولوجية، وانقلاب دور الأسرة في التعامل مع تلك الوسائل الحديثة، وقلّة المحتوى الرَقميّ العربي في (الإنترنت) كلُّها مبرّرات تفرض علينا ضرورة تأمين العربيّة، وربطها بتراثها ربطًا يجمع بين القديم والجديد.

العربيّة لسان المعرفة والعلم:

أوّلا- العربيّة والعِلم: استطاعت العربيّة أن تكون لغة حضارة إنسانيّة واسعة أسهمت فيها أممٌ شتّى كان العرب نواتها الأساسيّة والموجّهين لها، وتحدثُنا الكتبُ عن حركة التّرجمة في بغداد التي أصبحت بوتقة انصهرت فيها ثقافات عريقة عربيّة وبربريّة وأرمنيّة وقبطيّة وهِنْديَّة ويونانيّة ويهوديّة وصينيّة، وتلاقت تلك الثّقافات بفضل التّعريب في شتّى الميادين، وكانت العربيّة هي اللّسان الحاضن لكلّ العلوم بلغاتها المختلفة، ولم يقف العلماء عند حدّ النّقل فقد أظهر الكثيرون منهم تفوّقًا في التّرجمة، ممّا يؤكّد إلْمَامَهم بأصول العلوم التي نقلوها؛ لذلك خرجت مؤلّفات كثيرة في علوم شتى منها: كتابات حُنَيْن بن إسْحَاق التي اعتُمِدَت مرجعًا في طبّ العيون في أوروبا والعالم العربيّ، كما وضع الفيلسوف والطّبيب ابن سينا عشرات الكُتُب في شتّى الحقول، من عِلْم الأخلاق والمنطق، إلى الطبِّ وعلم ما وراء الطبيعة، كما طبَّقَ الباحثون العرب المنهج التّجريبيّ، فتمكنُّوا من إعادة حساب محيط الأرض وتصحيح المعلومات الجغرافيّة في أعمال بطليموس، وقد انعكس هذا التّقدّم العِلْميّ على حقول تطبيقيّة مثل بناء النّواعير والخزّانات وقنوات المياه، واشتهر عدد كبير من الحواضر الإسلاميّة مراكزَ عالميّة للمعرفة، منها: بغداد، والقاهرة، وقُرطبة وغيرها، وهذا يؤكّد أنّ اللّسان الذي استوعب تلك المعرفة قادرٌ على المواكبة في كلّ زمان، فاللّسان العربيّ لم ينقصه شيءٌ، وإنّما النّقص في قدرات أصحاب هذا اللّسان.

ثانيا- مقوّمات العربيّة المؤهّلة للمواكبة: قبل الحديث عن قدرة العربيّة على مسايرة العصر، لا بدَّ أن نذكّر بأمور مهمّة إن لم نأخذ بها ستضيع معظم الجهود المبذولة:

الأوّل: إنّ التّقدُّم الذي حقّقته العربيّة في عصرها الذّهبيّ ليس ثمرة جهود أمّة أو شعب واحد، ومصداق ذلك إنّ الثّورة المعرفيّة العالميّة اليوم هي نفسها جهد مشترك.

الثّاني: النّظر إلى العربيّة بوصفها لسانَ أمّة، وأنّها غير مقصورة على عرق أو جنس محدد، فهي ميسّرة ومُعدّة لتكون لسان الأمة المحمّديّة كلّها.

الثّالث: إنّ الانكفاء على الماضي وتخليده والتّعصّب له لا يفيد مطلقًا، ولكن المفيد هو إخراج هذا الماضي في ثوب الحاضر.

الرّابع: الإفادة القُصْوى من ميزات العربيّة وتطويعها لتحتلّ مكانتَها في الدّراساتِ الحديثة الحاسوبيّة والإعلاميّة والاقتصاديّة؛ لأنّ العربيّة تتميّز بميزات تجعلها قادرة على المعاصرة، وهي على قسمين: الأوّل ميزات عامّة، والثّاني ميزات خاصّة، أمّا العامّة فأهمّها:

أ- العربيّة لسان متطوّر شأنه شأن معظم اللّغات الحيّة، فهي قديمة ولكنّها بقيت مستعملة حيّة حتّى اليوم، وهي متّسعة؛ فقد وصل إلينا الكثير من موادّها ومعاجمها، وهي حيّة لم تنهزم في الصّراعات التي خاضتها مع غيرها، وهي متفاعلة تُقْرِضُ وتَقْتَرِضُ؛ لذلك لم تعجز عن أن تكون لغة الخِطاب والأدب والعلوم في كثير من بلدان العالم في العصر الحديث.

ب- انتشار اللّغة خارج موطنها الأصليّ؛ فقد وصلتْ إلى كثير من أقطار العالم بفضل الإسلام، ووجدت القبول وكان لها التّأثير الكبير، ففي إفريقيا نشأت الثّقافة واللّغة السواحيليّة بسبب الاحتكاك بالعربيّة، والسواحيليّ هو هجين (عربي – إفريقي) اقتبست كثيراً من الكلمات

> غَزَتْ التَكنولوجيا الرَّقْميّة حياة الإنسان العلميّة وسيطرت عليها، وبرزت العَولمة اللُّغويّة إلى حيز الوجود معلنة عن نفسها بكل قوة وصراحة.

العربيـة التـي تمثّل ٢٠٪ فـي لغة التّخاطب، و٣٠٪ من السواحيلية المكتوبة، و٥٠٪ من السواحيلية القديمة، ولقد كتبت السـواحيلية أصلاً بالحـرف العربي، مثل كثيـر مـن اللّغـات الإفريقيّة ذات المنبت المماثل.

وامتـد التّأثيـر إلـى لغـات أخرى مثل الصوماليّة –وقد كانت تُكْتَب بالحـرف العربيّ حتّى وقت قريب– وفي وسط وغـرب إفريقيا نجد لغة الهُوسَا، التي سبق وكُتبت بحروف عربيّة يتحدّث بها نحـو ٢٤ مليون شخص، وأغلب متحدّثيها موجـودون فـي النّيْجَر وشـمال نَيْجيريا وغانا وتُوغو، وبنين، بالإضافـة إلـى السُّودان، وتشـاد، والكاميـرون، وبوركينا فاسـو كما يسـتخدمها ناطقـون بلغـات أخرى فـي أغلبيّة إفريقيـا الغربيـة، وخاصّـة بيـن المسـلمين. وفـي أقصـى غـرب إفريقيا، نجد من بين اللّغـات الإفريقيّة التي كُتِبَتْ بحـرف عربيّ لغة الولـوف، وهـي لغة قبائل الولوف الذين يشـكّلون ٢٦٪ مـن عـدد سـكان السّـنغال، و١٥٪ مـن سـكان غامبيـا وموريتانيـا، وهـو اللّغـة الثّانيـة فـي السّـنغال حيث يتحـدّث بهـا نحـو ٣٠٪؛ لأنهـا تعـدّ لغـة تجـارة واقتصـاد، وتـدل الإحصـاءات علـى أن خُمْـس سـكان القـارة يتكلّمـون العربيّة، إلا أنّ الاسـتعمار حـارَبَ العربيّة فـي إفريقيا وعمل علـى الحدّ مـن انتشـارها واسـتبدال الإنجليزيـة أو الفرنسـية بهـا.

وفـي الوقـت الحاضـر وصلـت العربيّـة إلـى معظـم دول آسـيا، علـى رأسـها ماليزيـا، والصيـن، وإندونيسـيا، واليابـان، وتايلانـد، وجـزر المالديـف، هـذه الـدّول أظهـرتْ اهتمامًا كبيـرًا بالعربيّـة، وبـدأتْ جامعاتُهـا تعقـد مؤتمـرات لدراسـة بعـض القضايـا المتعلّقـة بتعليـم العربيّـة، إلا أنّ الـدّافـع إلـى هـذا الاهتمـام ليـس بتأثيـر أهـل اللّسـان العربـيّ، ولكـن لأسـباب اقتصاديّـة وسياسـيّة، هـذا الانتشـار الكبيـر قديمًـا وحديثًـا برهـن علـى قـوّة العربيّـة، وأنّ مـا أصابهـا لـم يكـن ليصيبهـا لـولا ضعـف أهلهـا.

ج– عالميّـة اللّسـان العربـيّ: ارتبطـت العربيّـة بالقـرآن الكريـم الدّيـن العالمـيّ، وهـذا يلـزم عـدم حصرهـا فـي أمّـة دون أخـرى والقـرآن ينـصّ فـي خطابـه علـى ذلـك، موجهـاً نـداءَه للنّـاس جميعـاً وللعالميـن، قـال تعالـى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقـان: ١] وقـال:﴿قَـدْ يَعْـلَمُ مَآ أَنتُـمْ عَلَيْـهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ جَمِيعًـا ﴾ [الأعـراف: ١٥٨]، والآيـات كثيـرة فـي هـذا الشـأن؛ إذن اللّسـان العربـيّ عالمـيّ بحُكْـمِ القـرآن، وعالميتـه تعنـي خلـوده وبقـاءه وحيويّتـه وصلاحيّتـه لتلبيـة حاجـات الإنسـان كلّهـا فـي كلّ زمـان، وهـذا لا يتنافـى مـع ضـرورة التّخطيـط اللّغـويّ؛ فـالله تبـارك وتعالـى تكفّـل بحفـظ القـرآن الكريـم، وليـس بحمايـة اللّغـة العربيّـة ممـا قـد يصيبهـا مـن مشـكلات مـن جـراء العولمـة اللغويّـة.

وأمّا الميزات الخاصّة فهي:

١– العربيّـة مـن اللّغـات القلائـل الثّابتـة الأصـول المتينـة البنيـان الممتـدّة العُمْـر، يَفْهَـمُ الآخَـرُ فيهـا مـا كَتَـبَ الأوّل، وتمـرّ نصوصُهـا عَبْـر العصـور والقـرون، ويتواصـل أبناؤهـا عَبْـر الزمـان والمـكان، فمـا كتبـه امـرؤ القيـس والنّابغـة وعنتـرة حاضـر ماثـل اليـوم يتغنّـى بـه الشّـعراء والكتّـاب، بـل يتعلّمـه التّلاميـذ والطّـلاب، علـى حيـن لا يفهـم الإنجليـزيّ اليـوم مـا كتبـه شكسـبير وأمثالـه قبـل بضـع مئـات مـن السّـنين.

٢– الاشـتقاق القياسـيّ فـي العربيّـة، وهـو قابليّـة العربيّـة لتوليـد عشـرات الآلاف مـن المشـتقّات القياسـيّة اعتمـاداً علـى عـدد محـدود مـن الجـذور، وقـد أثبـت ذلـك الحاسـوبُ فـي العصـر الحديـث فـي بحـوث النّظـام الصّرفـيّ الحاسـوبيّ؛

"النّظر إلى العربيّة بوصفها لسانَ أمّة، وأنّها غير مقصورة على عرق أو جنس محدد، فهي ميسّرة ومُعـدّة لتكون لسان الأمة المحمّدية كلّها."

وذلـك عندمـا أدْخَـلَ الباحثـون سـبعة آلاف جـذر عربـيّ فـي الحاسـوب، ووضـع المبرمجـون القواعـدّ الثّابتـة التـي تُشْـتَقُّ بهـا المشـتقّات وتتصـرّف بهـا الأفعـال وتتولّـد بهـا الكلمـات، فـإذا بالحاسـوب يولّـد آلاف الكلمـات، بـل مئـات الآلاف اعتمـاداً علـى هـذا العـدد المحـدود مـن الجـذور.

٣– موافقـة المنطـوق للمكتـوب فـي العربيّـة، فالعربيّـة تُكْتَـبُ كمـا تُلْفَـظُ، وتُلْفَـظُ كمـا تُكْتَـبُ وَفْـقَ قواعـدَ صوتيـة معروفـة لا يُسْـتثنى مـن ذلـك سـوى ألفـاظ محـدودة يخالـف فيهـا اللفـظُ الكتابـةَ مثـل: (لكـن، وأولئـك، وعمـرو، وهـذا...)، ولذلـك لـم نحتـج فـي نظـام تحـول الـكلام المكتـوب إلـى منطـوق إلا إلـى قائمـة واحـدة شـذّت فيهـا بعـض الألفـاظ مـن قواعـد النطـق العربيّـة، وأمّـا قـوام النظـام فـكان تلـك القواعـد الصّوتيّـة لنطـق ألفـاظ العربيّـة مـن مثـل:(الـلام القمريّـة والـلّام الشّمسـيّة، والتّفخيـم، والألـف الفارقـة...) علـى حيـن احتـاج الأمـر فـي نظـام مماثـل للّغـة الإنجليزيّـة إلـى مئـات القوائـم التـي تخالـف فيهـا الكتابـةُ النُّطْـقَ، ويختلـف فيهـا النطـقُ عـن الكتابـة، وكأنّ الأصـل فـي النطـق الشـذوذُ.

ثالثـاً– إضـاءات فـي طريـق تمكيـن العربيّـة:

إنّ القضيـة التـي نحـاول معالجتَهـا قضيـةٌ كبـرى، ولهـا أهميـة قصـوى؛ لذلـك نعتقـد أنّ أول خطـوة فـي طريـق الحـدّ مـن سـطوة التّحديـات هـو تـناول هـذه القضيـة تـناولاً جماعيًـا، ونُنبّـه علـى أنّ هـذه المقترحـات متداخلـة ومتماسـكة ولا يمكـن الفصـل بينهـا، وبعضهـا مقـدّم علـى الآخـر؛ لذلـك أرى تقسـيمها قسـمين:

القسم الأول:

أ- يتطلّب الواقعُ الآنَ وضْعَ سياسةٍ لُغَويَّةٍ واضحة، تستوعِبُ كلَّ متطلّبات المرحلة، ونعني بالسّياسةِ اللُّغويّة التّحديدَ بواسطةِ الدّولة وأجهزتها المختلفة، لتنظيم استخدام الموارد اللّغويّة في مجالات التّعليم والإدارة والمجتمع، ومن أهمّ أهداف هذه السياسةِ تقنينُ الإعلام؛ لأنّه جهاز رسميّ في الدّولة والعمل عَبْرَه على توضيح العلاقة بين العامية والفصحى، والحدود التي يسمح فيها باستخدام العامية دون أن تؤثّر على الفصحى؛ إذ لا يمكن الفصل بينهما على الإطلاق.

ب- العمل الجماعيّ من جهة مجامعِ اللُّغة العربيّة لإنتاج المعاجم اللُّغويّة الإلِكْترونيّة، وزيادة المحتوى العربيّ في شبكة (الإنترنت) من خلال تفعيل المواقع المهتمّة باللّغة وزيادتها.

ج- تفعيل دَور وزارات الثّقافة والإعلام، من خلال الاهتمام بالعربيّة، تحت إشراف مختصّين في هذا المجال، وتوفير كلّ الوسائل المعينة على نَشْرِ العربيّة.

ه/ عَقْد دراسات لغويّة يتولّى أمرَها الجامعات تصبّ في خانة علاقة العربية ومجتمع المعرفة وبناء الاقتصاد؛ لأنّ قضيةَ اللّغة أصبحت جزءًا لا يتجزأ من القضايا العامّة في الدّولة.

القسم الثاني:

أ- العمل على إقناع المعلّم بأهميّة الفصحى من خلال تأهيل المعلّمين وتدريبهم؛ لأنّ ذلك الإقناع سيجد طريقه عبْر المعلِّم إلى العامّة، وحينها يمكن أن نتخلّص من كثير من المشاكل، أقلّها تمليك التّلميذ المهارات الأساسيّة للعربية (الكتابة، القراءة، الكلام، الاستماع)، ويحدّ من الاستخفاف بالفصحى.

ب- الوقوف عند المعاهد التي تدرّس اللّغات الأجنبيّة ومراجعة مناهجها، وتأهيل أساتذتها وتنظيم قبول طلابها، وإدخال مقرّرات في اللّغة العربيّة تُعلّم الطُّلّاب أساسيّات العربيّة بجانب أساسيّات الإنجليزيّة.

ج- تخصيص منتديات للّغة العربيّة في الجامعات، والعمل الجاد على استمرارها، وترغيب الطُّلَّاب في المشاركة بتحفيزهم، حتى تصبح هذه المنتديات من الثّوابت التي لا غنى عنها.

د- الوقوف على كلّ الإعلانات والمكاتبات والتّأكّد من صحّتها رسمًا وتركيبًا؛ وهذه النقطة مهمّة للغاية؛ لأنّ المكتوب قد لا يخلو من الخطأ؛ لذلك لا مفر من تطبيق فكرة (الحارس اللُّغَوِيّ).

هـ- الاهتمام بالتّعليم قبل المدرسيّ عن طريق تدريب المعلمات والمربيات وتأهيلهنّ؛ فهي مرحلة مهمّة من مراحل التّعليم، والتّفريط فيها قد يؤدي إلى اكتساب سلوك يصعب معالجته في المستقبل.

المقترحات والتَّوصيات:

١- إجراء المزيد من الدّراسات المتعلّقة بالتّعريب في التّعليم العام والعالي.

٢- تنمية مهارات التّواصل اللُّغَوِيّ بما يتوافق والتّقنيات الحديثة.

٣- تدريب المعلمين على الأساليب والاستراتيجيّات الحديثة المتعلقة بالعمليّة التّعليميّة.

٤- تطوير التّكامُل بين المؤسّسَات التّربويّة والتّعليميّة والاجتماعية المختلفة.

٥- تشجيع ثقافة الإبداع والابتكار مع الاهتمام بمدارس المستقبل.

٦- نشر مفهوم الأمن اللغوي وأهميته، وصلته بالواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

أ. رعـد أمـان
إعلامي

اللُّغة الخالدة

الضربُ بالسيف لا كالضرب بالقلم   فـذاكَ ينبو وذا يبقى بـلا ثَـلَمِ
السيفُ تُبلي صروفُ الدهر جِدَّتَهُ   ويـخـلـدُ الـقـلـمُ الـرائـي بـغـيـرِدَمِ
فكنْ إذا غـايـةٌ أغـرتـكَ ذا قلم   .. فإنما تُـدرَكُ الغاياتُ بالقلمِ !
والمـرءُ إنْ عظُمتْ في نفسه هِمَمٌ   سمَتْ به بين عالي النجم والسُّدُمِ
هناكَ حيثُ يـرى أغلى مقاصِدِه   يهمي ضياهُ عليه من ذُرى العِظَمِ
إني نظرتُ إلى الساعي لمطلبِهِ   فـراعَـنـي مـا أرى من فـورةِ الهِمَمِ
وقـد نـظـرتُ إلـيـه صـابَـه كلَلٌ   فلم يكن غـيـرَ كـهـلٍ مُـدبـرٍ هَـرِمِ
على مـراقـي المنى يـأسٌ يشاغله   كي لا يحلّقَ مثلَ النسرِ في القِمَمِ
قد يتّقي المرءُ عيناً أو ظُبا حَسَد   لكنما اليـأسُ مجـراهُ إلى العدمِ
وليسِ كـالأمـل الـوثـاب يُخرجُهُ   إلى رحـاب السّنا من ربقة الظُّلَمِ
فيملأُ النفسَ بالأشذاءِ ينشرُها   ويحضنُ النورَ من خلف ومن أمَمِ !
إني تعلَّقتُ من دون الـورى رشـأً   رشيقَ قـدٍّ فريدَ الحُسنِ والرَّسَمِ
بهيَّ خـدٍّ دقيقَ الخصر من هَيَفٍ   كحيلَ عينٍ رخـيَّ الجفن من سَقَمِ
بتُّها العمرَ والأنـفـاسَ وهـي هنا   في أضلعي وحنايا الـروح من قِـدَمِ
جـمـالُـهـا مـا لـه نِـدٌّ ولا شَـبَـهٌ   لـسـانُـهـا عـربـيٌّ سـاحـرُ الـنَـغَـمِ
هي التي أغـرت الدنيا وما فتئتْ   تُروي بسحر لَماها العَذْبِ كلَّ ظَمِي
يـا لائـمـي في هـواهـا إنـنـي كلفٌ   وحـبُّـهـا في حشا روحـي فـلا تـلُمِ
لو كنتَ تُنصفُ ما أنكرتَ لي شغفاً   فهي التي تتمشَّى في عـروق دمي
تركتُ كلَّ حِسان الأرض مُذْ نبضَتْ   في القلب مني وغنّاها الهوى بفمي
وإنـنـي لو وهبتُ النفسَ خالصةً   لمقلتيها لَـعُـدَّ النقصُ من شيمي
مَنْ ذا الـذي حقَّها وفّـاهُ مكتملاً ؟   مـا كـان في سـائـد هـذا ولا حُـلُـمِ
حسناءُ تفعلُ في العشاق فعلتَها   .. وتستبدُّ بهم في العشق كُلِّهِمِ
ذا عـمـيـدٌ وذا صـبٌّ وذاكَ شَـجٍ   وذلـك الـشـوقُ أضـنـاهُ فـلـم يَـنَـمِ
مَنْ لي بفاتنة هـامَ الـزمـانُ بها .   وحـيـثـمـا ومـتـى تـبـدُ لـه يَـهِـمِ
تلك التي تنفحُ الأطيابَ خطرتُها   فتستقرُّ كما الأنسام في النَّسَمِ
صلُّوا على المصطفى الهادي معلِّمنا   وسيّدِ الخلق من عُـربٍ ومن عَجَمِ
سبحانَ من خَصّها بالفضل حين بها   عليه نـزَّلَ وحـيـاً أقـدسَ الـكَلِمِ
هل بعد ذا شرفٌ تزهو به لغةٌ ؟   لا والـذي صانَها للفخر في شَمَمِ
تبقى لنا الضوءَ هذي الضادُ ما نبضَتْ   ففي ضُحاها ضياءٌ ضاءَ من إضَمِ

عوائص صناعة المصطلح في اللغة العربيّة

أ. د. عبد الملك مرتاض

أوّلاً- العربيّة وصناعة المصطلح:

أكثرُ اللّغاتِ في العالَم تطوّراً هي أقدرُها على إيجاد المصطلح اللاّئقِ للمعاني الحضاريّة الجديدة، والمستكشفات الطّارئة في كلّ حقول المعرفة. واللّغة القادرة على إيجاد المصطلحات المتمحّضة للحياة المحلّيّة، والعادات والتّقاليد الفولكلوريّة كإيجاد آلاف المصطلحات لكلّ ما كان يتمحّض للنّاقة والفرس وما إليهما؛ قد تكون من حيث المبدأُ، وعلى مستويات متفاوتة في الكفاءة، قادرةً على ابتكارِ أدقِّ المصطلحات وأكثرِها تعقيداً في مجالات البحث على تنوّعها واختلافها.

وكأيّنْ مِن عربيّ يستهين بلغته ويحسبها قاصرةً عن أن تَسَعَ المعانيَ الجديدةَ المعاصرة تعبيراً؛ وذلك حين يُصيبه الاِنبهار بقدرة اللّغات الغربيّة على بعض ذلك؛ والأمرُ ينصرف هنا إلى الإنجليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة خِصِّيصَى؛ فيستسلم للقضاء والقدَر، وينادي بالويل والثُّبور، وينسَى ما للعربيّة من طاقة معجميّة لا تنفَدُ، لو وجدتْ من ينبُش عنها في بطون معاجمها، وينقّب عليها عبر أسفار أمّهات تراثها؛ ولو ألْفَت مجتهدين لغويّين كباراً يفكّرون في طبيعة نظامها، وعبقريّتها وأبْنيَتها، ومرادفاتها وأضدادها، وصيغ المبالغة فيها، وقدرتها العجيبة على الاِنزياح بمعانيها من وجه إلى وجه آخر دون أن تجد في ذلك حرَجاً أو عُسراً -حتّى لا أقول: جُناحاً- لصارت من أعظم اللغات.

والذي ينظر في العربيّة كيف كانت أيّامَ الجاهليّة الأولى، ثم كيف أصبحت في العهد الإسلاميّ، ويوازنُ فيما بين التّطوّر المذهل الذي أصابها في الحالين الاِثنتين، أو في العهدين الاِثنين المتلاحِقَيْن؛ يتبيّن له أنّ هذه اللّغة لم تكُ قطُّ لتكون مجرّدَ لغةِ الشّعر، بل كانت لغةَ فكر وحضارة وتقانة. فلقد انضافت -نستعملها على الرغم من أنّ الأقحاح يدينونها، لأنّا ألفيناها، هنا، مطمئنّة في مكانها، مستقرة في مقامها- إلى هذه اللّغة منذ ظهور الإسلام حتّى نهايةِ القرنِ الرّابع للهجرة آلاف المصطلحات؛ فلقد أنشأَ رواة اللّغة مصطلحاتهم من العربيّة، وأمثالُهم فعل رُوَاةُ الحديث النّبويّ الشّريف، والنحويّون، والبلاغيّون، والأُصوليّون، والكلاميّون؛ قبل أن يصل إلى العربيّة الفلاسفة والبياطرة والأطبّاء والرّياضيَّاتيّون (تمييزاً عن النسبة إلى الرياضة) والفَلَكيّون والموسيقيّون والبَصَريّاتيّون... فكلّ فريق من هؤلاء العلماء وضع لحقله المعرفيّ مصطلحات يردّدها ويتجادل بها. ولم نجد أثراً لشكاية واحدة مكتوبة، أو مرويّة، عن صعوبةٍ مّا ساورتْ أُوْلاء العلماءَ في تطوير لغتهم الوظَفِيّة؛ ابتداءً من تعريب الدّواوين على عهد عبد الملك بنِ مروان (ت: ٨٦هـ)، إلى الكِنْديّ (ت: ٢٥٦هـ)، والخوارزميّ (ت: بعد ٢٣٢هـ)، وابن الهيثم (ت: ٤٣٠هـ)، وبختيشوعَ (ت: ٨٢٨هـ)، والزهراوي (ت: بعد ٤٠٠هـ). ومَن لم نذكر، أكثرُ.

ولا يقال إلاّ نحوُ ذلك في شأن العربيّة لو قارنّا بين حالها في بداية القرن العشرين، وكيف كانت ركيكة إلى حدّ بعيد، وعاجزة عن استيعاب مصطلحات العلوم بشكل يدعو إلى الرّثاء، بل كان الوهَنُ قد أصابها حتّى لدى صياغة الشعر الرفيع؛ ولكن ها هي تي بعدُ؛ وذلك بفضل جهود العلماء، ومؤسّسات التّعليم على اختلاف مراحلها، ووسائل الإعلام على اختلاف أشكالها: أمست على ما نعرفها عليه في الوقت الرّاهن: من الرّشاقة والجَلاء، والحيويّة والفتوّة، والتحفّز والشُّرَأْبِيبَة: بحيثُ يُحسّ مستعملُها، والمقتدرُ عى التحكم فيها، كأنّها لغة في ريعان الشّباب، وجِدّة الإِهاب؛ وأنّ الزّمن الطّويل لم يستطع أن ينال من نَضْرتها شيئاً كثيراً؛ بفضل ما جدّدت من إِهابها، وصقَلت من شبابها.

في حين لا نبرح نحن نضِجّ بالشّكوى، ونناي بالبلْوى، ولا نتذوّق شيئاً من اللّذْوَى، بلغة عائشة، وذلك أمام تكاسلنا وتقصيرنا في حقّ التّحصيل اللّغوي، من عَجْز هذه العربيّة عن أن تسَعَ مصطلحات العلوم والفنون والتّقانة على العهد الرّاهن؛ فنُؤْثر أن ننقل هذه المصطلحاتِ جاهزةً معلَّبة مقرطسةً؛ كما نؤثر أن نستهلك ما يردُ علينا معلَّباً مقرطَساً من أهل الغرب النّشطين العاملين، دون أن نفكّر نحن في صنع شيء ممّا نستهلك ممّا يعمَلون، ونحن بذلك راضون!

ولقد نظرنا في هذا الأمر طويلاً فتبيّن لنا أنّ سبب هذه المحنة اللّغويّة، على عهدنا الرّاهن، تعود، في أغلب الشأن، إلى أنّ العلماء الذين يشتغلون بحقول العلم والهندسة والطّبّ والصّيدلة والإعلام الآليّ وسائر الحقول التّقانيّة التي نراها متناهية التّعقيد، لا يعرفون العربيّة العالية التي تمكّنهم من إيجاد مقابلاتٍ عربيّة لوظائفِ الآلات التي يتعاملون معها جملة أو تفصيلاً. ولَمّا لم يتلقّوْا تكوينَهم العالِيَ بالعربيّة، ولَمّا كانت مناهج التعليم في العالم العربيّ ضعيفةً في أغلب أطوارها؛ ثمّ لَمّا كانوا، هم، قاصرين في التّعامل مع العربيّة باحترافيّة كاملة؛ فقد اعتقدوا، خطأً بل حُوباً، أنّها عاجزة عنْ أنْ تسَعَ تلك المعانِيَ التَّقانيّةَ اليوميّة التي يتعاملون معها؛ فوقعوا في اليأس منها واستراحوا؛ على حينَ أنّ الحقيقة هي أنّهم هم العاجزون.

وأمّا الذين يعرفون العربيّة في العالم العربيّ فهم، أساساً، أساتذة اللّغة العربيّة وأدباؤها؛ وهؤلاء لا يستطيعون إيجاد مصطلحات لوظائفِ آلاتٍ لا يتعاملون معها، ويجهلون أسرار ارتباطِ بعضِها ببعضٍ؛ فكيف نطالبهم بما لا يجوز؟

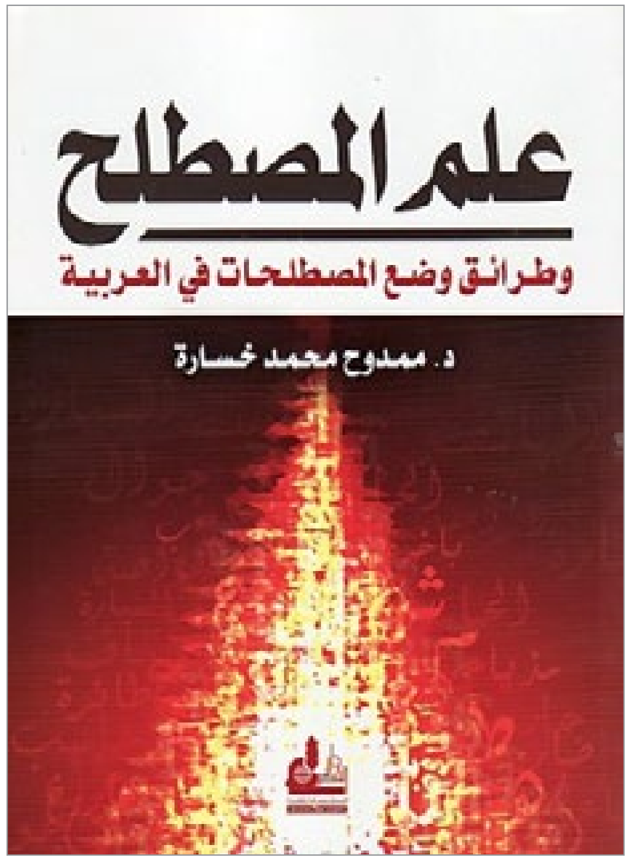

وبين هاتين المفارقتين، لدُن الفريقيْن الاثنين ضاعت العربيّة.

ولعلّ من أجل ذلك، نُلفي العلوم الإنسانيّةَ تدرّس كلّها باللّغة العربيّة في العالم العربيّ، ومنها علم الاجتماع، وعلم النّفس، واللّسانيّات العامّة وغيرها؛ وذلك على الرّغم من أنّ اللّسانيّات أمست كالإعلام الآليّ؛ تتجدّد مصطلحاتها وتتطوّر كلّ ستّة أشهر؛ ومع ذلك فمعظم المصطلحات اللّسانيّاتيّة (حتى لا تلتبس النسبة إلى «اللسان»، وهو غير «اللسانيّات») على تعقيداتها الشّديدة وسِعَتْها العربيّةُ المعاصرة استعمالاً واستيعاباً.

إنّ العالِمَ غيرَ اللّغويِّ، أو غيرَ المتمكّن من لغته تمكّناً عميقاً وواسعاً، لا يمكن أن نطمع فيه أن يأتيَ لنا من الأمر ما لم يُقيَّضْ له؛ فهو لا يعرف اللّغة بالمقدار الذي يجعله يبدع بها مصطلحاتٍ جديدةً لآلاته المعقّدة (هذا إن اخترع شيئاً!)؛ وهذا العيبُ الذي يُمْنَى به العالِمُ العربيّ؛ لم يكن يمنَى به جدّهُ العالِمُ العربيّ في قديم الزّمان، وذلك حيث كان العلماء على تيك العهود موسوعيّين في معرفتهم، فكنت تجد الفيلسوف لغويّاً -أو لسانيّاً- ونحويّاً وموسيقيّاً وفقيهاً ومتكلّماً وطبيباً ورياضياتيّاً وفلكيّاً وأصوليّاً وهلمّ جرّاً، (الفارابي، وابن سينا مثلاً).

ومن شروط نقل المصطلح العربيّ عن المصطلح الغربيّ أنّه علينا، قبل إنشاء ذلك المصطلح الجديد، ونقْلِه من أيّ لغة أجنبيّة حيّة، أن نجعله يمرّ بثلاث مراحلَ لا يمكن الاستغناءُ عن إحْداها بأيِّ وجه من الوجوه:

المرحلة الأولى: لا مناصَ من النّظر في أصوله الاشتقاقيّة حتّى يكون مندمجاً في عبقريّة اللّغة العربيّة ونظامها، غيرَ ناشزِ الاستعمال فيها.

والثانية: البحث في الخلفيّة المعرفيّة للمصطلح، واستعمالاته عبر التّاريخ، وكيف تطوّرت استعمالاته بين حقل وحقل آخرَ من العلم، ومن ذلك استعملُنا لمصطلح «كُتْبُوب»، في تحديد طبقات الكتّاب بين كاتبٍ، وكُوَيتِبٍ، وكُتْبوبٍ، فقد وقعنا في حيرة من أمرنا لدى ترجمة مصطلح رولان بارط: «Écrivant» حيث كان يقصد به إلى غير الكاتب ذي المستوى الرفيع، فهُدِينا إلى ورود ذكْر طبقات الشعراء في كتاب «البيان والتبيين» لأبي عثمان الجاحظ، ومن بعده كتُبُ تراثٍ أُخَرُ: بين شاعرٍ خِنْذِيد، (ويعني لفظ الخنذيد عندهم التامّ حسَب الجاحظ، ثم شاعر دون وصف، وشُوَيْعِر، وشُعْرور[1]، ثم متشاعر: فرأينا، وركوحاً إلى ذلك، أن نطلق على «كُوَيْتب» بارط: كُتبوباً. ونلاحظ أنّ العرب جعلوا طبقات الشعراء أربعاً، في حين جعل بارط طبقات الكتاب اثنتين ليس غيراً.

والأخرى: لا بدّ من التّأكّد من صحّة استعمال المصطلح بنائيّاً ونحويّاً حتّى لا نشوّهَ العربيّة ونخلط في استعمالاتها فنزيدَ الوضع سوءاً في البناء النّحويّ، والصّرفيّ، وحتّى المعرفيّ؛ كما يحدث ذلك بالقياس إلى النّسبة إلى مصطلح «البِنْية» في اللّغة العربيّة المعاصرة حيث أمام ضعف عربيّة النّقّاد المعاصرين وتسرُّعهم في استعمال المصطلح، تراهم يقولون في النّسبة إلى هذا الحرف: «البِنْيَوِيّة» غيرَ عابئين بأنّ مثل هذه النّسبة كانت تكون سليمة لو أنّ اللّفظ المفرد المنسوب إليه كان (ونطلق عليه نحن «الحمْض النوويّ اللغويّ») هو: «البِنْييّة»؛ وذلك حتّى تقلب الياء الثانية واواً. مع أنّ المسألة بسيطة كما بحثها سيبويه (ت: ١٨٠هـ) في باب الإضافة من كتابه استناداً إلى مقرّرات علماء النّحو أمثالِ أبي عمرو بنِ العلاء (ت: ١٥٤هـ)، ويونس بن حبيب (ت: ١٨٢هـ)؛ فأنت إمّا أن تقول: «بِنْيِيّ» (كما تقول في النّسبة إلى فِتْيَة «فِتْيِيّ» على القياس، وهو اختيار أبي عمرو ابن العلاء). وإمّا أن تقول: «بِنَوِيّ» (كما تقول في النّسبة إلى فِتْيَة «فِتَوِيّ»، على التّخفيف، وهو اختيار يونس). ولقد ينشأ عن هذا، أنّ استعمال «البِنْيَويّة» خطأ نحويّ بَشِيعٌ؛ ولا يدلّ إلاّ على جهل بعض النّقّاد المعاصرين المسْتَهْتَرين. ولا يمكن أن يبرَّر الخطأُ بأيِّ حجّة. ومقولة: خطأ شائع خيرٌ من صواب نادر، هو من مذهب فاسد، وهو من أقوال الذين يؤْثرون الكسل على التّحصيل، لأنّ الذي ارتكب هذا الخطأَ أوّلُ، إنما ارتكبه عن جهل، ومن البليّة القدْوَةُ بالجُهّال.

إنّا لو لم نلتجِئ إلى التدقيق في استعمالات العربيّة على اختلاف حقول وظائفها الحضاريّة المعاصرة لتورّطنا في وَرَطات لا منجاة منها عوّضَ العائضين. ومن الأخطاء البشيعَة في اللّغة الجديدة (la néologie) قولُهم: «الخوْصَصة» (يريدون إلى: «الخَصْخَصة»)؛ و«الجوْسَسَة» (يريدون إلى «التّجسُّس»، بل منهم من يقول: «العَوْربة»، ولا وجود لواو في هذه الكلمات إفراداً، فيكون فيها جمعاً).

ولقد ابتكر العلماء عدّة تقنيات استعماليّة لتطوير المصطلح العلميّ؛ ومن أهمّها بالذكر في هذه الدراسة «اللاّحقة العلميّة» التي كانوا يطلقون عليها «الياء الصّناعيّة»؛ وهذه التّقنيّة لم تكن موجودة في العربيّة لا على عهد الجاهليّة، ولا في أوّل الإسلام، وإنّما كانت من توليد العلماء انطلاقاً من أواخر العهد الأمويّ.

في حينَ أنّ المستعملين العرب المعاصرين أكثروا من بناء

(١) يطلق الشعرور في المعاجم العربيّة القديمة على القِثّاء. وقد ورد ذكر شُعرور، إن لم تخنّي الذاكرة، في شعر امرئ القيس، ومن الشعراء الذين استعملوا مصطلح «شعرور» من غير الكتّاب، نفيع بن صفار المحاربي، إذ قال: ما بعدَ قتْلِ شُعَيْثٍ في سَراتِكُمُ وبعدَ قتْلِ أبي أفعَى، وشُعْرورِ (البلاذري، أنساب الأشراف).

«فَعْلَلَة» في إطلاقها على المرافق الحضاريّة الجديدة مثل «تلفزة»، وربّما قالوا أيضاً: «تلْفن» فيكون الاسم «التّلفنة» (وإن كانت لا تستعمل في جمهور الاستعمال، وهي من أصل أجنبيّ على كلّ حال؛ ومن الأَوْلى استعمال «هتف»)؛ كما قالوا: «خصْخص» إذا حوّل المتخصِّص الاقتصاديّ القطاع العامّ إلى القطاع الخاصّ، وهي فصيحة عالية قياساً على بناء «حَصْحَص». (وقد نسجنا نحن على هذا مصطلحاً سيمَائيّاً جديداً في العربيّة هو «نصْنَصَ»...

ومن الاستعمالات الجديدة الفصيحة السّليمة في العربيّة المعاصرة بناء «فاعول» الذي يوجد في اللّغة العربيّة القديمة (قياساً على قولهم: «عمر الفاروق»)؛ فبنَوا عليه، فقالوا: صاروخ، وناسوخ (فاكس)، وحاسوب (كمبيوتر). ومن النّاس من يطلق على هذا الجهاز العجيب مجرّد مصطلح «حاسِب»، مع أنّ هذا البناء لا مبالغة فيه؛ فهل حقّاً «الحاسوب» مجرّد حاسب؟! (وهنا يجب مراعاة الوظيفة التّقنيّة التي تؤدّيها الآلة لاِستعمال مصطلح لائق بطاقة وظيفتها حقّاً).

ولكنّ معظم الاستعمالات الاِصطلاحيّة تؤخذ غالباً من اللّغة العامّة المستعملة، ثم تحمّل بدلالة جديدة تخرج بها عن الاستعمال العاديّ كما يصادفنا ذلك في مصطلحات الإعلام الآليّ: قرص، استكشاف، حقل، رمز، صورة، حفظ، فتح، إغلاق، تظليل، فأرة، وهلم جرّاً... فمثلُ هذه المصطلحاتِ هي في أصلها المعجميّ ألفاظ ذات دلالات أخرى؛ فانتقلت دلالاتها إلى حقل من المعرفة جديد.

إنّنا لا ننكر الجهود الرّائعة التي بذلها العلماء، في مختلف حقول المعرفة، من أجل تطوير العربيّة وإيجاد مصطلحاتٍ لمعانٍ جديدة فيها؛ غير أنّ ذلك لا يزال مفتقراً إلى جهود إضافيّة مُمَنْهَجة ومتضافرة، إذا شئنا أن يكون لعربيّتنا شأنٌ في المستقبل، كما كان لها شأن في الماضي.

ثانياً- المصطلح في حدّ نفسه

كان لفظ الاصطلاح شائعاً ومتداوَلاً بين علماء اللغة منذ القِدَم، ومن أوّلهم استعمالاً له أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، وابن جنّي (ت: ٣٩٢هـ) في كتابه «الخصائص» إذ أورد عنواناً له فيه بعبارة: «أصلُ اللغة إلهامٌ هي، أم اصطلاحٌ[٢]؟

وتابعه على ذلك جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) في عنوان له في كتابه «المزهر في علوم اللغة وأنواعها[٣]»، قائلاً: «(...) بيان واضعِ اللغة: أتوقيفٌ هيَ ووحي، أم اصطلاحٌ وتواطُؤٌ؟

وأمّا استعمال لفظ «المصطلح»، و«المصطلحين»، و«اصطلحوا»، و«اصطلاحيّة»، و«اصطلاحاً» وما يتصرّف من كلّ ذلك بالأبْنِيَة المختلفة... فإنّ من أوائل مَن استعمله من المعجميّين الفيروز آباديُّ (ت: ٨١٧هـ) حين يقول: « ودقّ: في المُصْطَلَح النُّجوميّ: جُزْءٌ مِنْ ثلاثينَ جُزْءاً من الدَّرَجَةِ». وكان ابن منظور ذكر لفظ «مصطلح» بالتنكير مرتين في «لسان العرب[٤]».

وقد ورد ذكْر هذا المصطلح بمعنى الاستعمال المعاصر في كتب التراث العربيّ الإسلاميّ كثيراً، حتى إنّه تكرّر فيما لدُنّا من مصادرَ زهاء مئتَيْ مرّةٍ.

وقد جاء لفظ مصطلح من قولهم: «صالحه، فاصطلح معه»، أي وافقه. ثم شيئاً فشيئاً، صار المصطلح يُطلق على ما توافق عليه القوم في تعيين مفهوم مجرّدٍ: من الفلسفة والعلم، فصار لكلّ حقل من حقول المعرفة والفنون مصطلحاتُه الخالصةُ له.

وكان يطلِق على ذلك أبو عثمان الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ): مجرّد مصطلح: «اللغة»، حيث إنّه كان يرى أنّ لكلِّ قوم، أي أنّ لكلّ أهل تخصّصٍ معيّن، لغتَهُم، حيث يقول: «ولكلّ قوم ألفاظٌ حظِيَتْ عندهم. وكذلك كلّ بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكلّ شاعرٍ في الأرض وصاحبِ كلام موزون: فلا بدّ من أن يكون قد لهِجَ وألِفَ ألفاظًا بأعيانها؛ ليُديرَها في كلامه، وإن كان واسع العلم، غزير المعاني[٥]».

ومن الواضح أنّ الجاحظ كان يقصد هنا اللغة الوظَفيّة التي ينشأ عنها، في الحقيقة، استعمال مصطلحاتٍ بأعيانها مِن تِيك اللغةِ، ليُطلقها على مفاهيمَ في ذلك الحقل الذي يعالجه بالكتابة، أو من ذلك الاختصاصِ الذي وقَف عليه حياتَه بحثاً وتنقيباً.

وقد أمسى استعمال المصطلح المطلَق على معانٍ معيّنة معضلةً يكابدها المتعاملون الأكاديميّون العربُ خاصّةً. فإذا أنت ترى أهل المشرق يختلفون في استعمال المصطلح الواحد مع أهل المغرب اختلافاً بعيداً. كما أنّ هذا الخلاف قد يمتدّ إلى المتعاملين المشارقة فيما بينهم، والمغاربيّين فيما بينهم، فيزداد الأمر سوءاً، وتمثُل المعرفة فوضَى لا مدقِّق لها يدقّقها.

ولعل الذي أفضى إلى مُثول هذه الفوضى المصطلحاتيّة عَجَلُهُمْ في الاستعمال، أوّلَ مرّةٍ، دون المرور على المراحل الزمنيّة والتاريخيّة والمعرفية التي يجب أن يمرّ بها كلّ مصطلح لدى صناعته، (كما ومَأْنا إلى ذلك في صدر هذه الدراسة) فيقع التساؤل: هل استعمل الأجداد هذا المصطلح للمعنى الماثل، أو لمعنىً قريبٍ منه؟ وإن لم يستعملوه لعدم معرفتهم إيّاه هل تتّسع العربيّة لصياغة مصطلح لائقٍ يستطيع أن يقابل المصطلح الأجنبيَّ بكفاءة واقتدار؟ ثمّ كيف يجب، من الوجهة الصرّفيّة الخالصة، صوْغُ المصطلح العارض لأوّل مرّة، لإشاعته بين المعاملين فيمسيَ مستعمَلاً بدقّة، أي على

(٢) ابن جنّي، الخصائص، ١. ٣٢

(٣) السيوطي، المزهر، ٢. ٩٩٥

(٤) ينظر ابن منظور لسان العرب، مكَك؛ وقَيَ

(٥) الجاحظ، الحيوان، ٣. ٣٦٦

مقتضى نظام اللغة العربيّة في أدقّ أبنيتها دلالةً؟ وهل أذعن استعمال المصطلح المتداوَل بين المعاملين لعمليّة التأثيل والتأصيل ليتلاءمَ مِنْ ذي أُنُف (أي فيما يستقبَل من الزمن) مع مقتضَيات الاستعمال في النوادي العلميّة، ومخابر البحث الأكاديميّة؟ وهل وقع التفكير قبل نقل بعض المصطلحات الأجنبيّة إلى اللغة العربيّة، على عجَلٍ، بل على فَطْرٍ، كما هي في لغتها الأصليّة مثل «المثلولوجيا»، و«السِّمْيُولوجيا»، و«الفونيم»، و«المونيم»، و«الأيْقونة» (بتأثير النطق الإنجليزي)، و«إيقونة» بتأثير النطق الفرنسيّ[٦])، وما لا يكاد يُحصَى من المصطلحات الأجنبيّة التي استعملت في العربية، مع أنّه كان يُفترَضُ وجودُ ما يقابلها، أو ما يُماثلها، لدى الاجداد الأكرمين في استعمالاتهم؟ فإن لم يكن في تراثهم فالوجهُ أنّا نبني على آثارهم. ثم، هل وقع التفكير في حال انعدام المثيل العربيّ القحّ للمصطلح الأجنبيّ المرادِ نقله إلى العربيّة في نحت مصطلح جديد ذي بنية عربيّة صميمة كقولنا: «النَّصْنَصَة» لتقابل: «Textualisation» (وهو من استنباطنا)، و«الإرْجاء» ليقابلَ مصطلح جاك دريدا «Jacques Derrida»:

«La dlfférance»؟ (وهو من استنباط سَوائنا).

إنّ لصناعة المصطلح شروطاً وآداباً، بل أكاد أقول: «نحواً»، إذْ لكلِّ علم نحوٌ يضبطه، ونحوُ المصطلحات: هذه الشروطُ العلميّة القاسيَة التي يجب أن تتأسّسَ وتتجمّع لكيما يقعَ التعاملُ بها، ومعها، فنتجنّبَ، عَوْضَ، هذه الفوضى في الاستعمال.

ثم صار استعمال المصطلح بين المؤلفين العرب مألوفاً، بحيث لا نكاد نجد كاتباً منهم كبيراً، ولا عالماً نِحْريراً، يُخطئ استعمالَه في مقدّمته، أو في تعريف قضيّة بالتوقّف

(٦) اجتهدْنا في تعريب هذه المفاهيم إلى العربيّة على الوجه الآتي:، وتوالياً: العجائبيات (ولنا كتاب عنوانه: «عجائبيّات العرب»)، والسيمَائيّة، والصُّوَيت، واللُّفَيْظ، والمماثِل.

عندها بالمعنى المعجميّ أوّلاً، ثم بالمعنى الاصطلاحيّ آخراً، كما كان القدماء يفعلون.

غير أنّ استعمال القدماء للمصطلح لم يكُ، في معظم الأحوال، عن عميق اهتمام بمشكلة استعماله، ولا عن عويص العثور على ما يلائم المعنى المستعمَلَ فيه، فكانوا يتّخذون جملة من الصيغ أو الأبنيَة يعيّنون بها ما يمكن أن يسمَّى مصطلحاً، ومن ذلكم أسماءُ الفِرق الإسلاميّة، فهم يقولون، مثلاً: المرجئة، والمعتزلة؛ وهم يقولون: الخوارج والرافضة؛ كما يقولون: الشُّراةَ والمارقة. وفي الوقت نفسه لم يكونوا يجدون حرَجاً في صناعة المصطلح بإنهائه بالياء الصناعيّة، فكانوا يقولون: القدريّة، والعثمانيّة، والزيديّة، والإباضيّة، والصفريّة والشُّعوبيّة.... كما أنّهم اتّخذوا بناءً يُجْرون عليه معظم الفِرق والهيئات والعائلات الأجنبيّة، وهي «فواعِلة»، أو «فعالِلة»، وذلك كقولهم: الأزارقة، والبرامكة، والبطارقة (فارسيّ معرّب، ومنهم من يراه عربيّاً حجازيّاً)، والأغالبة، والتراجمة[٧]. لكنّ صناعة المصطلح ظلّت لدُنْهم بالياء الصناعيّة أشْيَعَ ما تكون استعمالاً.

وجاءت العهود الحديثة، فصار العالم الكبير قرية صغيرة، يعرف هؤلاء لغة أولئك، وأولئك لغة هؤلاء، فإن لم يعرفوها، فإنّ ذلك يقع بالفزَع إلى الترجمة إلى لغتهم الأمِّ. غير أنّ الترجمة في حدّ نفسها إذا انصرفت إلى النصوص الإبداعيّة لا يقع الاحتياج فيها إلى استعمال المصطلح، ولا المكابدة في توخّي استعماله، ولكنّها تتمّ بمجرّد نقل المعنى إلى المعنى. في حين أنّ المعاناة تُكابَدُ لدى الْمَسْعاةِ إلى ترجمة المصطلح من إحدى اللغات الحيّة إلى اللغة العربيّة، في علم من العلوم العصريّة التي سبَقنا القوم إلى ابتكاره، وبما في ذلك اللسانيّاتُ والسيميائيّاتُ، وهنا يقع إيمَا التقصيرُ في ترجمتها، وإيمَا التساهلُ والتَّعَجُّل في استعمالها، فيوشك المترجم أن يقع في الخطَل، وينقادَ إلى الزَّلَل.

وليس هذا فقَدْ، ولكنّ المستعمِل العربيّ للمصطلح المترجَم يَتمّ بشيء من التعجّل فيسبِقُ سيْلُهُ مَطرَه، كما تقول العرب في أمثالها. ولو اتّبع المترجم المراحل الثلاثَ التي اقترحْنا التعريجَ عليها، قبل تقرير الاستعمال، لنضَبَ سيْل الفوضى في هذا المجال. ولَمّا كنّا لا نرقَى إلى المستوى العلميّ لعلماء الغرب (نقول ذلك ولا نحمل أي عقدة نقص، لأنّا يجب أن نبحث كما بحثوا، ونجِدَّ كما جدّوا، وهنالك سنكون لهم أنداداً) إلاّ في استثناءات لا تلغي القاعدة: فإنّا لم نزل نُضطَرّ إلى ترجمة المصطلح لأيّ علم من العلوم من أصله الغربيّ (إنجليزيّ غالباً، وبدرجة أقلّ في العلوم الإنسانيّة: فرنسيّ) إلى اللغة العربيّة، فنقع في أمر مَريج.

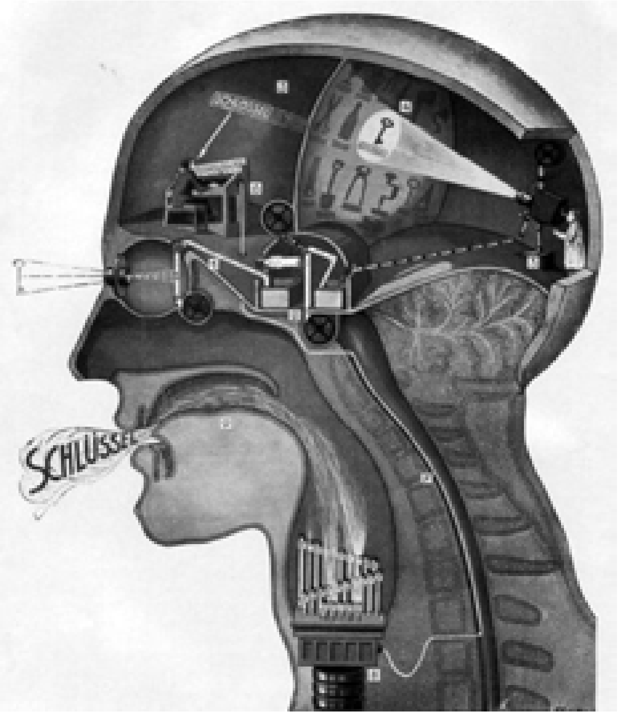

(٧) ولعلّ أوّل من استعمل لفظة تراجمة التي صارت مصطلحاً يطلق على الأعاجم الذين كانوا يترجمون للملوك كما ورد في كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير وسواه: المقفّع الكِنْدي من قصيدة يمدح فيها الوليد ابن يزيد، حيث يقول:

مستعجِمٌ وهْو الفصيحُ بكلّ ما نطَق اللسانُ به على اسْتِعجامِهِ
وله تراجمةٌ بألسنةٍ لهـــــمْ تِبيانُ ما يتلون من تَرَجامِهِ

عَيْنٌ على كتابِ
(الخصائص) لابنِ جنِّـي

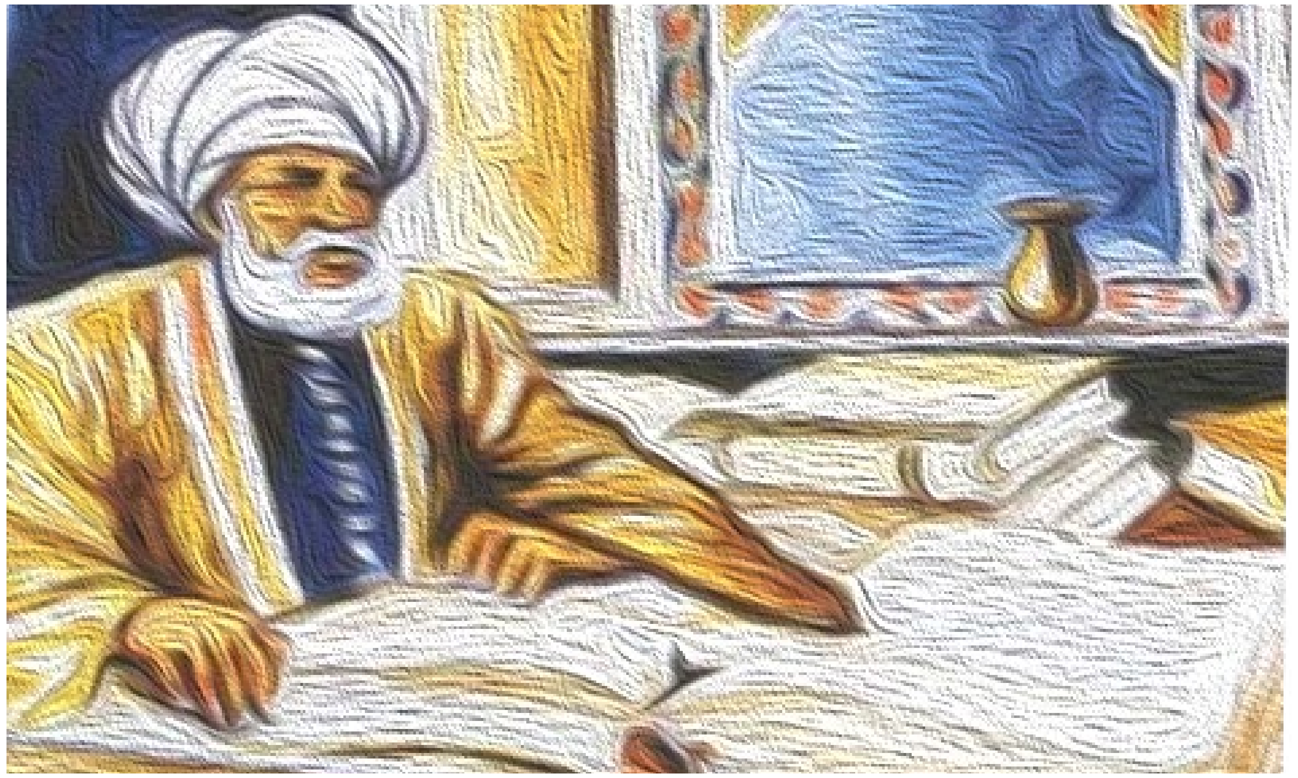

لم تعرف الأمة العربية ـ بشكل كبير ـ في عصورها المتقدمة على الإسلام الكتابة، فأحرى التدوين والتأليف وفق مناهج علمية متضحة المعالم. ولا تقدح في ذلك تشبيهات شعرائها آثار دوارس الدمن بـ «خط زبور» و«ما رقش في ظهر الأديم قلم» و«بابهما»، فهي لا تُلزم ولا تستلزم دراية القوم -في عامتهم - بالكتابة.

ومع ظهور الإسلام واتساع رقعته وتمدُّن القوم واحتكاكهم بأهل الحضارات الأخرى، دعت دواع دينية وسياسية إلى الاعتناء باللسان العربي خصوصًا ،وكل ما يخدم نصوص الوحي عمومًا، فانكبَّ جهابذة الحُذَّاق على التدوين في كل تلك الحقول المعرفية، تحدوهم الهمم العالية وابتغاء «العمر الثاني».

د. المعلوم محمد الحضرامي
أستاذ بمعهد ابن عباس للدراسات
الإسلامية بانواكشوط

ومن أهمِّ وأعزِّ ما صُنف في الدراسات اللغوية خلال تاريخ الأمة العربية (كتاب الخصائص) الذي ألَّفه الإمام النَّحْوي أبو الفتح عثمان بن جني الرومي(ت٣٩٢هـ) في القرن الهجري الرابع، فجمع فيه وأوعى من أسرار لغة القرآن الكريم ما بَذَّ به المعاصرين، وفتح به آفاقًا علمية واسعة للمتأخرين.

يعتبر كتاب (الخصائص)أحد أشهر الكتب اللغوية القديمة وأكثرها تجديدًا في ميدانه عمومًا، وأبرز وأشهر تآليف ابن جِنّي خصوصًا، فلا يكاد يُذكر ابن جني إلا وذُكر كتاب الخصائص! وقد وضعه استجابة لطلب بعض مرتادي مجلسه العلمي، الراغبين إليه في وضع هذا التأليف بإلحاح، كما في المقدمة؛ ثم أهداه ـ بعد ما استوى على سُوقه ـ لبهاء الدولة، أحدِ ملوك دولة (بَني بُوَيْه) الذين عاصرهم في القرن الرابع الهجري، وهي عادةٌ دَأَب عليها العلماء في تلك العصور.

ولا يخفى تجديده في هذا التصنيف على مستوى الموضوعات التي يثير، وعلى مستوى المنهجية العلمية، ما جعله ينال إعجاب معاصريه من أهل العلم ومن جاء بعدهم، ويُعتبر فتحًا جديدًا في عالم الدراسات اللغوية، وأول مصنَّف معروف في علم أصول النحو بمعناه الاصطلاحي.

ومن حيثُ المنهجيةُ العامةُ نحَا ابن جني في كتابه هذا نهج أصول الكلام والفقه، كما صرَّح به في قوله في المقدمة: "وذلك أنا لم نر أحدًا من علماء البلدين تعرَّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه". وآثر الميل إلى الإطناب والتكرار، متوسلًا إلى الإقناع بكل ما في وسعه.

وقد صدر الجزء الأول من كتاب الخصائص عن مطبعة الهلال عام١٩١٣ م، ثم صدر بعد ذلك كاملا في ثلاثة أجزاء عن دار الكتب المصرية عام ١٩٥٢م ـ ١٩٥٥م، بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار، وهو تحقيق علميٌّ مميَّزٌ ونادرٌ، ظلت دور النشر تكتفي بتصويره في الإبرازات الأخرى من الكتاب.

وخلال تصفُّحِنا لهذا الكتاب خرجنا بالملاحظات التالية:

١. الاستطراد: غلب الاستطراد على المصنَّفات العربية القديمة، باعتباره دالًّا على سعة اطلاع الكاتب وبُعْد غَوْرِه، وهي عادة منهجية لم يخرج عليها ابن جني، بل ظل يمارسها ويبررها في كتابه هذا.

يقول: "وأَفْضَينا إلى هذا القدْر، لاتصاله بما كنا عليه، قال:

وَعِندَ سعيد غيرَ أنْ لم أبُحْ بِهِ
ذكرتُكِ إنَّ الأمـرَ يُذكرُ للأمـرِ

ويقول: "فهذا شيء عرض قلنا فيه، ثم لنعُدْ"

٢. الإحالة على أعمال سابقة أو لاحقة: لا تخطئ عين مطالع هذا السِّفر المبارك إحالاتٍ مفيدةً، تتعلق بالإنتاج العلمي لابن جنّي، وهو أسلوب معين على تتبع سيرورة الحركة التأليفية عند الكاتب، وقد رَصَدْنا من تلك الشذرات :

قوله: "ونحن نعتقد إن أصبنا فسحة أن نشرح كتاب يعقوب بن السكِّيت في القلب والإبدال".

وقوله: "ولم تحضرنا هذه المسألة في وقت علمنا الكتاب (الْمُعرِب) في تفسير قوافي أبي الحسن فنودعها إياه، فَلْتُلْحق هذه المسألة به بإذن اللَّه".

وقوله: "وقد ذكرت هذا الموضع في كتابي في شرح المقصور والممدود".

٣. اهتمامه بالقياس: يظهر من صنيع ابن جني تأثره بشيخه أبي علي في التركيز على القياس وتقديمه على حفظ اللغة، يدلّ على ذلك قوله في الجزء الثاني:

"مسألة واحدة من القياس أنبَل وأَنبَهُ من كتاب لغة عند عيون الناس. قال لي أبو علي – رحمه اللَّه –بحلب سنة ست وأربعين: أخطئ في خمسين مسألة في اللغة، ولا أخطئ في واحدة من القياس".

٤. اهتمامه بالمسائل النظرية: وفي إطار اهتمام ابن جني

بالقياس ،عرَّج على بعض المسائل النظرية، لبناء الْمَلَكة والتدريب على التمثل وامتلاك الكفايات، يقول مبررا عمله ذلك:

"وهذا ونحوه إنما الغرض فيه الرياضة به وتدرُّب الفكر بتَجَشُّمِه وإصلاح الطبع لِما يعرض في معناه وعلى سَمْتِه، فأما لأن يستعمل في الكلام (...) فلا. ولو كان لا يُخاض في علم من العلوم إلا بما لا بدَّ له من وقوع مسائله معينة محصلة لم يتم علم على وجه، ولبقي مبهوتًا بلا لحظ ومخشوبًا بلا صنعة! ألا ترى إلى كثرة مسائل الفقه والفرائض والحساب والهندسة وغير ذلك من المركبات الْمُستصعَبات، وذلك إنما يمر في الفرط منها الجزء النادر الفرد، وإنما الانتفاع بها من قِبل ما تقنيه النفس من الارتياض بمعاناتها".

٥. سعيه إلى التجديد: من مزايا ابن جنّي ترفُّعُه عن اجترار ما خِيضَ فيه من المسائل

الضَّرْب من الكلام (...) كثير في كتب العلماء، وقد تناهَبَتْه أقوالُهم ،وأحاطت بحقيقته أغراضُهم، وإنما غرضنا هنا ما وراءه من القول على هذا النحو".

ولذلك نلاحظ بين سطوره نفَسًا علميًا جريئًا، يبحث عن الماوَرَائِيّات:

"وإنما يسمع الناس هذه الألفاظ فتكون الفائدة عندهم منها إنما هي علم معنياتها، فأما كيف ومن أين ؛فهو ما نحن عليه. وأحجِّ به أن يكون عند كثير منهم نيِّفًا لا يُحتاج إليه وفضلًا غيره أولى منه".

إنه باحث من الطِّراز الأول لا يكتفي بالقشور عن اللبّ، بل يتطلع إلى الملاءمة والجمع:

"فالتأتِّي والتلطُّف في جميع هذه الأشياء وضمِّها وملاءمة ذات بينها هو (خاصُّ اللغة) وسرُّها وطلاوتُها الرائقة وجوهرها، فأما حفظُها ساذجةً وقمشُها محطوبةً هرِجةً ؛فنعوذ بالله منه ،ونرغبُ بما آتاناهُ سبحانه عنه".

وهو لا يفوِّت الفرصة في التنبيه على بعض إبداعاته الدقيقة، حتى لا يدعيها المنكِّب عن سواء طريق الاعتناء بالملكية الفكرية، فيقول ـ مثلًا ـ في مُفتَتَح (باب في الاشتقاق الأكبر):

"هذا موضع لم يُسمِّه أحد من أصحابنا، غير أن أبا علي – رحمه الله – كان يستعين به ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمِّه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح إليه ويتعلل به. وإنما هذا التلقيب لنا نحن، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسَن".

٦. اعتماده على دروس شيخه أبي علي: إذا كان سيبويه اعتمد في (كتابه)على مادة شيخه الخليل، فإن ابن جني اعتمد في (خصائصه) على مادة شيخه أبي علي الفارسي، مصرِّحًا بذلك في مواطن مختلفة منه، كقوله:

"ولأبي علي ـ رحمه الله ـ مسألتان: طويلة قديمة،وقصيرة حديثة،كلتاهما في الكلام على الحرف المبتدأ أَيمكن أن يكون ساكنًا أم لا،فقد غنينا بهما أن نتكلف نحن شيئًا من هذا الشرح في معناهما".

٧. إعجابُه بالمتنبِّي واستشهادُه بشعره: اشتهر ابن جني بعلاقته الخاصة مع المتنبي وإعجابه به، وترجم ذلك الإعجاب في وضع شرحَيْن مهمَّيْن على ديوان أبي الطيب، كما ترجمه في هذا الكتاب بالاستشهاد بشعره والثناء عليه؛ يقول:

"وذاكرتُ المتنبي شاعرَنا نحوًا من هذا ،وطالبته به في شيء من شعره، فقال: لا أدري ما هو، إلا أن الشاعر قد قال:

لَسْنَا كَمَنْ حَلَّتْ إِيَادُ دارَها ... البيت

فعجبتُ من ذكائه وحضوره مع قوة المطالبة له ،حتى أورد ما هو في معنى البيت الذي تعقَّبتُه عليه من شعره، واستكثرت ذلك منه".

هذا وقد خرجنا من قراءتنا لترجمة ابن جني، ومحاولة استكناه خفايا تأليفه حول خصائص اللغة العربية الشريفة اللطيفة؛ بخلاصات نجملها في النقاط التالية:

أ- أن هذا الرجل كان شخصية علمية فذّة ومميزة،لم تقعد بها عُقد التراتبية الاجتماعية ـ المهيمنة في عصره ـ عن تسنُّم ذرى الإبداع.

ب-أن كتاب الخصائص "أول كتاب أُلِّف في علم أصول النحو بمعناه الاصطلاحي الدقيق".

ج- أن ابن جني كان موفقًا في منهجيته التأليفية تبويبًا وتفقيرًا وتعريفًا وتقسيمًا وأسلوبًا، مستعينًا بانتهاج منهج أصول الكلام والفقه، وإنْ جَمَح به القلم إلى الاستطرادات في بعض الأحايين، وجعله تداخلُ المستويات اللغوية التي ناقش في كتابه يترك جَنَانَه يرتع ويرتعي دون صَرامةٍ في الترتيب الداخلي.

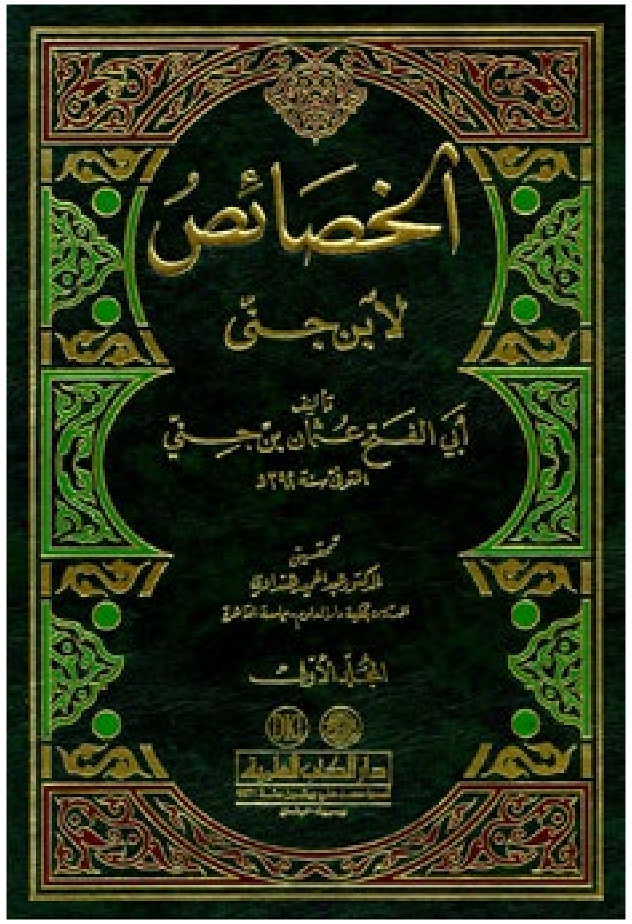

د- أنه ترفَّع عن اجترار ما خِيضَ فيه من المسائل العلمية حتى نضج، وعرَّج على بعض المسائل النظرية لبناء الْمَلَكة والتدريب على التمثل وامتلاك الكفايات، وركَّز على القياس مقدِّمًا له على حفظ اللغة والاكتفاء بالقشور.

هـ- أنه قدَّم خلال هذا الكتاب شذراتٍ مهمةً، منها ما يتعلق بشيخه أبي علي، ومنها ما يتعلق ببعض معاصريه كالمتنبي، ومنها ما يتعلق بإنتاجه العلمي وتبنِّيه لبعض المذاهب.

وكلها نتائج تدعو إلى ضرورة إحياء تراثنا اللغوي في مختلِف العصور، وقراءته قراءة تمحيص واستنتاج، سبيلًا إلى تأسيس نظريات علمية تقوم على مرتكزات صلبة تراعي الجوانب المتعددة للمادة العلمية.

لغة التّنزيل

د. امحمد صافي المستغانمي

الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

ورُعْبوبةٍ غيداء قلَّ نظيرُها ... وفاحَ بأرجاء البلاد عبيرُها
فساتينُها بيضٌ بهِيٌّ جمالُها ... إذا أبصَرَتْها العينُ زادَ سرورُها
لها أعيُنٌ دُعْجٌ وضيءٌ جبينُها ... وإيقاعُها عذبٌ وكُلٌّ أسيرُها
لها في صدور العارفين مَحبَّةٌ ... وكُلُّ أديبٍ حبُّها وعشيرُها
لئنْ أَجَّ ماءُ البحر كُلَّ أُجُوجةٍ ... فقد عَذُبَتْ أوازُنُها وبُحورُها
لئنْ حفَّ بالحسناء عقدٌ بِنَحْرها ... فبالسَّجع والتَّجنيس حُفَّت نُحورُها
فماذا دهى قومي تُجاهَ بهائها ... فما لي أراها اليومَ عزَّ نصيرُها
أيا لُغةَ التّنزيلِ عُذْرًا مُضاعَفًا ... فإنَّ هُذَيْلَ الشعر غابَ أميرُها
وإنَّ بني القرآن تاهوا عن الهُدى ... وإنَّ رياحَ الغَرْبِ هبَّت حَرورُها
وإنَّ أُسودَ الغابِ غابوا عن الحِمى ... ضراغمُها نامت ونامَ زئيرُها
وأبناؤُنا صنفان: صِنفٌ مُمَيَّعٌ ... وطائفةٌ أُخرى عجيبٌ غُرورُها
فأمّا ذَوُو التَّمييع فالغربُ رأسُهم ... وأفظِعْ بنيرانٍ تُغَذّى سعيرُها
وأمّا ذوو التّغرير فالجهلُ ذَنبُهم ... يجوبون جهلاءَ شديدا هجيرُها
وجُلُّهُمُ يهذي بفقه وفطنة ... وهلْ يفقَهُ الأخبارَ إلاَّ خبيرُها
رَمَوْا لُغةَ القرآنِ لَوَّوْا رُؤوسَهم ... وهلْ يُنكرُ النّعْماءَ إلا كَفورُها
وهَلْ يُتْقِنُ الإعرابَ إلا حبيبُهُ ... وهلْ يسبُرُ الأشعارَ إلا سميرُها
وهل يُفصِحُ الإنسانُ دونَ عُروبةٍ ... ألا إنَّ ذا نُكْرٌ وليسَ يضيرُها
أيا حُكماءَ العُرْبِ هُبُّوا لرُشدِكم ... فلا ينصُرُ البُلدانَ إلا صُقُورُها
وثوبُوا لحسناءِ اللغات جميعِها ... وإنْ تُخْطَبِ الحسناءُ تُحْمَدْ مُهورُها

نَحوَ مُعلِّمٍ جَدِيرٍ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

محمود عبد الباري تهامي
باحث مساعد
بمجمع اللغة العربية بالقاهرة

مرَّت عقود يُختار فيها معلمُو اللغات الأجنبية ودارسوها من صفوة المتقدّمين للنهوض بها تدريسًا أو دراسة؛ فعلى سبيل المثال كانت كلية الآداب بجامعة القاهرة وما تزال تشترط في الطلاب المتقدّمين للالتحاق بأقسام اللغات غير العربية أن يكونوا حاصلين على أعلى الدرجات في مجموع اللغات الأجنبية واللغة العربية كذلك؛ أي أنّ هذه الأقسام يتقدّم للدراسة فيها صفوةُ الطلاب النابغين في كلٍّ من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، فضلًا عن المتميّزين في اللغة العربية كذلك، وفي الوقت نفسه يلتحق بقسم اللغة العربية من ضاقت بهم السبل في الأقسام الأخرى، وربما يتمّ مؤخرًا اشتراط اجتياز امتحان قبول للالتحاق بقسم اللغة العربية، لكنّه على كلِّ حال امتحان لا يمنع الطلاب الضعفاء في اللغة - فهمًا وتعبيرًا - من الالتحاق بالقسم، ويمكننا أن نقيس على هذا المثال الكليات المعنية بتعليم اللغة العربية كلّها، والأقسام المتخصصة فيها.

هذا الوضع يعني أنّنا أمام طلاب معظمهم مُرغمون على دراسة اللغة التي سينهضون بعبء تعليمها أو تحليلها أو تطويرها والحفاظ عليها؛ فهناك حالة من العزوف عن دراسة اللغة العربية وطلبها، ويبدُو واضحًا سبب العزوف عن التخصّص في حقول الدراسة التي تَمُتُّ بصلاتٍ إلى اللغة العربية، والإقبال الدائم على دراسة غيرها من اللغات، والتخصّص في غيرها من ميادين المعرفة؛ فسوق العمل لا يجعل إجادة اللغة العربية شرطًا من شروط التعيين في وظيفة مهمّة، بل إنَّ بعض الوظائف التي تتطلّب إجادة اللغة العربية – كأن تكون معلمًا للغة العربية – يتطلّب الحصول عليها إجادة لغة ثانية، ولكن هل يشترط في معلّم اللغة الإنجليزية مثلًا أن يكون مجيدًا للغة العربية؟!.

إنّ الدوافع هي دائمًا أهمّ عوامل الإنجاز، ولعلّنا نلحظ أنّ مستويات معلّمي اللغات الأجنبية ومهاراتهم الوظيفية وإنجازاتهم العملية، تبدو في تزايد دائم ومُطّرد مقارنة بمستويات معلّمي اللغة العربية، وإذا نظرنا في أسباب تلك المفارقة؛ فلا شكّ أنّ الأمر يعود إلى أنّ الدوافع ليست مُتكافئة، والدوافع هنا ليست مادية فقط، بل هي دوافع اجتماعية وثقافية؛ فالمجتمع نفسه يُعلي من شأن معلّمي اللغات الأجنبية، ويحطُّ من شأن معلّمي اللغة العربية، ولا داعي هنا لذكر أمثلة كثيرة؛ فيكفي أن نشير إلى الصورة النمطية لمعلّم اللغة العربية في المعالجات السينمائية والتليفزيونية.

ونتساءل هنا: ما الذي قد يدفع الطلاب المتفوّقين في المرحلة الثانوية إلى الالتحاق بكليات وأقسام اللغة العربية؟ ليكون مفتاحًا من مفاتيح الحلّ، بل وأساسًا من أسس البناء، فإذا تمَّ التخطيط من البداية لمستقبل واعد لهؤلاء المتخصّصين المتميّزين؛ فلا شكَّ أنهم سيقبلون على الدراسة والنهوض بلغتهم الأمّ، وقد يكون إنشاء مدارس عالمية لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وفتح أسواق عمل داخلية وخارجية للطلاب المتميّزين في حقل الدراسات العربية وتعليمها دافعًا قويًا، ومُحفِّزًا من مُحفّزات الإقبال على الاهتمام باللغة العربية، والسعي الجاد نحو دراستها وإتقانها.

لنا أن نتصور أنّ هناك معاهد متكاملة الخدمات من تعليم وإقامة فندقية ورحلات ترفيهية، وأنّ هذه المعاهد مُعدَّة لاستقبال طلاب اللغة العربية للناطقين بغيرها من مختلف الأنحاء، وكل طالب يعرف برنامج الدراسة والزيارة والإقامة والترفيه قبل قدومه، بل ويستطيع أن

يحدّد قبل القدوم إلى البلد العربي غاياته من تعلّم اللغة العربية، وبناء عليه يستطيع المعهد أن يضع له برنامجًا متكاملًا يحقّق غاياته، ويعدُّ له معلمًا قادرًا على مساعدته على بلوغ غايته كذلك، أظننا بذلك قد نفتح أبوابًا للعمل لطلاب متميزين يمكن إغراؤهم بامتيازات التخصّص في هذه الحقول المعرفية التي تتصل باللغة العربية، فضلًا عن التعليم الإلكتروني، أو التعليم عن بعد الذي يجب أن يكون هدفًا أصيلًا من أهداف المجامع اللغوية؛ فتعليم اللغة العربية ونشرها هو ما يحفظها ويطوّرها، لا أظن أن وضعها في المجلدات والكتب وعلى المواقع الإليكترونية وحده هو ما سيحفظها.

علينا أن نزيل عن هذا التخصّص العريق الصورة النمطية التقليدية التي تراكمت في أذهان النّاس عبر عقود طويلة، رسَّختها على نحو سلبي المعالجات الدرامية للعاملين في ميادين اللغة العربية بمختلف مناحيها وحقولها؛ فصار الحديث عن اللغة العربية ومتخصّصيها مثيرًا للضحك والسخرية؛ لما يستدعيه في ذهن المتلقي من مواقف سينمائية وتليفزيونية بدا فيها معلّمُ اللغة العربية شخصًا متخلفًا ومعقّدًا، ومتحذلقًا على نحو يجعله أقرب ما يكون إلى المهرّج.

إنّ إزالة هذه الصورة النمطية تتطلّب إعدادًا جادًّا ومتميزًا لصفوة من المتفوّقين يتم اختيارهم للدراسة الأكاديمية في كليات متميزة، تشترط للالتحاق بها شروطًا تُضاهي شروط الالتحاق بكليات الطبّ والهندسة وأقسام اللغات الأجنبية؛ ويكون القبول فيها مرتبطًا بعدد محدّد يتناسب مع فرص العمل المتاحة لخريجي هذه الكليات، وأقترح أن تكون فروع الدراسة في هذه الكليات مرتبطة بمجالات علوم اللغة العربية التطبيقية كالتعليم وتكنولوجياته، والحوسبة والبرمجيات العربية، والمعجمية الإلكترونية وغيرها.

بقي هنا أن نتحدث عن إصلاح ما أفسده الدهر، أقصد هؤلاء الذين أُجبروا على العمل لسنوات أو عقود في ميدان لم يكونوا راغبين فيه، وأقصد هؤلاء المعلّمين الذين يعانون وهم يدرسون ما لا يطيقون، أقترح أن توفّر المؤسّسات التي يعملون بها وظائف إدارية ملائمة لمن لا يبدي منهم استعدادًا للتطوير، وملاحقة الاشتراطات التي يجب توافرها في معلّم اللغة العربية الذي يجب أن يكون ملمًّا بلغة أجنبية واحدة على الأقلّ، وملمًّا كذلك بعلوم الحاسوب الأساسية، على أن يكون تحويل هؤلاء إلى الوظائف الإدارية دون مساس بمعاشهم الوظيفي، وبذلك تقوم المؤسسات التعليمية بعملية إحلال وتجديد تدريجي تقدّم فيها المتميزين المحببين لأعمالهم والمخلصين للغتهم على المرغمين على القيام بعبئه.

في جنة كاتب وأفياء كتاب

الكاتب شمس الدين، والكتاب سير أعلام النبلاء

لا أدري من أين أبتدئ الحديث عن شمس العلوم وإمام عصره والعصور من بعده، الحافظ بوعي، المدرك باستظهار، الجيد العرض، الفائق السبك، السلس الحديث، القارئ النهم، المرتب الأفكار، العامل بجد، قل نظيره، واستحال مثيله، العلّامة الذي فاق سابقيه، وتفوق على معاصريه، وأعجز من أتى بعده، الأديب الأريب، والمؤرخ المنصف على الرغم من ندرة الإنصاف بين الأحياء والمعاصرين فكيف يكون إنصاف الموتى والقرون الغابرة ولكن من طلب شيئا بعزمه وحرص عليه رغم استحالته واستعان بنقاء السريرة وصفاء النوايا في ابتغاء الثواب من رب العباد، أثابه المولى في الدارين، فثواب الدنيا خلود عمله وحوجة القاصي والداني لخبايا سفره وناهيك عن رفع ذكره في مجالس العلم والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء. أما ثواب الآخرة فما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

د. زينب السيد فكي
الباحثة بمجمع اللغة العربية السوداني
مديرة دائرة اللغات السودانية
واللهجات المحلية

بعد هذا التقديم الذي لم يوفِ عالمنا الجليل بعض حقه، فالحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي عالم علم غني عن التعريف وأشهر المترجمين المشهود لهم على اختلاف الأزمان، والذي تحفل حياته العلمية بالفرائد والدرر وليس أدل على ذلك من إنتاجه الغزير الذي يعتمد عليه معاصروه ابتداء ولا غنى لمن جاء بعدهم عن نفائسه المبهرة الشاملة حد الكمال إن كان لشيء دنيوي كمال، فقد أغنى عالمنا المفضال المكتبة العربية بالعديد من النفائس التي أعد منها ولا أَعدّدها نحو مؤلفاته في علم الحديث وهي: الميزان، وتذكرة الحفاظ، والمغني، والموقظة، وقد برع أيما براعة في التراجم ومؤلفاته في هذا الباب كثر وعلى رأسها كتاباه تاريخ الإسلام، ومناط بحثنا سير أعلام النبلاء وهما ختام فرائده في علم التراجم لذلك حظي بقصب السبق في اكتمال الأدوات وغزر المعارف وتنوعها وتفادي أخطاء المؤلفات السابقة وإن كنت لا أرى أن لإمام كالذهبي أخطاء إلا ما لا يخلو منه عمل بشري البتة.

إضاءة حول اسم الكاتب المصقع الذهبي

هو الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي وقديما قيل: (إن لكل حي نصيبًا من اسمه) من هذا المنطلق حاز الحافظ على تمام اسمه ابتداء من الاسم الأول (شمس الدين) فهو شمس المعارف والعلوم والدين والعلم صنوان لا يفترقان وعالمنا جمعهما معاً واسمه الثاني (محمد) كل محمد محمود الخصال وعالمنا كثر حامدوه، واسمه الثالث (أحمد) ويكفيه فخرا جمعه لاسمي المصطفى جمعًا هو له أهل، واسمه الرابع (عثمان) وكل من سمي عثمان له من السخاء والحياء سهم وافر ابتداء من عثمان بن عفان، ولقباه (الذهبي) وقد أخذ من هذا اللقب النفاسة والعلو واللّمعان المنقطع النظير حتى أغشى الأبصار فكل من أحد فيه البصر عاد كليلًا، أما لقب (الحافظ) فدرجة علمية لا ينالها إلا من حفظ عشرة ألف حديث فما فوق، وكنيته أبو عبد الله.

ميلاده وعصره ونفائسه:

ولد عالمنا شمس الدين في منتصف العام ٦٧٣ الهجري وهذا العام يقع في خواتم العصر العباسي، هذا العصر الذي لم يلقب بالعصر الذهبي اعتباطا فقد اكتمل فيه الحراك بشقيه العلمي والديني ولم يكتفِ بذلك فقد اتسع جدا حتى شمل كل العلوم وهضم كافة الحضارات، وتفرغ فيه العلماء للكتابة المتخصصة الشاملة التي تمزج بين العلوم المتباينة كمزج النحل لمختلف الرحيق فتخرج لنا الشهد، وهذا العصر هو الشهد الخالص من حيث شفاؤه للعلل العلمية كافة كأنه المعني بقول الشاعر:

النَّحْلُ لما رَعَـتْ مِنْ كُلِّ فـاكهَـةٍ
أَبْدَتْ لَنا الجَوْهَرَينِ الشَّمْعَ وَالعَسَلا
الشَّمْعُ بِاللَّيـلِ نـورٌ يُسْـتَضاءُ بِهِ
والشَّهْـدُ يُبري بِإِذنِ البـارِئِ العِـلَلا

للذهبي نفائس أثرت المكتبة العربية على تواتر العصور منها: السفر الأول: كتاب (تاريخ الإسلام)، وهو من أمتع كتب التراجم وأجلها، ومما لا يستغني عنه باحث أو قارئ، فقد صور الذهبي من خلاله أعلام الأمة على امتداد سبعة قرون كاملة. السفر الثاني: كتاب (ميزان الاعتدال في نقد الرجال). السفر الثالث: كتاب (تذكرة الحفاظ).

إضاءة حول السفر الخالد سير أعلام النبلاء

هذه الإضاءة تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما وصف سفر

هذه الإضاءة تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما وصف سفر سير أعلام النبلاء المظهري والمخبري، الوصف المظهري ببيان عدد مجلداته وعدد طبعاته وهي:

أولاً: من حيث عدد مجلدات السير:

بلغت مجلدات السير أربعة عشر مجلدًا في مخطوطته الأساسية والتي جعل الذهبي كتابه "سير أعلام النبلاء" في أربعة عشر مجلدًا راعى فيها التناسق من حيث عدد الأوراق، ولم يراع في الأغلب ناحية تنظيمية أخرى، لذلك وجدنا النساخ فيما بعد لم يلزموا أنفسهم بتقسيم المؤلف.

وقد أفرد الذهبي المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية الشريفة وسير الخلفاء الراشدين، لكنه لم يُعِدْ صياغتهما، وإنما أحال على كتابه العظيم "تاريخ الإسلام" ليُؤْخَذا منه ويُضَمّا إلى "السير" فقد جاء في طرة المجلد الثالث من نسخة أحمد الثالث الأولى تعليق بخط الذهبي كتب على الجهة اليسرى منها نصه: "في المجلد الأول والثاني سير النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة تكتب من تاريخ الإسلام".

ثانياً: من حيث عدد طبعات السير:

الطبعة الأولى: طبعة دار الفكر بيروت، وهي طبعة كاملة تحتوي على مجلد السيرة ومجلد التراجم المفقود والذي يحتوي على ترجمة شيخ الإسلام.

الطبعة الثانية: طبعة دار الحديث، وهي غير كاملة وقد اعتمدت طبعة الرسالة أصلًا لها.

الطبعة الثالثة: طبعة التوفيقية، وينقصها مجلد الفهارس لم يطبعوه بالإضافة إلى أخطاء فنية.

الطبعة الخامسة: طبعة مؤسسة الرسالة وهي أشهر الطبعات بتحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، وتعتبر هذه الطبعة هي الأفضل.

وصف سفر سير أعلام النبلاء العلمي من خلال منهج الذهبي

رتب الحافظ الذهبي كتابه على الطبقات، حيث جعله على أربعين طبقة تقريباً، وهذا هو أسلوبه في عرض التراجم، وهذا الأسلوب له بذوره الدينية ولعل كل من انتهج هذ النهج اعتمد على حديث المصطفى الذي أورده البخاري ونصه: "خير أمتي قرني هذا ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، وقد أشار العيني في شرحه (عمدة القاري) إلى أن خير القرون الصحابة ثم التابعون ثم أتباع التابعين.

إذن التقسيم على نهج الطبقات هو تقسيم إسلامي أصيل كما أنه أقدم تقسيم زمني وُجِدَ في التاريخي الإسلامي، ولم يكن نتيجة مؤثرات خارجية، بل هو نتيجة طبيعية لفكرة دينية بحتة تعتمد على حديث المصطفى الآنف الذكر.

لقد كان الذهبي من أبرز علماء التراجم، واسع الاطلاع، غزير المعارف لا سيما في التراجم، لذلك استعمل أسلوبًا فريدًا في انتقاء التراجم ووضع لها العديد من الأسس، وهذه الأسس يمكن تلخيصها في خمسة عمد وهي:

العمدة الأولى العلّمية:

لقد اشترط الذهبي العلمية، فعمد على اصطفاء الأعلام وترجم لهم، ولم يورد المغمورين والمجهولين، وأظن وليس كل الظن إثمًا، أن سبب هذا التخيير هو الفوائد الجمة التي لا تخلو منها تراجم الأعلام، وممّا يدعم هذا المسلك القول المأثور (من أخصب تخير).

العمدة الثانية الشمول النوعي:

لم يقتصر الذهبي في سفره هذا على نوعٍ معين من

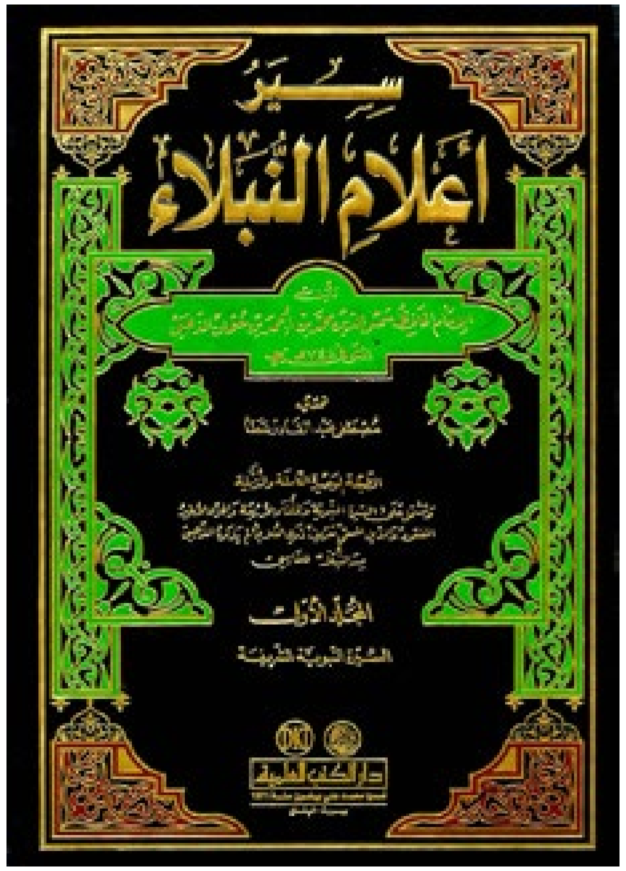

الأعلام، بل نوَّع تراجمه ما استطاع، فأتت تراجمه شاملة لفئات الخلفاء والملوك والسلاطين والقضاة والوزراء والمحدثين والفقهاء والأدباء والأطباء واللغويين والنحاة والشعراء

وأرباب الملل والنحل والمتكلمين والفلاسفة وانتهاء بمجموعة من المعنيين بالعلوم الصرفة.

العمدة الثالثة الشمول المكاني:

لقد عمل الحافظ الذهبي على أن يخرج كتابه شاملاً لتراجم الأعلام من كافة أنحاء العالم الإسلامي، من أقصاه إلى أقصاه فجمع التراجم من الأعلام ابتداء من الأندلس غرباً إلى أقصى الشرق.

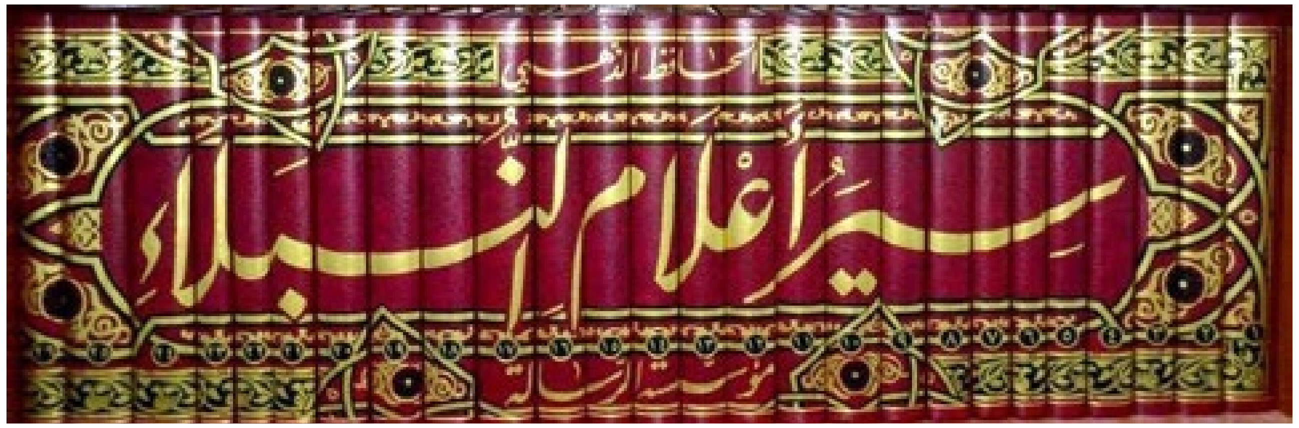

العمدة الرابعة التوازن الزماني:

سعى الحافظ الذهبي جاهدا أن يوازن ما استطاع في عدد الأعلام الذين ذكرهم على امتداد المدة الزمنية التي استغرقها الكتاب والبالغة سبعة قرون، حيث إننا لم نجد عنده تفضيلاً لعصر ما على عصر آخر، وتلك قمة الحياد والعدالة والبعد عن التحيز البالغ الضرر.

العمدة الخامسة تباين التراجم طولا وقصرا:

أرى أن الحافظ الذهبي لم يكتب كل علمه في تراجم الأعلام التي تضمنها هذا الكتاب، فهو عالم واسع الاطلاع في تراجم الرجال، كما نلاحظ في هذا الكتاب نوعين مختلفين من الترجمة، فقد ترجم للإمام أحمد بن حنبل أكثر من مائة صفحة بينما ترجم لجنكيز خان والحجاج بن يوسف الثقفي في صفحة واحدة أو أقل، ولم يفت هذا التباين على فطنة الذهبي فبرر لهذا التباين بتباين مقدار الفائدة المتوقعة من كل ترجمة، فسيرة أحمد بن حنبل فيها من النفائس والنوادر ما يُنْتَفَعُ بذكره ويُستَفاد منه ويُقتَدى به على مر العصور.

إذن فقد امتاز الذهبي عن رصفائه من المترجمين بثلاثة أمور ارتقت بسفره وكتبت له الخلود والسيرورة وهي:

أولاً: الإنصاف والعدالة، وعدم التحيز سواء لفرقة أو مذهب أو قبيلة أو عصر أو ملك أو دولة، وهذا أمر عزيز جدا .

ثانياً: إخلاص النية وابتغاء الأجر من الخالق لا المخلوق.

ثالثا: لطف العبارات وسلاسة الأسلوب وانسيابية العرض ويسره.

شذرات منتقاة من سير أعلام النبلاء

هذا السفر النفيس كله أطايب وأحسبه مما لا يستغني عنه طالب علم والقاعدة تقول ما لا يؤخذ كله لا يترك جله فمن فاته التبحر في هذ العلم الجم والبحر الزاخر بتفاصيل كل من أثر في الحراك العلمي والسياسي والثقافي والديني ابتداء بخير الأنام محمد المصطفى مبلغ الرسالة المحمدية وحتى انتقال كاتبنا الذهبي من دار الفناء إلى دار البقاء. فلا تفوته هذه الشذرات التي أعجبتني جدا وكله معجب لكنني اجتهدت لاصطفاء الأطايب ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

الشذرة الأولى: سيرة عبد الملك بن مروان وإغلاقه للمصحف

هذه الواقعة التي ذكرها كافة المؤرخين واتخذوها مدخلًا للحكم على عبد الملك وعصره ولكن الذهبي عندما أوردها في معرض الحكاية عن غيره فقال: (قال ابن عائشة: أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف بين يديه، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك، قلت: اللهم لا تمكر بنا) انظر كيف ختم الخبر بالدعاء قائلًا: (اللهم لا تمكر بنا) ألا تجده يشتمل على إيعاز بأن كل المسلمين عرضة للفتنة، وأيضا ألا تتنسم فيه دعاء المصطفى (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، أهناك انصاف للموتى أبلغ من موقفه هذا؟

شمس الدين الذهبي

الشذرة الثانية: سيرة الحجاج بن يوسف

هذا الأمير الذي ألفت المجلدات في ظلمه وعدوانه وجرأته على الدين ورجالاته، لم يفرد له الذهبي سوى نصف صفحة فقط وختم تاريخه لسيرته بسطر غريب جدا فقد قال عن الحجاج: (وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء) انظر هداك الله كيف لم يُغفِلْ ذكر حسنات الحجاج ثم فوض أمر الحكم عليه لله عز وجل فهو وحده من يحق له الحكم على عباده وليس للبشر من الأمر شيءٌ، ولم يكتفِ بذلك بل شهد له بالتوحيد الذي يكفل له حقوق المسلم على أخيه المسلم، ومضى مُذَكِّرًا بأنه لم يكن الجبار الوحيد، بل له نظراء من الأمراء والحكام، وهذا عندي منتهى التذمم وعدم التعرض لِعَلَمٍ ما من خلال سيرته.

أكتفي بهذا القدر لإثبات فرضية البحث القائلة بإنصاف الذهبي لكل من أرَّخ لهم من خلال سفره سير أعلام النبلاء، والإنصاف في عمومه مركب صعب يشق على النفس حتى ترتاضه، أما إنصاف الموتى فغاية الغايات التي تقارب المحال إن لم تكنه.

الــهـــدهـــد.. ومنهج البحث عن الحقيقة

أ. د. لعبيدي بوعبدالله
جامعة محمد الخامس أبو ظبي

لقد ضرب لنا القرآن الكريم أروع الأمثال، وقص علينا أحسن القصص، بتعابير رائعة وأساليب ماتعة، تركيبا ودلالة. ومن جملتها ما تضمنته سوره من ذكر الحيوانات؛ لتحقيق أغراض دلالية وبلاغيّة عديدة.

وإن المتعقب لسور القرآن الكريم ليجد أن المذكور من الحيوانيات هو: الإبل، والبغال، والبقر، والبعوضة، والثعبان، والجراد، والحمير، والحوت، والخنزير، والخيل، والذئب، والذباب، والسّبع، والسلوى (طائر)، والضأن، والضفدع، والعجل، والعنكبوت، والغراب، والفراش، والقردة، والقمل، والكلب، والماعز، والنحل، والنمل، والهدهد،.

ولا شك أن هذا السجل المعجمي لأسماء الحيوانات يضفي رشاقة على حمولتها الدلالية؛ لتتطابق وعناصر السياقات والمقامات التي وردت فيها.

وإذا كان القرآن الكريم قد نقل لنا مفهوم (البحث) من خلال فعل الغراب الذي بعثه الله ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ليعلِّم ابن آدم كيف يعالج مشكلاته النفسية والاجتماعية والإنسانية بشكل عام، فإنه قد بين منهجه من خلال ما تضمنه جواب الهدهد -وهو يبرر تغيبه عن الاجتماع الذي عقده سيدنا سليمان - في قوله تعالى:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل، ٢٢-٢٥]

والطريف في هذا أن الهدهد قد سلك في جوابه مسلك الخطاب الهادئ والهادف والهادي:

الهادئ -من خلال انسجام بنيته الصوتية-؛ لأن موقف دفاعه وإجابته عن الاستفسار الموجه إليه لم يخرجه عن الهدوء والتأدب مع نبي الله. والهادف؛ لأن انتظام البنية التركيبية لم تخرج عن محايثة قصدية الخطاب. وهو هادٍ لأن البنية الدلالية كانت دليل سيدنا سليمان - للتواصل مع بلقيس فيما بعد.

والأطرف من هذا أنه اتبع خطوات إجرائية منهجية، نوجزها فيما يأتي:

- الاهتمام بمصدر المعلومة: وذلك في قوله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾، بل وصف (النبأ) بـ (اليقين)؛ مع أنه لا يحتمل الكذب -بخلاف الخبر-، وفي ذلك تدليل على اهتمامه بالمصدر الذي سيبني عليه استنتاجاته.

- دقة الوصف: في قوله ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ بدل (مَلِكَة)، وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بدل (كل شيء)؛ لأن في قوله هذا أو ذاك حكم مسبق بملَكِيّتها للخلق ولكل شيء.

- التمهيد للموضوع: في ما تقدم من الوصف تمهيد مناسب للدخول في صلب الموضوع.

- التقييد بموضوع واحد: ويظهر من خلال البنية الدلالية لجواب الهدهد أنه لم يتحدث إلا في موضوع واحد وهو العقيدة، وهو في غاية الدقة والأهمية، أراد الله - نقله على لسان طائر. وهو ما يؤكد قيّوميته على جميع مخلوقاته، وأنهم لما تساووا في أصل الخلقة تساووا في الإيمان به والدعوة إلى عبادته.

- توظيف الاستقراء: في قوله: ﴿وَقَوۡمَهَا﴾، والاستقراء مسلك لفهم أعمق للظواهر من خلال الانتقال من جزئيات القضايا للحكم على كلياتها.

- تبني الموقف: كل الأدوات المنهجية والمراحل الإجرائية أدت به إلى إصدار حكم أنهى به نقله الحقيقة: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾.

والملاحظ أن في قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ استثمار لمعارفه المسبقة وتجسيد لقناعته الإيمانية.

وهكذا يمكن اعتبار منهج الهدهد في التعاطي مع ما وجده في سبأ منهج البحث السليم؛ في صحة النقل ودقته، وجودة الوصف والتحليل وموضوعيته، وتبني الموقف الملائم مع حسن استدلال. فكانت عناصر خطابه منظومة منهجية متكاملة، ومفاتيح دلالية أثمرت إسلام أمة بكاملها.

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة
ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المدينة الجامعية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
مبنى مجمع اللغة العربية - الدور الأول
هاتف : 400 60 51 6 971+ , فاكس : 410 60 51 6 971+ , ص.ب : الشارقة ، 1973
البريد الإلكتروني : info@alashj.ae , الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة
ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

التّرشّح لـ :

جائزة الألكسو.الشارقة للدراسات اللغوية والمعجمية

الدّورة الرابعة 2020-2021